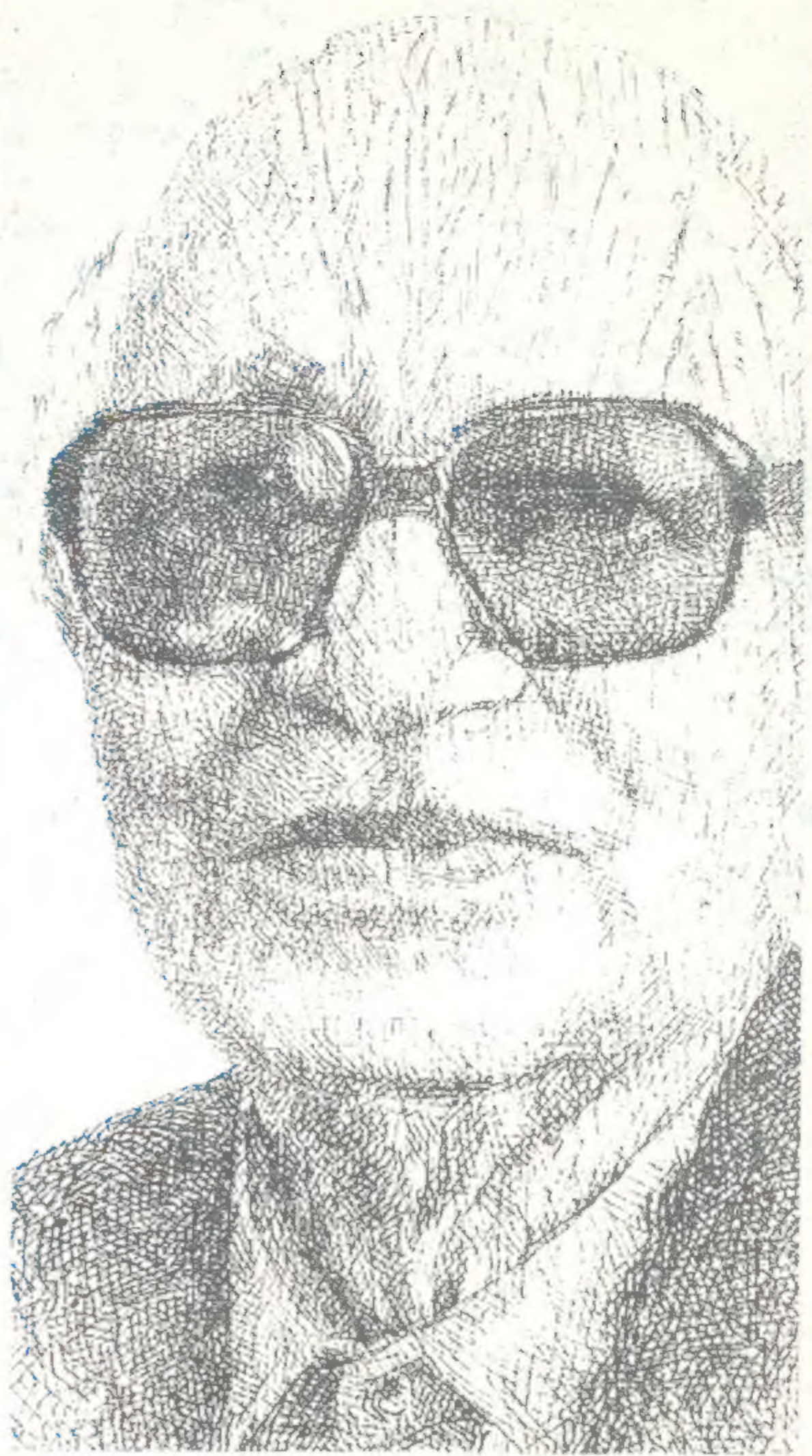


مكتبة أمية



دكتور
حسين مؤنس

غربة في وطني



دار المعارف



0205173

Bibliotheca Alexandrina

دكتور حسين مؤنس

غريب في وطني

إعداد ركتورة / منى حسين مؤنس

تمتد بهم رجب البنا



تصميم الغلاف : محمد أبو طالب

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

مقدمة

تتلمذت على الدكتور حسين مؤنس دون أن يدري..!

ونسج القدر خيوط علاقتي به..

وكانت البداية عن طريق أستاذ كبير هو الدكتور عبد العزيز كامل، وكان نائباً لرئيس الوزراء ووزيراً للأوقاف، وكنت صحفيًا في الأهرام مسؤولاً عن متابعة نشاط الوزارة، وكان طبعياً أن تتكرر اللقاءات بيننا يومياً، وتطورت العلاقة إلى أن أصبحت صداقة شخصية، وكانت أجمل لحظاتي حين يفرغ الدكتور عبد العزيز كامل من أعمال الوزارة، وأجلس معه في هدوء أستمع إلى علمه الغزير.. وكنت أجد متعة في الحوار مع عقلية كبيرة ومتميزة مثل عقلية هذا الرجل الذي لن أنساه أبداً.. وكان الحوار يمتد من الجغرافيا وكان أحد علمائها القلائل في العالم العربى، إلى التاريخ القديم والحديث، وإلى قضايا الدين والمجتمع وتعلمت من الدكتور عبد العزيز كامل الكثير.. فقد كان يمثل بالنسبة لى نموذجاً للعالم المتواضع الذى جعله الإيمان أقرب إلى روح التصوف، مع اعتماده على العقل والمنطق فى تفسير القرآن والحديث، ومع دقته الشديدة فى التعبير وتحوطه فى إصدار الأحكام..

وكان الدكتور عبد العزيز كامل صديقاً للدكتور حسين مؤنس، ولذلك كان يتحدث عنه معى كثيراً، ويشير إلى آرائه ومؤلفاته، ولمست كيف تقوم الصداقة بين العلماء وكبار المفكرين على الاخترام المتبادل، وعلى حوار فكرى عميق مستمر يكشف عمق المعرفة لديهما، والتعاون فى البحث عن الحقيقة فى ذاتها دون غرور، أو ادعاء، أو انشغال بمن منهما اكتشفها قبل الآخر، أو أى منهما كان على صواب، فالمهم أن يصل الجدل إلى غايته المنشودة وهى الوصول إلى الحقيقة والصواب..

ورأيت عن قرب كيف يكون التعاون بين الكبار، وكلاهما كان زاهدًا، ومنقطعًا للعلم والفكر، ولا يريد من الدنيا ومن فيها شيئًا يضطره إلى الخضوع أو التملق..

وأثارتني أحاديث الدكتور عبد العزيز كامل عن الدكتور حسين مؤنس فأخذت أبحث عن كتبه وأقرأها وأناقش الدكتور عبد العزيز كامل فيما جاء فيها.. وفتحت لى هذه الكتب عالمًا رحبًا أطل منه على التاريخ والحضارة الإسلامية..

وحين التقيت بالدكتور حسين مؤنس بعد ذلك بسنوات كرئيس لمجلس إدارة دار المعارف التى تنشر مؤلفاته، ورئيسًا لتحرير مجلة أكتوبر التى ظل ينشر فيها مقالاً أسبوعيًا بانتظام لسنوات طويلة، وكانت دهشتنا نحن الاثنين أن أول لقاء بدا وكأنه استكمال للقاءات سابقة، فبدأنا فى مناقشة طالت عن بعض أفكاره وكتبه ومواقفه، وبعدها ظلت انتظر مقاله وأنا فى عجب من هذا الفكر الكبير الذى تجاوز السبعين والمشغول بأبحاثه ومؤلفاته ومؤتمراته وأسفاره فى مهام علمية، كيف يجد وقتاً لكتابة مقاله بانتظام وعناية بالغة، وكيف يستطيع من كان مثله غارقاً فى الكتب والأسفار القديمة أن يظل بمثل هذه اليقظة الفكرية، والحساسية فى رصد الظواهر الاجتماعية بما يطرأ عليها من تغير..

وفى رأى أن شخصية الدكتور حسين مؤنس كباحث وأستاذ تختلف عن شخصيته ككاتب مقال سياسى واجتماعى فى مجلة أكتوبر، فهو بالشخصية الأولى عالم، مدقق، منقطع الصلة بالحاضر تقريبًا، وهو بالشخصية الثانية مفكر وناقد وأديب غارق فى هموم المجتمع، ومعايش للناس العاديين فى الحارة والقرية والمدينة، يشعر بمشاعرهم، ويشاركهم همومهم وأحلامهم، ويرصد شكواهم وتطلعاتهم، ويجعل قلمه صوتًا للحق لا يحيد، ولا يجمال، ولا ينافق..

وفى مناخ الحرية الذى تحقق للصحافة المصرية، أطلق الدكتور حسين مؤنس لقلمه العنان، فلم يعد يحاذر، أو يكتفى بالإشارة والتلميح، فأصبح صريحا إلى درجة جارحة فى بعض الأحيان، وناقداً إلى درجة الهجوم، وكاشفاً لما فى المجتمع من مشكلات وعيوب دون مواربة، ثم امتدت صراحته إلى الحديث عن نفسه وذكرياته، فقال كل شىء حتى عن خصوصياته وأسراره الشخصية، وأصبح بذلك نموذجاً للكاتب الذى لا يخشى شيئاً، ولا يتردد فى قول الكلمة والتعبير عن رأيه كما يراه دون اعتبار لصدى ما يقول وكان من حين لآخر يسألنى: هل أسبب لك حرجاً بهذه الصراحة، فأقول له: بل أننى سعيد بها.. فهذا هو وقت الكلمة الصريحة.. ولعنة الله على من يكتم كلمة الحق..

ورحل الدكتور حسين مؤنس وقد ترك ثروة لم يحتمل ضميرى إهمالها أو تجاهلها، وتوافق تفكيرى فى جمعها مع رغبة ابنته البارة الدكتورة منى حسين مؤنس أستاذ الأدب الإنجليزى بآداب القاهرة، وفيها من صفاته الكثير.. صفات المقاتل العنيد.. والمحارب من أجل ما يعتقد.. والزهد فى الأضواء والشهرة.. وفى دأب وإخلاص شديدين قامت بجمع هذه المقالات فى سلسلة كتب أقدمها للقارئ العربى فخوراً بأن تكون ضمن إصدارات دار المعارف التى ارتبط بها وجدان أستاذنا منذ أكثر من نصف قرن حتى أصبحت بيته وله فيها تلاميذ ومريدون يعرفون قدره، ويحملون رسالته، ويحرصون على إحياء ذكراه.

ولا أعرف كيف ساقنى القدر إلى يوم أرد فيه لأستاذى فيه بعض الدين الذى على، وأعبر به عن عرفانى بالجميل والتقدير لذكرى رجل من رجال مصر العظام..

وأترك للقارئ الكريم أن يستمتع بما فى هذا الكتاب من تجليات الفكر العميق، والتفكير الناضج، والروح الشابة لرجل عاش حياته

بالطول والعرض كما يقول، وسافر إلى أركان الدنيا، وتعرف على ألوان
مختلفة من الثقافات والبشر.. وتولى أعلى المناصب العلمية.. وحصل
على أرفع الأوسمة من مصر وغيرها، ومع ذلك ظل فى داخله مصرياً
حميماً، و «ابن بلد» لا يتردد فى ذكر النكتة، و «القفشة».. ويتبسط
مع قارئه وكأنهما صديقان فى جلسة صافية مسترخية.. ولذلك جاءت
هذه المقالات أقرب إلى «أحاديث الأصدقاء».. وجاء الأسلوب فيها
متميزاً وفريداً، سهلاً وعميقاً فى نفس الوقت. يختلف كل الاختلاف
عن أسلوب الدكتور حسين مؤنس فى مؤلفاته العلمية..

وأرجو أن تكون هذه السلسلة من الكتب التى تصدر بعد رحيله وردة
على قبره.. وتحية لذكراه

عبد الباقى

(١)

تعالوا نجدد فيما بيننا حلف الفضول*

نحن نجتاز اليوم أزمة فى السلوك. وقد شاع التراخى وساد التهاون واجترأ أهل الفساد على القانون. وقد نشأت هذه الأزمة عن أننا لم نتعود بعد حياة الحرية والعدالة التى نعيشها اليوم.

ولكن أهل الفضل والخير والشرف والقانون كثيرون، وهم أكثر بمراحل من المفسدين ولو تعاقدوا وتعاهدوا لاستطاعوا عمل الكثير.

وقبيل البعثة المحمدية ساد مثل هذا الجو فى مكة فاجتمع ناس من أهل الفضل والخير وعقدوا فيما بينهم حلف الفضول. وهو ميثاق شرف. وقد شهد رسول الله ﷺ هذا الحلف وأعجب به وقال إنه لو دعى إلى مثله بعد الإسلام لأجاب..

فماذا لا يتعاقد أهل الفضل والشرف والأصول منا ويتعاهدون على تجديد ميثاق الشرف أو حلف الفضول.

فى الفرنسية تعبیر جاء على الألسن يعتبرونه أساساً من أسس السلوك الإنسانى يقول: نوبليس أوبليج، ومعناه أن الشرف ملزم (بكسر الزاى) ومكلف فالشريف لابد له من أن يتحمل تكاليف شرفه لأن الشرف أو السؤدد ليس مجرد كلمة بل هما سيادة وللسيادة تكاليف والتزامات وتضحيات يتحملها صاحب الشرف دون تردد أو تكلف لأن هذا هو يمن السيادة والشرف ملزم نوبليس أوبليج..

ومن القواعد التى سار عليها العرب جاهليين وإسلاميين أن الرياسة تضحية وليست مغنما وأن الرجل الذى يتصدى للرياسة ويطلب السؤدد ينبغى أن يدفع تكاليف ذلك عن نفس راضية فإذا هو قصر فى ذلك لم

* نشرت هذه المقالة فى ٢١ يونية ١٩٨١ م.

يكن بأهل للرياسة أو السؤدد. وكان عليه أن يتخلى عما طلب لغيره ممن يستطيع القيام بمطالب الشرف..

و «النوبليس» فى العربية هو الشرف، والشرف فى كل شىء هو الارتفاع عن المستوى العادى، فالشرف من الأرض ما ارتفع منها عما حوله فأشرف عليه، والشرف فى الخلق هو الترفع عن الدنيا والصغائر والجود بالمال لمن يحتاج إليه دون تكلف أو سؤال، والتصرف فى كرم وعزة دون كبرياء والالتزام بمبادئ الأخلاق الكريمة، والعطاء فى وجوه الخير دون نظر إلى مقابل ورفع الهمة عن الخلق أى عدم النظر إلى شىء مما بأيديهم والبعد عن إذلال النفس فى سبيل كسب شىء أيا كان، وهذا كله خلق مصرى عربى أصيل..

وما عداه فليس من خلقنا أو طبعنا بل هو طارئ علينا يزول إذا نحن حزمنا أمرنا وقررنا زواله ويبقى ويتأصل إذا نحن تهاونا وتراجعنا واستسلمنا لما يفرضه علينا الأراذل منا.. والشرف أيضاً خلق السيدة أو خلق النوبليس فى تقاليد الفرنسيين والإنجليز ومن إليهم فى عصور الفروسية.

ونحن نقول إننا شعب أصيل عريق ونريد بذلك أننا شعب شرف وأخلاق كريمة على المستوى الرفيع، فأما أننا أصلاء فلاشك فى ذلك لأن كل البشر أصلاء، كلنا أبناء آدم وأنسابنا فى النهاية ترجع إليه، فليست هناك شعوب ترجع إلى آدم أبى البشر، وشعوب أخرى طفرت من الأرض من أصل غير آدمى، وعلى هذا المعنى فكلنا أصلاء، أما الذى نعنيه حقيقة بذلك فهو أننا قوم أصلاء فى الشرف والأخلاق السامية، وعندما نقول إن فلانا أصيلاً فليس من الضرورى أن يكون أبوه موسراً أو صاحب منصب عظيم أو أنه يجرى فى تصرفه فى آثار آل بيته..

وأما أننا شعب عريق ففيه نظر، لأن العريق من الرجال هو - كما يقول ابن منظور فى لسان العرب عريق النسب أصيله. والعرب تقول

إن فلانا كعرق (بفتح الراء) له فى الكرم. والكرم فى المفهوم العربى هو الشرف بالمعنى الذى قلناه. وعندما نقول قرآن كريم نريد أنه الكتاب الذى يعلو على الكتب كلها ويشرف عليها من ذروة رفاعة لأنه كلام الله تعالى..

والمفهوم عندما نقول أننا شعب عريق أننا ننحدر من أصلاب كريمة عزيزة على أنفسها وعلى الناس تصرفت دائماً عن نفس أبية وترفع عن الدنيا والبعد عما يشين الخلق، أصلاب تعطى ولا تأخذ وإذا كان لابد أن يأخذ الواحد منهم شيئاً فليأخذ بحقه مأخذ الرجل الشريف الكريم دون تحايل أو غش أو غضب أو كذب.

وقد كان هذا المسلك بالفعل مسلك بعض أجيالنا الماضية فى عصور القوة والعز والازدهار، ومن يرى آثار مصر القديمة يجد مصاديق ذلك بعينه ويلمسها بيديه، فإن العمل الجميل لا يصدر إلا عن نفس جميلة، ولقد تحدث الفيلسوف الدينى الفرنسى تيلارد شاردان عن الشرف «النوبليس» حديثاً طويلاً قال فيه إن كل صنعة دقيقة متقنة لا تخرج إلا عن يد شريفة ونفس شريفة، فهى ليست صنعة بقدر ما هى أخلاق، قال إنه ظل صباحاً كاملاً يتأمل ساعة يد محكمة الصنع جميلة المنظر أنيقة الهيئة، وكان إذ ذاك فى واد من وديان جبال الألب الخضراء والبقر ترعى أمام عينيه فى هدوء الأبد، ومن حوله تنتشر بيوت الفلاحين الذين يجمعون قطع هذه الساعات بعضها إلى بعض ويضعونها بأيديهم الدقيقة فى هذه القوالب الجميلة، وقال فى نفسه لا عجب فمثل هذه القطعة البديعة من الصنعة المحكمة لا تصدر إلا عن نفوس شريفة تحمل عناء الصبر والإحكام لتخرج هذه الآيات الفنية العلمية.

وهذا أيضاً نستطيع أن نقوله عن أجدادنا من المصريين القدماء فإن إتقانهم لصنعتهم يدل على شرف نفوسهم لأن الإقتان أمانة نحو النفس ونحو الغير، ويعكس ذلك الإهمال فهو خيانة للنفس والغير، ومن هنا

فإننا نقول إن الإهمال ليس خلقاً مصرياً إنما هو خلق وافد علينا أو خلق تربى فينا في عصور سادنا فيها غيرنا من ظلمة الغزاة والمستبدين ومع حكام ظلمة كهؤلاء لا مكان للأمانة في التعامل وسنتحدث عن ذلك بعد قليل.

وأما أجدادنا من العرب فقد كان الشرف عندهم جُماع الأخلاق الفاضلة كلها، كان الواحد منهم يضحى بماله ليصون شرفه أو عرضه كما يقولون، وكانت الرياسة عندهم تضحية في سبيل الجماعة، ولم يكن من المعقول عندهم أن الواحد منهم يطلب الرياسة لينهب الناس بل يعطى مما عنده، ولا احتج في ذلك بكلام الشعراء لأن الشعراء يقولون ما يريدون دون أن يكون كلامهم هذا حقيقة أو حجة، بل التمس الحجة والبرهان من واقع التاريخ، فكلنا نعرف مثلاً أن هاشماً بن عبد مناف بن قصي ورث رياسة قريش عن أبيه عبد مناف ولم ينازعه أحد في ذلك لأنه بدأ بإتفاق ماله في سبيل أهل مكة، وكان تاجراً عظيماً ماهراً يقول ابن سعد «فأصابته قريشاً سنوات ذهبن بالأموال فخرج هاشم إلى الشام فأمر بخبز كثير خبز له وحمله في الغرائر على الإبل حتى وافى مكة، فهشم ذلك الخبز؛ يعنى كسره وثرده، ونحر تلك الإبل، ثم أمر بطبخها ثم كفاً القدور على الجفان فأشبع أهل مكة، فكان ذلك أول الحيا بعد السنة التي أصابتهم فسمى بذلك هاشماً وفي ذلك يقول عبد الله بن الزبعرى.

عمرو العُلا هشم الثريد لقومه

ورجال مكة مسنتون عجاف

وعمرو هو اسم هاشم ويقال إنه سمي هاشماً لأنه فعل ما ذكرناه وإذن فهاشم بن عبد مناف جد الرسول ﷺ استحق الرياسة لأنها كانت في نظره خدمة للجماعة وتضحية في سبيلها وتلك هي الأصالة العربية التي نعنيها هنا، والتي ينبغي أن نكون ورثناها عن أجدادنا لنكون

أصلاء مثلهم لأنه لا يكفي أن يكون أصلك كريماً لكى تكون كريماً بل لابد أن تكون أنت أيضاً كريماً شريفاً، ونحن الذين نتحدث اليوم عن الصراحة والأصالة ونملاً بها فَمَنَّا، نعانى اليوم ونشكو لأننا أبناء أصلاء ونشعر فى أعماق نفوسنا أننا نسينا أن نكون نحن أيضاً أصلاء، وربما نكون قد استرحنا إلى هذا النسيان وعلّقنا ما نشكو منه من متاعب على مشاجب (شماعات) موهومة لكى نخلّى أنفسنا عن المسئولية لأن الشرف مسئولية وحمله ثقيل ومطالبه كثيرة.

ولكننا ينبغى ألا ننسى أن حياة بلادنا ومستقبلها مرهونان بالمحافظة على أصالة الأجداد وشرف الأجداد، واليابانيون الذين يتصدرون أمم الأرض فى أيامنا هذه وصلوا إلى ذلك ويزيدون عليه يوماً بعد يوم لأنهم ورثوا مبادئ الشرف عن أجدادهم من الساموراي..

والساموراي كانوا أشرافاً وقادة بالعمل قبل الميراث ومن قصر منهم فى تحمل مسئوليات الشرف فلم يكن أمامه إلا أن يقتل نفسه بنفسه ليكلاً يمسى شرف النيبون وهو جنس اليابانيين كان عليه أن يشق بطنه بخنجره من أسفل إلى أعلى وذلك هو الهرا كيرى أنه ثمن التقصير فى مطالب الشرف لأن الشرف ملزم..

«نوبليس أوبليج»

ومن غريب الأمر أننا تمسكنا بقواعد الأصالة هذه فى أيام الظلم والفقر والحكم الغاشم ونسيناها فى أيام العدل والاستقلال والحكم القومى.

وافتح معى تاريخ الجبرتى واقرأ ما كان الناس يصنعونه للمحافظة على الأصالة المصرية العربية والتمسك بقواعد الشرف والمروءة ومكارم الأخلاق.

كان الحكام لصوصاً أو هم أضل سبيلاً ولكن الأمة كانت واعية لنفسها مفتوحة العينين، وكان لهذه الأمة رؤساؤها من شيوخ الأزهر

وأهل المروءة والعدالة فى القاهرة وفى كل المدن والقرى كباراً وصغاراً، وكان لكل حرفة قانون شرف يحمى الحرفة نفسها ويحمى حقوق أفرادها ويحافظ على مستوى العمل والأخلاق. كانوا يسمونه شيخ العشيرة عشيرة النجارين، وعشيرة النحاسين وعشيرة النساجين وما إلى ذلك، وكان شيخ العشيرة لا يتردد فى مواجهة الحكام وإرغامهم على الرجوع إلى الحق والإنصاف، وكان بكوات الممالك يخشون رئيس العشيرة لأنهم كانوا محتاجين إليه. فقد كانوا عصابة من الأشرار يحكمون بقوة السلاح ويحتاجون إلى الحداد والنجار والبيطار، وقد حكى الجبرتي أن سليمان بك السنجق المعروف بالتخين غضب على شيخ عشيرة السروجية وسجنه فى القلعة فتعصب له رجال عشيرته وامتنعوا عن عمل القرايبس لسليمان بك ورجاله، وكانت النتيجة أن تمكن منه خصمه مراد بك الأعرج وقتله، وأفرج عن شيخ السروجية. وكان هذا الشيخ من رجال الطريقة الرفاعية، وكذلك كان بقية السروجية، وقد ذهب مراد بك إلى جامع الرفاعية وصلى خلف الإمام وتبرأ مما فعله سليمان بك.

يقول الجبرتي إن شيخ السروجية هذا عبد الجليل البقعى كان رجلاً يعرف الأصول ويقوم بما عليه حيال أهل عشيرته ولو كلفه ذلك ماله كله، وكان يرعى كل أيتام عشيرته ممن يعجز أفراد أسرهم عن القيام بشئونهم حتى ضيع فى ذلك مالا لا يقدر، ومن عجائب أمره أنه كان يعطى كل ما عنده ويظل هو وأولاده دون عشاء فلا يلبث أن يدق الناس بابه ويقدموا إليه ما يكفى عياله ويزيد، وكان آية فى الفضل والشهامة والمروءة..

وبفضل أولئك الرجال الذين حافظوا على الأصول ظل الشعب المصرى متماسكاً قوياً دون أن يتأثر بفساد الممالك. ويخطئ من يظن أن شعب مصر كان فى تلك العصور ممتهناً مهائناً، والعكس هو الصحيح. فقد كان

المهاتون هم المماليك، فكانوا يقتلون بعضهم بعضا وينهبون بعضهم بعضا، لأنهم كانوا أرقاء مماليك وظلوا أرقاء وعبيدًا زغم السلطنة والعز والمال. وقد حكى ابن إياس فى تاريخه المعروف ببدايع الزهور فى وقائع الدهور أن الأمير بارسباى المنصورى الملقب ببندق تغلب عليه خصمه إسماعيل جان حلق بك فأمر رجاله بأن يجروه من رجله وأوقفوه أمامه حافيًا فجعل يبكى ويتضرع مثل السنوان، وعندما وقعت عينه على الشيخ البدوى القفاص عند إسماعيل بك استنجد به واستحلفه أن يتشفع فيه وقال له، أبوس رجلك. فغضب بارسباى المنصورى لذلك وأمر بقتله فى الحال لأنه عره للأتراك أمام أولاد البلد».

وفى الخطط التوفيقية لعلى باشا مبارك كلام جميل جدًا فى هذا المعنى فهذا الرجل العظيم حقا عاش فى القرن الماضى أو عاش القرن الماضى كله تقريبًا ورأى مآسى ما جرى على شعب مصر من المصائب والويلات نتيجة للهبوط الأخلاقى المزرى وانعدام الشعور القومى عند الأسرة الحاكمة.

ومع ذلك فإن هذا القروى المصرى المذهب الأصيل يسمى كتابه «الخطط التوفيقية» نسبة إلى ذلك الصعلوك الخسيس محمد توفيق الذى لا يستحق اسمه مجرد الذكر فضلاً عن وضع اسمه على ذلك الكتاب القيم، ولكن على مبارك كان فلاحًا مصريًا فهو يعطى الحاكم حقه وإن كان الحاكم نفسه لا يستحق ذلك وفى مدخل الخطط، حيث يتحدث الرجل عن نفسه وأسرته وما أصابها فى أيام إسماعيل تتبين أصالة على مبارك، فقد كانت أسرة مبارك أسرة ثرية تملك أرضًا واسعة، وكان رجالها رؤساء الناس فى القرية والناحية، ثم جاءت حكومة إسماعيل «فرمت علينا أرضًا» أى أعطوهم بالقوة أرضًا لا تكريمًا لهم بل لكى يدفعوا عنها الضرائب فما كان من الأسرة كلها إلا أن هاجرت من قريتها إلى قرية أخرى لكى تتخلص من الضرائب الظالمة التى كانت الحكومة تفرضها على الناس، وفى موطنها الجديد بدأت الأسرة من

جديد، واستطاع الصبى على مبارك أن يشق طريقه ويصل فى العلم والوظائف إلى هذا المستوى الرفيع الذى جعله واحداً من رواد النهضة الفكرية فى عالم العرب كله.

والذى أريد أن أقوله أن على مبارك لم يعتمد على أنه أصيل من أسرة كريمة، بل أنشأ لنفسه أصالة جديدة قائمة على الأخلاق والعلم إلى جانب ما ورتد هذا الرجل من أسرته من قواعد الحياة عند أهل الأصول، ولم يتعب إنسان فى صنع نفسه كما تعب مبارك ولكنه عندما وصل إلى المراتب العليا استمر يبذل من نفسه وماله كما ينبغى على ابن الأصول.

وفى كتاب «الخطط التوفيقية» يحكى على مبارك الكثير عن الأصول وأبناء الأصول. ومن كلامه تفهم أن الثورة العرابية قامت لأنه كان فى مصر ناس يعرفون ما هى الأصول، وكيف يتصرفون تصرف أهل الأصول. وعرابى نفسه ولم يكن على مبارك راضياً عنه. وكان رجل أصول، وخطابه للخديو فى يوم قصر عابدين خطاب مصرى أصيل. وخطبته المؤثرة التى قالها فى محطة سكة الحديد عندما نقلوه من القاهرة خطبة رجل أصيل يعتز بأنه فلاح بسيط من هرية رزنة، فلاح بسيط ولكنه أصيل، وثورته على الظلم ثورة أصالة.

عندما تقرأ مذكرات على مبارك ثم مذكرات شفيق باشا تدرك تماماً أن الأصول المصرية العربية العريقة موجودة، وهى التى حفظت على مصر كيائها خلال عصور الظلم والظلام التى مرت بها، والذين قاموا بالثورات المصرية المتوالية وتعرضوا للأذى بل للموت فعلوا ذلك لأنهم أبناء أصول تصرفوا تصرف أبناء أصول، لأنه لا يكفى كما قلنا أن تكون ابن أصول بل لابد أن تكون أنت الأصول نفسها، لابد أن تكون بعيداً عما يشين الإنسان الكريم، لابد أن تفكر فى غيرك قبل أن تفكر فى نفسك، فهذه هى الأصول، ومصر العظيمة هى التى تراها حافلة بأهل

الأصول بل هي تسير في طريقها رغم كل شيء بفضل عدد قليل من أهل الأصول.

فلماذا لا تكون أنت منهم؟

كلنا نقول إننا أبناء أصول وأهل أصول وفي إحساسى أن هذا صحيح. لأنى أحس نبض مصر وأعرف عنها وعن طبيعتها - ربما - أكثر مما يعرفه غيرى لكثرة ما قرأت من صفحات تاريخها ولطول ما عشت هذا التاريخ، فلماذا - فى أيامنا هذه - نرى الدنيا كلها تتصرف من حولنا تصرف ناس لا يعرفون الأصول.. تصرف ناس أنانيين قصار النظر صغار النفوس.. فى إحساسى أن هذه موجة عابرة..ربما كانت رد فعل لأشياء كثيرة بعضها نعرفه وبعضها لا نعرفه، وهذا لايهم، لأننا نريد أن نتخلص من موجة اللا أصول هذه ونعود بتصرفنا إلى معدننا الأصيل. ولكن كيف؟.

إن السادة أو الأشراف أو المواطنين الصالحين من حولنا فى كل مكان. ومصر دائماً بلد ناس أشراف طيبين.

حيثما تلفت حولى رأيتهم. إنهم كثيرون جداً، وهُم الذين يعطوننى الأمل فى مستقبل هذا البلد، كلما سئمت نفسى وتعبت وتسرب اليأس إلى قلبى لقيت إنساناً طيباً ومواطناً صالحاً وأخاً كريماً فترتد إلى نفسى وأقول. خسارة أن يكون فى البلد كل هؤلاء الناس الطيبين ثم أضعف أو يتسرب إلى نفسى اليأس! هذا بلد عظيم وأصيل، ولا بد له أن يتغلب على هذه الموجة ليسير فى طريقه كما سار من آلاف السنين..

إننا اليوم فى نور وحرية وسلام وحكومتنا اليوم أحسن من أى حكومة عرفناها فى تاريخنا إنها حكومة منا نحن الناس الطيبين.. ولكن الحكومات مهما بلغت كفايتها وصلاحياتها فهى لا تستطيع أن تفعل كل شيء فهناك أشياء تستطيع الحكومة أن تفعلها لأنها مسائل ضبط وربط. وهناك أشياء لا تستطيع أن تفعلها لأنها مسائل أخلاق وسلوك، والمشكلة التى نعانى منها مشكلة سلوك، لأن الأخلاق والحمد

لله بخير. ولكن السلوك هو الذى تغير بعض الشيء. والسلوك عند الكثيرين تغير هذه الأيام لأن ظروف الحرية التى نعيشها اليوم غير عادية بالنسبة لتجربتنا التاريخية من مئات السنين فقد عشنا دائماً مع حكومات قاسية عنيفة لا ترحم. وكنا لذلك نخاف . أما نحن اليوم مع حكومة رفيقة ورحيمة وأصيلة أيضاً. وهى تحدثنا عن «العيب» والحياء وتذكرنا بين الحين والحين بمكارم الأخلاق، بل هى جعلت لمكارم الأخلاق قانوناً هو قانون العيب..

ولكن هناك ناساً لا يصلحون مع الحسنى فيحسبونها ضعفاً. فينطلقون يسيئون ويفسدون. وفى العادة يستطيع رجل سيئ واحد أن يفسد حياة العشرات ويعكر مزاجهم ويؤذي مصالحهم، وجريمة اقتحام بيت واحد وسرقة ما فيه ترؤع حياً كاملاً وتجعل الناس يتصورون أن اللصوص فى كل مكان.

وفى بلاد الغرب يملك الناس سلطات كبرى يعطيهم إياها القانون، فلو أن جاراً لك رفع صوت المذياع بالليل استطعت أن تستدعى البوليس ليوقع عليه العقاب. لذلك يسود هناك الهدوء فى الليل. ولا يكسر الناس قانون المرور فى كل لحظة. لأن القانون صارم والناس الطيبون أو الأشراف يتعاونون فى تنفيذ القانون. ولو أنك كنت فى طابور فى أوروبا. ثم خرقت النظام وتقدمت على غيرك لأعادك الناس إلى مكانك فى الحال. فإذا لم تعد وتبجحت وبعبت أذاك رجل البوليس. وهو فى هذه الحالة لا يقول «معلش» أو شيئاً يشبه ذلك. بل يخرج دفتر العقوبات والقلم ويوقع العقوبة.

لأن أهل القانون وأهل الشرف وأهل الأصول كثيرون هناك. وهم يتعاونون فيما بينهم على أهل الفساد والضلال.

وهذا هو الذى أدعو إليه فى ختام هذا المقال: أن يتعاون أهل الشرف والأصول فى تنفيذ القانون والحفاظ على النظام والنظافة. إنهم كثيرون ولأنهم كثيرون فإنهم يستطيعون الكثير.

كيف؟

والمروءة..

أعود بك إلى ماضيينا إلى أصولنا، حتى يكون العلاج أصيلاً وناجعاً..
فقبيل البعثة النبوية لاحظ بعض أشرف مكة أن الظلم قد شاع في
الناس فدعاهم رجل يسمى عبد الله بن جدعان إلى عقد «ميثاق شرف»
سموه «حلف الفضول» أو حلف الفضلاء اشترك فيه بنو هاشم
وبنو المطلب، وبنو أسد بن عبد العزى وبنو زهرة بن كلاب وتيم بن مرة
فتعاقدوا وتعاهدوا على ألا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها وغيرهم ممن
دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه. وكانوا على من ظلمه حتى ترد
إليه مظلومته فسميت قريش هذا الحلف «حلف الفضول» وقد كان لهذا
الحلف أثر كبير في تحسين وإصلاح ما فسد من أخلاق المكيين بسبب
طغيان أهل الفاسد.

وقد روى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لقد شهدت في دار عبد الله
ابن جدعان (بضم الجيم) حلفاً ما أحب أن لي به حمر النعم. ولو أدعى
به في الإسلام لأجبت».

وهذا هو الذى أدعو إليه فى هذه السطور: أن يتعاون أهل الفضل
والأصول والشرف على أن يكونوا حلفاً واحداً فى سبيل الخير. حلف
شرف وميثاق إنسانية لا دخل له فى السياسة يعمل أفرادها على إقامة
القانون وحماية الناس والوقوف فى وجه المفسدين.

وفكرة أطرحها للمناقشة. لأننا لا نكتب ما نكتب لمجرد الكلام بل
لأن لنا هدفاً سامياً فى بلوغه. والقلم فى نفسه رسالة ورسالة القلم
وصاحب القلم هى الخير والعدل والفضل والإصلاح.

وأدع الفكرة هنا.. لأعود إليها فيما بعد.

أعود إليها لأنها واجب.. لأنها إلزام.

وكما قلت فى مطلع هذا الحديث.. إن الشرف

إلزام: نوبليس أو بليج.

(٢)

الأوسطى شاي وفن النكد*

لا بد أنها موهبة ننفرد بها من دون مخاليق الله: تحويل النعم إلى نقم، والخيرات إلى مصائب، حتى الأولاد - وهم زينة الحياة الدنيا - أصبحوا مشكلة قومية عامة.. والشاي الذي يصنع منه غيرنا شراباً منعشاً جميلاً.. جعلنا منه كارثة صحية ومشكلة اقتصادية.

للمرة الرابعة خلال ساعتين ذهبت إلى الأوسطى هريدى فى دكانه أتعجله ليصلح لى شيئاً فى بيتى، وللمرة الرابعة كذلك قال لى وكوب الشاي فى يده:

حاضر.. لما أشرب الشاي.

وفى المرة الرابعة قلت له وأنا أجتهد فى ضبط نفسى، ففى هذه الأيام لا يحمد الإنسان مغبة غضب الأوسطى هريدى أو أى أوسطى آخر.

فقد أصبحوا سادة عظاماً لا يقل دخل الواحد منهم عن ثلاثين جنيهاً فى اليوم، تصفو له فى آخر النهار على عشرين بعد دفع أجور العمال، ورجال يحمل فى جيبه فى آخر كل نهار ٤٠ جنيهاً ليس بالرجل الهين، ولا تستطيع أن ترفع صوتك فى مخاطبته، فقد تفتحت عليه أبواب الرزق من حيث يحتسب ولا يحتسب، وأنت محتاج إليه وهو غير محتاج إليك وإذا غضبت أنت فإن ذلك لا يعنيه فعنده بذلك عشرون آخرون ينتظرون منه كلمة عطف، أما إذا غضب عليك فما حيلتك وعندك بلاعة مسدودة ورشح ماء فى الجدران؟ فليس أمامى وأمامك إلا التأدب والتحشم والترفق فى خطاب الأوسطى هريدى أو أى أوسطى آخر يرتدى قميصاً وبنطلوناً فى لون الهباب، فقد تغيرت الدنيا وارتفع ناس وهبط ناس، ولا محل للشكوى فهذه حال الدنيا..

* نشرت هذه المقالة فى ٢١ سبتمبر ١٩٨١ م.

وما دمنا جميعا قد جرفتنا حمى الدراسة الجامعية، فأرسلنا أولادنا فى طريق الشهادة الجامعية، وهو طريق الفقر وقلة الدخل والنفخة الكاذبة، فمن حق هؤلاء الذين كانوا أبعد نظراً منا وساروا فى طريق الصنعة والعمل اليدوى أن يفوزوا فى النهاية، لأن العصر كله هو عصر الصنعة اليدوية والخبرة الفنية بكل مستوياتها من السباكة إلى الحاسبات الألكترونية، فالأوسطى هريدى، وكل أوسطى آخر، يقف على أول السلم الذى ينتهى فى أعلاه بالدكتور فيرنر فون براون الذى صنع أول صاروخ ذاهب للفضاء.

أما أبناؤنا فقد وضعناهم فى أول طريق نهايته ابن المقفع والقاضى الفاضل من أرباب القلم والفكر، وقد انتهى فيما يبدو عصر ابن المقفع والقاضى الفاضل، بل انتهى عصر أحمد شوقى، ونحن اليوم فى عصر أصحاب المفكات والزرديات والشواكيش والكماشات. والأيام دول، ولا معنى للشكوى فهذه حال الزمان.

وأعود إلى الأوسطى أو المعلم هريدى. قلت له فى لهجة استعطاف تناسب المقام: يا معلم حرام عليك.. أربع مرات آتيك وفى كل مرة تردنى خائب السعى، وهذا الكوب فى يدك، ألا يفرغ أبداً؟ كيف لا يفرغ يا حضرة.. هذا هو الكوب الرابع.. أصلى لا مؤاخذه لا أبدأ العمل إلا بعد أربعة أكواب شاي أو خمسة. والبول، ولا مؤاخذه، جامد على المعدة، ولا بد له من الشاي..

- يا حضرة المعلم أنا عندى شاي وسكر وكل ما تريد.. تعالى وأنا أقدم لك ما تشاء من أكواب الشاي..

- وهل هذا الذى تشربونه أنتم يسمى شايًا؟ هذا ماء ولا مؤاخذه، ماء ساخن بالسكر.. أما نحن فلا يعدل دماغنا إلا الشاي الكيف.. الشاي الثقيل المحترم، والإبريق الذى تراه يغلى بالشاي على النار من ساعتين، وكلما قل الماء أضفنا ماء وشايًا، وكل كوب شاي لابد له من

أربعة أو خمسة من قوالب السكر.. أصل ده ولا مؤاخذه شاي معلمين..
شاي الصنعة..

– تفضل مـبـى أرجوك.. ها أنت ذا قد فرغت من الشاي.

– حتى يأتى الصبى ليحمل لى صندوق العدة..

– أنا أحمل لك صندوق العدة.

– وهل هذا يصح يا حضرة.. نحن ناس على قد حالنا. ولكن «برضه
عندنا نظر ومفهومية»..

وحملت صندوق العدة وقلت.

– وأنا أيضاً عندى نظر ومفهومية، ومفهوميته تقول إننى ينبغي أن
أحمل لك هذا الصندوق، وأعمل لك الشاي الذى يرضيك.. المهم أن
أخلص من تلك البالوعة التى تكاد تفسد لى بيتى..

وأمام هذا لم يستطع المعلم العظيم إلا النهوض معى، وحمل هو
الصندوق وسار معى متكاسلاً، وفى الطريق مر بالبقال وطلب علبتين
«سوبر» وبحث فى جيوبه فلم يجد نقوداً فدفعت له ثمنهما خصماً على
الحساب، ودخل البيت معى ونظر إلى البالوعة وفتح صندوق العدة فلم
أر فيه إلا مفكاً وكماشة وقطعة حديد صدئة يسميها «أجنة».

– هذه هى كل العدة يا معلم..؟

– أصل.. ولا مؤاخذه الصبيان يسرقون العدة ويبيعونها.

– وبهذه الأشياء ستصلح لى البالوعة والصنبور؟

– بهذه الأشياء أبنى لك عمارة..

وبينما كان يعمل، ذهبت لأعمل له الشاي، بحسب تعليماته كان
على أن أضع له معلقته «شاي ناشف» لكل كوب، ولا بد أن أترك
الشاي يغلى عشرين دقيقة على الأقل..

وأخذت له كوباً من ذلك الحبر، فوضع فيه أربع ملاعق سكر، ثم
ذاقه فلم يعجبه، وأضاف معلقة خامسة، وبينما كان يعمل سألته:

- كم ستتقاضى منى يا معلم؟

- اللى تدفعه.. لا فرق..

- أريد أن أعرف يا معلم..

- علشان خاطرك وانسانيتك ١٠ جنيهات.. من غيرك أخذ

عشرين. أين تذهب نقودك يا معلم؟

- نقود؟ وأين هى النقود؟.. ثلاثة بالله العظيم ما كان فى جيبى هذا الصباح إلا ٥٠ قرشا تركتها للحرمة ولا مؤاخذه وخرجت على فيض الكريم..

وفى ساعة كان قد فرغ من العمل. معظم الوقت ضاع فى الذهاب والمجىء وشرب الشاى ومحاولة العمل بدون «عدة»، وكل دقيقتين يسأل: عندك سلك؟ عندك شاكوش؟ ألا أجد عندك مفتاحًا إنجليزياً؟

وفرغ من عمله لا أدري كيف. وأخذ الجنيهات العشرة، ثم مضى يحمل الصندوق الفارغ. لقد دخن خلال الساعة ثمانى لفائف سوهر، وشرب ثلاثة أكواب حبر، واستهلك ربع علبة السكر أى أقل من ربع الكيلو بقليل. ولم أتجاسر على خصم ثمن السجائر، وظن هو أننى نسيت، وسر بذلك.

وقضيت بعد ذلك أكثر من نصف ساعة أنظف ما خلفه هذا الأوسطى من قذر وطنين وقطع قطن وأعقاب سجائر. وعندما أردت غسل إبريق الشاى لاحظت أن ما فيه من التفل يسد بلاعة الحوض، فجعلت أفرغه شيئًا فشيئًا. ثم أفرغت التفل فى ورق لففته ووضعتة فى صندوق القمامة، وعدت إلى مكتبى وفى يدى كوب شاى من النوع الذى أشربه. إنه ليس ماء ساخنًا بسكر بل هو الشاى كما ينبغى أن يشرب.. شراب كأنه ذهب مورد فى فنجان أنيق..

وأردت أن أعمل، ولكن موضوع شاى الأوسطى هريدى شغل بالى.

إنها ليست مسألة شاي كالحبر أو شاي كالهباب. إنها فى الحقيقة مشكلة قومية. ولأنها مشكلة قومية فقد أذنت لنفسى. أن أدير عليها هذا المقال :

فإن إنجلترا مشهورة بأنها أكبر بلاد الدنيا استهلاكاً للشاي، ومع ذلك فإن متوسط استهلاك كل إنجليزى من الشاي فى العام يبلغ عشرة أرطال أى نحو خمسة كيلو جرامات.

ومتوسط استهلاك الفرد عندنا من الشاي يصل إلى عشرة كيلو جرامات فى العام..

ونحن ندعم الشاي بحوالى ٢٠٠ مليون جنيه من المال العام، والشاي الثقيل يحتاج إلى السكر الكثير، وقد قرأت فى الإحصائيات أن دعم السكر وحده يصل إلى ٣٥٠ مليون جنيه، ومعظم هذا السكر يذهب فى الشاي، لأن المصرى العادى لا يعرف الحلوى اليومية فى الوجبات. ونادراً ما يعدون فى البيت شيئاً بالسكر إلا فى رمضان..

وهذا الاستهلاك غير المعقول من الشاي والسكر جدير منا بالتأمل، لأننا حتى لو صرفنا النظر عن العبء المالى الذى نتحمله فى سبيل الشاي فإنه تبقى النتائج الوبيلة على الصحة العامة من جراء هذا الحبر الذى يسمونه شايًا ويستهلكونه باللتترات..

فإن الشاي المحضر بهذه الطريقة هو أسوأ الشاي وأضره بالصحة، لأن الشاي يتكون من كافيين وتايين وزيت عطرى هو الذى يعطى الشاي الرائحة الزكية والطعم الجميل..

وفى الدقائق الثلاث الأولى من غليان الشاي يخرج الكافيين والتايين والزيت العطرى، وكلها فى هذه الدرجة من الغليان لا تضر أى عضو من أعضاء الجسم، بل تنشط وتصلح المعدة والأمعاء..

فإذا استمر الغليان انعدم الكافايين وتحول التايين إلى مادة سامة عسيرة الهضم تتعب الكبد وتتعب الكلى وتتقرح منها جدران الجهاز الهضمي كله..

ويضاف إلى ذلك أن أولئك الناس لا يصفون الشاي بل يشربونه بالتفل، وبعضهم يضع الشاي الجاف في الكوب نفسه ويسميه «كشري» وهو يشرب في الحقيقة تفلًا.. وهذا التفل يلتصق بمجرى البلعوم وجدران المعدة ويسبب التهابا في الأغشية..

ونضيف إلى ذلك أنهم نادرا ما يغسلون الأواني غسلاً جيداً في محل الأوسطى هريدى يوجد جردل ماء يغسلون فيه الأكواب من الصباح إلى المساء، وهم يغسلون فيه أيديهم أيضاً.. مع غروب الشمس يصبح لون ماء الجردل في لون الهباب، وغريب أن أولئك الناس لا يفكرون قط في شيء يعملونه، فهم يغسلون أيديهم ووجوههم (وعيونهم) من ماء الجردل. وفي النهاية يتوضأ منه الأسطى ويدخله في عينيه وفي خياشيمه وفي فمه. والجردل نفسه مخزن أقذار وأمراض..

وليس لديهم في المحل فوطة أو بشكير، إنما هم يجففون وجوههم وأيديهم في أكمامهم، وفي مناديل لا تغسل إلا من شهر إلى شهر، وبعضهم يستعمل ورق الجرائد.. وكل ذلك من الشاي وبلاوى الشاي.. وهناك مشكلة السكر..

ومتوسط استهلاك الأسرة المصرية العادية من السكر - في المدن والأرياف - كيلو جرام في اليوم الواحد. يذهب معظمه في الشاي «رقم لا يصدق»..

والسكر الأبيض فيه غذاء ولكنه أضر شيء بالجسم لأنه لا يهضم إلا بفيتامين «أ» فهذه الكميات من السكر تستنزف هذا الفيتامين من الجسم. وفيتامين «أ» أساسى للقلب والجلد والبصر وأشياء أخرى..

لأن الأشياء كما خلقها الله تكون متكاملة ولا تضر. فأنت إذا طحنت القمح بقشره وصنعت منه الخبز كانت فيه فائدة كاملة لجسمك، ولا ضرر فيه على الإطلاق..

فإذا أنت قشرت القمح لتحصل على الدقيق الأبيض أضعت معظم فائدة الخبز. وفي بلاد العرب جميعا يعرفون أن الخبز الأسمر أو الأسود. وهو خبز القمح الكامل (فول كورن بريد) أصبح للجسد مائة مرة من الخبز الأبيض..

ومثل ذلك يقال فى الأرز..

فإذا أنت طبخت الأرز بقشره كان مفيداً لجسدك.. أما إذا قشرته تحول إلى غذاء حامضى التركيب يضر الجسد..

وفى أوروبا وأمريكا يحذرونك من الأرز الأبيض..

وأهل شرق آسيا يعيشون على الأرز. ولكنه الأرز الكامل. الأرز الأسمر. وهو صحة وعافية..

لأن الله سبحانه خلق الأشياء صحية وكاملة التركيب.. وعندما نتدخل فيها نحن نفسدها ونضيع قيمتها..

وغريب أن جمهورنا فى مصر - والعالم العربى كله - يستعمل كل شىء استعمالاً خاطئاً. لأن أحداً لا يبصر الناس بحقائق المعيشة والغذاء والتعليم والصحة تبصيراً حقيقياً..

والفلاح أو العامل الذى تراه شاحب الوجه نحيلاً كالعود أو سمينا كالبرميل لا يشكو من قلة الغذاء بل من سوء التصرف فى الغذاء، فالغذاء والحمد لله وافر بكميات تزيد على المطلوب..

وبعضنا يظن أن أولئك الناس أصحاء. ويتعجب من استطاعتهم النوم فى الحقل أو على قارعة الطريق ولو فحصت أجسادهم لوجدتها معارض أمراض..

واذهب إلى العيادة الخارجية في أى مستشفى أو وحدة صحية تر
الأعاجيب من الأمراض. وتسعون فى المائة ممن يروجون ويغدرون أمامك
مرضى بالكبد أو الكلى أو الطحال أو بها جميعا. وكلهم دون استثناء
مرضى. إما بالمعدة وإما بالأمعاء إلى جانب ما ذكرناه! وكل ذلك من سوء
التصرف فى الغذاء. فمن ناحية نحن لا نبصرهم التبصرة الكافية. ومن
ناحية أخرى هم يرفضون التوعية، والأوسطى هريدى لن يقتنع قط بأن
الشاي الذى يشربه سم الشاي الذى أنصح به صحة وعافية..

وقد كان عندى طباخ، وكنت أقول له: تناول غداءك ثم اغسل
الأوعية والمطبخ ثم نم بعد ذلك..
ليه؟..

لأن النوم عقب الأكل مباشرة ضرر جسيم بالصحة. فأنت فى أثناء
غسيلك للمواعين والمطبخ تعطى معدتك الفرصة للتصرف فى الطعام، ثم
تنام قيلولتك بعد ذلك على صحة..

ولا أذكر أنه استمع إلى نصيحتى قط.. يملأ بطنه ثم ينبطح وينام
كالجاموس. ثم ينهض ليغسل المواعين. ويوماً بعد يوم اضطربت معدته
وتلبكت أمعاؤه وتمدد طحاله، وفى سن الخمسين كان نحيلاً هزيلًا،
وكل شئ فيه مريض. وبكل بلادة ذهن وتلامه وجه يقول: هذه قسم
يا دكتور.. كل شئ مكتوب. مكتوب لى أن أمرض، والشفاء من الله
سبحانه وتعالى..

ونعود إلى الشاي وإلى ملايين الأوسطى هريدى وكل منهم تستطيع أن
تسميه الأوسطى أو المعلم شاي..



هؤلاء الناس غذاؤهم كله وشرابهم كله شاي. لأن مقادير السكر التى
يزدردها الواحد منهم مع الشاي بالإضافة إلى السجائر تشعره بشبع
كاذب. وهو عندما يتناول غداءه - طعمية كان أم كبابًا - فإن جسده

لا يستفيد من ذلك. لأنه مشبع بالسكر الذى يجرد جسمه من دفاعات الفيتامينات..

وفى العراق تسبب الإقبال الشديد على الشاى فى كارثة قومية اقتصادية. إلى جانب كوارثه الصحية، فإن الفلاح العراقى كان يعتمد فى غذائه أساساً على التمر، والعراق أكبر بلد منتج للتمر فى الدنيا. والتمر غذاء كامل يستطيع الإنسان أن يعيش عليه. ففيه الكفاية من الكربوهيدرات والبروتينات والسكر وشيء كثير من الفيتامينات، ولهذا فإن سكر التمر صحى يتم هضمه دون الحاجة إلى فيتامينات.. وكان الفلاح العراقى صحيحاً عافياً بالتمر أساساً. مضافاً إليه ما تيسر من لبن ولحم وخضر وفاكهة بين الحين والحين. وكان العراق يستفيد من تموره على أحسن صورة. كان العراقيون يستهلكون ٦٠ فى المائة من المحصول والباقى كانوا يصنعونه ويصدرونه.. ثم جاءت لعنة الشاى..

وتعلم الفلاح العراقى شرب الشاى الأسود بالسكر الكثير..

وكما حدث فى الريف المصرى عندما تحول معظم كسب الفلاح إلى شاى يسيل من فم الغلاية كوباً بعد كوب، فكذلك حدث فى العراق. بالإضافة إلى ما نعرف من تطرف العراقيين فى كل شيء. فى دراسة لهيئة الأغذية والزراعة تبين أن الفلاح العراقى يشرب فى اليوم حوالى ٢٠ كوباً من الشاى ومعها ٨٠ قطعة من السكر كل يوم أى أنه يزدرد نحو كيلو جرام من السكر فى اليوم. ومع هذه الكمية الهائلة من السكر أصبح الفلاح لا يطيق النظر إلى التمر وهبط الاستهلاك المحلى من التمر إلى العشر، ولم يجد العراق من يشتري ذلك الفائض الضخم واضطر إلى إعطائه للصين بثمان التراب، ليحصل بدله على شاى ومصنوعات صينية لا تذكر. بعضها سكر البنجر. وهذه واحدة من مصائب الشاى هناك وهى شبيهة بمصيبته عندنا..

وقد خطر ببالي أكثر من مرة سؤال: لماذا ندعم الشاي؟ ما الذى نستفيد منه من استيراد الشاي بالدولارات وبيعه للمستهلك بالقروش؟.. وماذا سيحدث لو لم يجد الفلاح والصانع المصريان كل الشاي الذى يطلبه مزاجهما؟..

سيكتفى بنصف الكمية بل بربعها..

والشاي ليس غذاء. إنه مزاج مثله فى ذلك مثل الدخان. فكيف نضع الضرائب العالية على الدخان وندعم سعر الشاي لنخفضه؟.. فإذا هبط استهلاك الشاي إلى الربع هبط استهلاك السكر إلى الربع. وفى هذه الحالة سيكفينا سكر بلادنا، وما لم نفعل ذلك فسيظل بلاء الشاي فى زيادة..

وبعد.. فإنه لمن العجيب أن لدينا ملكة تحويل كل نعمة إلى نقمة، فالشاي وهو شراب منعش لطيف ومفيد إذا تناولناه باعتدال، حولناه إلى كارثة على جيب المواطن وخزانة الدولة والصحة العامة، والشاي فى بلاد الغرب وفى إنجلترا خاصة زينة ومتعة وقيمة، وإذا كان الصينيون هم أول من زرع الشاي فإن الهنود هم الذين جعلوا منه تجارة، واليابانيون تأنقوا فيه وجعلوا تناول الشاي حفلاً مقدساً له طقوس وتقاليد، والإنجليز جعلوه احتكاً دولياً لهم أيام الاستعمار، وجعلوه المشروب الأول فى الدنيا..

وابتكروا تقليد شاي الساعة الخامسة بعد الظهر وكانوا أول من صنع أطقم الشاي وفناجين الشاي الأنيقة وآنية الشاي الفضية، وهم أول من ابتكر مشارب الشاي العامة وحفلات الشاي، وأكلوا معه الكيك، وهم أيضاً الذين صنفوا الشاي من شاي القطعة الأولى الذى يتضوع عطراً وهو المعروف بالبيكوى إلى شاي القطعة الثانية (البيكوى ساهزى) وشاي القطعة الثالثة ثم شاي التراب (بيكوى دست) ومن هذين الصنفين الأخيرين معظم ما يشرب من الشاي عندنا..

والشاي يسمى فى شمال الصين تاي، ومنه أخذ الأوربيون (عدًا البرتغال) اسم الشاي فسموه تى فى صور مختلفة، وهو يسمى فى جنوب الصين باسم تشا ومنه جاء اسم الشاي عندنا ولا ينطقه على هذه الصورة من أهل الغرب إلا البرتغاليون. فهم يقولون تشا..
والبلد العربى الوحيد الذى يستعمل تسمية تاي هو المغرب. فهناك يسمونه الاتاي. ومعظم استعمالهم من الشاي الأخضر..

والشاي الأحمر أو الأسود والشاي الأخضر كلها من شجرة واحدة، فأما الشاي الأحمر فهو المخمر وذلك أنهم بعد أن يقطفوه يجففونه ثم يندونه بالماء ويدعونه يتخمر ساعات فتلين أعصاب أوراقه وتتكسر خلاياه ويسود لونه ثم يدعونه يجف فى الشمس أو يجففونه يحمصونه فى أفران خاصة لكى يجف ويصلب ثم يعبثونه. أما الشاي الأخضر فلا يخمر بل يقطف ويترك ليجف ولا يندى بعد ذلك وقد يحمص لتسهيل تعبثته..



ولو كنا عقلاء واستخدمنا الشاي بعقل لكانت لنا فيه متعة وصحة..
ولكن ما العمل مع الأوسطى هريدى أو الأوسطى شاي وكل أوسطى شاي أو المعلم شاي أو العم شاي وبقية الشلة التى لا يمكن أن تسعد بشيء من نعم الله - وما أكثرها - ولا بد لهم من أن يجعلوها نكدًا..
وهل فى الدنيا نعمة هى أجمل من الأولاد؟ أليسوا زينة الحياة الدنيا؟..!

فانظر والله كيف أصبح الأولاد نقمة وخطرًا يهدد البلد. والفضل فى ذلك للأوسطى هريدى.. الأوسطى شاي أقصد، وأشباهه وشركاه الذين جعلوا حفلات زواجهم معارك تطلق فيها أعيرة النار وتصيب الأبرياء وأقاموا الزينات سفلة لأنهم لابد أن يسرقوا التيار.. ولا بد لهم من أن ينصبوا الميكروفونات ويقلقوا مخاليق الله، لأنهم - ولا مؤاخذه - مبسوطون!..

(٣)

كله تمام يا أفندم*

الذين يقولون: كله تمام يا أفندم، لأنهم جبناء لا يجرون على مواجهة رؤسائهم بالحقيقة يقتربون جنابة خطيرة في حق وطنهم، وقد جروا علينا بها كوارث أليمة، ونحن لا نريد أن يخدعنا جبان بعد اليوم، فلا شيء ينفعنا غير الحقائق، وليست هناك في الواقع حقيقة مرة، لأن الحقائق كلها نافعة، والكذب وإخفاء الحقائق هي أمر الأشياء جميعا وأضرها بمصالح هذا الوطن، وعبرة: كله تمام يا أفندم في ذاتها مهينة لأنها تحمل طابع السخرية ممن تقال له لكثرة ما خدعنا بها.. لست أول من أنكر هذه العبارة وتخوف منها.

ففي رواية زديج أو «صديق» وهي من أشهر روايات فولتير وأكثرها ذيوغا بين الناس وأمرها سخرية، يردد هذا الكاتب الفيلسوف الساخر عبارة تقول على لسان الوزير: «إن كل شيء يسير على أحسن حال في أحسن البلاد» وأحسن البلاد هنا هي فرنسا التي رمز لها فولتير بدولة فارسية، وزديج هو الوزير الذي يحرص دائما على أن يطمئن الملك - والمقصود هنا ملك فرنسا - إلى أن كل شيء يسير على أحسن حال في مملكته التي هي أحسن الممالك، ولم تكن فرنسا إذ ذاك بأحسن الممالك، ولا كان أي شيء فيها يسير على ما يرام، فقد كانت فرنسا كلها على أبواب ثورتها التي كان فولتير وروسو وأمثالهما يحسون بأنها قادمة، لا على سبيل التنبؤ، فإن الأديب الحق لا يتنبأ، ولكنه يعرف أن الأمور إذا سارت في طريق السوء دون علاج فلا بد أن يؤدي الأمر إلى كارثة، وإذا كان كبار رجال الدولة يحرصون على خداع سيدهم ويوهمونه بأن كل شيء يسير على خير حال، فإن الأمور لابد أن تنتهي على أسوأ حال..

* نشرت هذه المقالة في ٢٩ نوفمبر ١٩٨١ م.

وفولتير سخر من فرنسا ما قبل الثورة فى كل سطر من سطور «زديج» ولكن قوله على لسان زديج فى كلامه إلى الملك: مولاي، أن كل شيء يسير على خير ما يرام فى خير البلاد.. هذه العبارة أصبحت من أشهر ما قال أهل الفكر والنظر البعيد فى مجال السخر من خداع المرءوسين للرؤساء وإخفاء الحقائق الأليمة عنهم وراء عبارات كلها زيف ونفاق..



وكلما سمعت عبارة «كله تمام يا أفندم» ترددت فى خاطرى عبارة فولتير وما تخفى وراءها من الحكمة والموعظة. ولى فى ذلك قصة أحكيها لأن كل مسئول عن عمل يتعرض لمثلها كل يوم، ولهذا فهى تنفعه..

فقبل ثلاثين سنة قررت كلية الآداب بجامعة القاهرة أن تقيم يومًا يسمى باليوم الجامعى على غرار ما تقيمه الجامعات الألمانية كل عام من يوم أكاديمى وهو يوم يقيمونه قبيل نهاية الموسم الربيعى من مواسم الدراسة الجامعية المعروفة بالسمرات، وقبل إجازة الصيف، يجتمع فيه أهل الجامعة كلهم طلابًا وأساتذة بما فيهم مدير الجامعة ومساعدوه وكل الموظفين الإداريين، كل من يعملون فى الجامعة حتى البستانيين والسعاة والعاملين فى النظافة، ويتجمعون بعائلاتهم، ويحضر كل منهم ما يستطيع من الطعام، ويجلسون على موائد واحدة: المدير إلى جانب الساعى إلى جانب الأستاذ والطالب، وزوجة المدير فى وسط الطالبات ونساء النظافة، ويجرى الحديث بينهم عائلتيًا صرفًا، والشئ الوحيد الذى لا يجوز الكلام فيه فى ذلك اليوم هى شئون الجامعة الرسمية. فلا كلام فى علم أو بحث أو وظائف أو تعيينات، أو شكاوى أو امتحانات..

فالمدير يسأل زوجة الساعى عن أولادها وأحوالهم ويحملها التحية والتمنيات لهم، والساعى يسأل زوجة الأستاذ على الروماتيزم الذى

تشكو منه ، ويحاول أن يصف لها وصفة بلدية ، والطالب يحدث المدير عن والده يعمل فى السكة الحديدية..

اتفقنا على إقامة يوم كهذا بادئين بكلية الآداب كتجربة. فإذا نجحت وسعنا مجالها فى العام التالى لتشمل الجامعة..

ووافق عميد الكلية ووافق مدير الجامعة وكان طبيب أطفال مشهوراً، وجعلونى مسئولاً عن التنفيذ كله، لأننى كنت صاحب الفكرة..

واخترت مساعدين لى من الطلاب، وكان المفروض أن يشمل اليوم مباريات ومسابقات رياضية بين الأساتذة والطلاب وعرضاً مسرحياً ومسابقات ذات جوائز ومونولوجات و«نمر» فكاهية من النوع اللطيف الذى يحسنه الشباب..

ومضت الاستعدادات على قدم وساق..

وبلغ من سرور الجامعة بالموضوع أن تبرع بمبلغ كبير من ماله يغطي نصف نفقات وجبة الغذاء التى تقرر أن يقيمها مطعم كباب مشهور بدلاً من أن يضطر الناس إلى إحضار الطعام معهم، وكان المفروض أن يدفع لكل عضو خمسة قروش من منحة المدير ويدفع هو الخمسة الأخرى، أما السعاة والفراشون فكان المفروض أن يدفع لهم المدير الوجبة الكاملة.. وقبل الموعد بأسبوع رأيت أن أتأكد بنفسى من أن كل شىء يسير على خير وجه فقال لى الطلاب: لا داعى لإتعب نفسك، كله تمام يا أفندم..

قلت: لا بأس. أتعب نفسى الآن خير من أن أتعب الناس وأجعل نفسى مضحكة الجامعة يوم الحفل..

وذهبت إلى ملعب الجامعة فلم أجد أى استعداد، ورئيس اللجنة الرياضية يقول: هذه مسألة تحتاج إلى يوم..

ووجدت أن كل الفرق الرياضية لم تستعد استعداداً كافياً، كل شىء تركوه لآخر لحظة، ومادامت المسألة حفلاً عائلياً فأى كلام يكفى..

وفرقة التمثيل كانت تتلکأ فی التجارب ، ولم یحفظ دوره إلا اثنان من الممثلین : صاحب الدور الرئیسى وواحد ثان ، وكان فی الروایة دوران نسائیان المفروض أن تمثّل واحدًا منهما ممثلة كبيرة ، وهذه لم یفاتها أحد..

أما وجبة الغداء فقال الطالب المسئول عنها إنه تكلم مع صاحب المطعم الفلانئ بالتلیفون وإن هذه مسألة بسيطة یمكن تدبیرها قبل الحفل بیوم..

— یا بنی کیف یمكن لأى مطعم فى مصر أن یعد ٥٠٠ وجبة من الكباب وما یتصل به فى یوم واحد؟..

— لا یكن عندك هم یا بیه.. والمطاعم كثيرة.. دع أنت المسألة ولا علیك.. وكله تمام یا بیه..

وحتى الحرس الجامعى لم یخطر وه، وكان لابد من إخطاره، ولم یتصل أحد بوزارة الداخلية ومحافظة الجیزة، ولم یكن من الممكن فى تلك الأيام تنظیم أى حفل عام فى الجامعة دون موافقة المحافظة والوزارة، والمفروض أنها موافقة شكلية، فإذا بها لیست شكلية أبداً، لأن المحافظة والوزارة لابد أن یكون لیدیها وقت كاف لاتخاذ إجراءات أمن لابد منها..

وقال أحد أعضاء لجنة الطلاب: هذه مسائل تتم كلها فى یوم..
إن ابن عمى وکیل محافظة الجیزة وقد أبلغته.. وكله تمام یا أفندم..
وقلت: لا والله ما كله بتمام ولا نصف تمام..

وخلال أسبوع كامل لم أسترح لا باللیل ولا بالنهار: من مراقبة تمرینات الرياضة إلى تنظیف الملعب وإعداده إلى محافظة الجیزة إلى مسرح الأزیکیة حیث كنا سنقیم الحفل التمثیلى..

وكانت مشكلة وجبة الغداء مستعصية على الحل، فإى مطعم مهما كان حجمه لم يكن ليستطيع فى تلك الأيام إعداد هذا العدد الكبير من الوجبات وإرسالها فى يوم الحفل إلى الجامعة فى الجيزة.. وأخيراً تمكنا من إعداد الحفل، كل شىء تم بسرعة وبغير إتقان، واضطررنا إلى إلغاء الكثير من عناصر البرنامج.. وكادت تحدث مهزلة مبكية من وراء «كله تمام يا أفندم».. ومن يومها أصبحت أفهم عندما أسمع هذه الجملة أن هناك كارثة فى الطريق..



وخلال تجاربى على مدى السنوات الطويلة رأيت مآسى حقيقية تقع من وراء هذه الجملة التى يقولها المرءوسون عادة لكى يطمئنوا رئيسهم ويخادعوه..

وعندما أصيبت والدتى رحمها الله تعالى بنوبة قلبية وحملناها إلى المستشفى وجدنا كل أنابيب الأوكسجين فارغة، والأنابيب المملأة موجودة، ولكن الأنابيب التى كانت موجودة فى الغرفة هى الفارغة، وإلى أن يتم النقل والتركيب يكون قضاء الله قد سبق إلى المريض.. وحملنا مريضتنا إلى مستشفى آخر، وكان قضاء الله فى الطريق. وساعتها فقط، ولا أدرى كم مريضاً مات قبل ذلك، يومها فقط بدلوا الأنابيب الفارغة بالأنابيب المملأة وأصبح كل شىء تمام يا أفندم.. وأشد ما أثار غيظى يومها، ونحن نجرى ملهوفين - لأن بين أيدينا مريضة عزيزة لا تستطيع التنفس - أن كبيرة الممرضات قالت: يا بيه هذه مسألة بتاعة ربنا.. ربنا عاوز كده.. دى أعمار، وهل يستطيع أحد أن يتدخل فى الأعمار؟..



وبينما كنت أطلع كتاب (البحث عن الذات) للرئيس الشهيد أنور السادات، عليه ألف رحمة من الله، كنت أرى بعيني مئات الكوارث التي حلت بهذا البلد وبجمال عبد الناصر نفسه، من وراء كارثة كله تمام يا أفندم..

كلهم كانوا يقولون له: كله تمام يا أفندم.. وكل صغير كان يقول للذي فوقه: كله تمام يا أفندم. لأنهم يخافونه، ويخافون غضبه كانوا يقولون له: كله تمام يا أفندم.. وحتى أنور السادات، وكان اليد اليمنى لعبد الناصر قالوا له قبيل كارثة هزيمة ١٩٦٧م: كله تمام يا أفندم.. وجمال عبد الناصر - كما قال السادات - مات بالفعل يوم ٥ يونيو ١٩٦٧م ولكنه دفن يوم ٢٩ سبتمبر ١٩٧٠م.. والذين قتلوه لم يكونوا خصومه الإسرائيليين بل كانوا مساعديه من المصريين..

لقد غيروا الخطة التي كان قد صدق عليها دون أن يخطر وه، وعندما سأل عبد الناصر عن موقف الطيران قال له قائد الطيران صدقي محمود: يا أفندم إحنا عاملين حسابنا، ولن تزيد الخسارة على عشرين في المائة.

يعنى: كل شيء تمام يا أفندم.. وعندما وقعت الواقعة كانت خسارة الطيران مائة في المائة، وضاعت الحرب..

وهذه ليست أسراراً ولكنها في كتاب مطبوع بكل لغات الدنيا. ويوم المعركة، ولأنهم كانوا قد قالوا لأنور السادات إن (كله تمام يا أفندم) كان مطمئناً كل الاطمئنان على النصر قال: (فحلقت ذقنى وارقدت ملابسى على مهل، وتوجهت بسيارتى إلى القيادة، كنت قد

حضرت إعداد الخطة بالكامل ، وكانت ثقتى بالنصر أكيدة، فعدتنا أكثر من كافية، والخطة محكمة للغاية)..

ثم تبين الحقيقة الأليمة، لم يكن أى شىء تمام يا أفندم:
(سألت بعض الموجودين فقالوا إن سلاح الطيران قد ضرب بأكمله وهو على الأرض)..

وهذه الكارثة هى التى علمت السادات كيف يكسب النصر فى حرب أكتوبر..

لم يدع نفسه ليقع فريسة (كله تمام يا أفندم)..
اختار الرجال الأكفاء الذين لا يقولون كلمة إلا بحساب، وعندما يقولون إن (كله تمام يا أفندم) فمعنى ذلك أن كله تمام يا أفندم، ومأساة صدقى محمود لم تتكرر لأن الذى تولى سلاح الطيران كان القائد محمد حسنى مبارك، وكان السادات وراء كل دقيقة وكبيرة بل كان فى كل صغيرة وكبيرة. كان يعنى أن لفظ (كله) ينبغى أن يكون معناه (كله) من صامولة عجلة السيارة ووجبة الطعام إلى الطائرة المعدة تمام الإعداد..

ومن المعروف كذلك أن هذه هى عدة النصر التى اعتمد عليها نابليون فى معظم معاركه، عندما قرر أن يضرب النمسا وحلفاءها ضربة قاصمة فى معركة أوسترليتز، ظل أسبوعاً كاملاً وهو فى أوستند فى بلجيكا بعد أن أعلن الحصار القارى على إنجلترا، ظل أسبوعاً يملئ تفاصيل معركة أوسترليتز..

كان السكرتيرون يتبدلون وهو يملئ دون تعب كل تفصيلة من تفاصيل التجهيز والإعداد والتموين والاستراتيجية والتكتيك، وبعد أن أملئ الخطة فى نحو ٦٠٠ صفحة جلس يراجعها كلمة كلمة، ثم اختار القادة واحداً واحداً وأعطى كل قائد نسخة من الخطة الكاملة مع نسخة من الجزء الخاص به..

ثم ذهب إلى باريس حيث أشرف على الإعداد والتدريب بنفسه، وسافر إلى ميتز حيث كانت المدافع تصب وتركب، وراها بنفسه قطعة قطعة، ثم ذهب إلى شارلروا لكي يرى البنادق خارجة من المصانع، ثم ذهب إلى نانسي واستراسبورج لكي يتأكد من وفرة التموين ثم أسرع إلى أوجزبورج لكي يشهد بعينه كل شيء في طريقه إلى مكان المعركة، وفي قرية قرب فريدريكس هافن استعرض الخيول واجتمع بقيادة الفرسان..

وكان قواده يقولون له: (مون جنرال لا داعي لهذا الاجهاد، نحن ساهرون، وكل شيء على ما يرام) فكان يجيب: إذا انتصرنا فستكونون كلكم منتصرين، إما إذا انهزمنا فإن نابليون وحده هو الذى ستقع عليه كل الهزيمة..

ولم يكن ذلك عن قلة ثقته بقواده، بل لأنه كان لا يؤمن بأن كله تمام يا أفندم حتى يرى بعينه..

وعندما تخرج فى ووترلو وعلم أن بلوخر قد ثبت مدافعه على التلال المشرفة على الميدان عض على أنامله وقال: يا لى من غبى: لمرة واحدة نسيت جزئية واحدة، وهذه النتيجة، وظل دقائق ينظر إلى تلك التلال، وقالوا له: لم يضع كل شيء بعد، ويمكننا أن نفعل كذا وكذا، قال: إن القائد الصغير هو الذى يلجأ إلى التصرف فى آخر لحظة، أما أنا فكل شيء ينبغى أن يكون واضحاً وثابتاً هنا.. (وأشار إلى رأسه) وهنا (وأشار إلى عينيه) قبل المعركة بأيام.

وعندما نقرأ فى بيان لوزير المالية أن لدينا بضائع مكدسة غير صالحة للبيع تقدر بأربعة بلايين من الجنيهات نعرف أن هذه الكارثة ناتجة من (كله تمام يا أفندم)..

العامل الصغير يقول لرئيس الورشة هذه العبارة القاتلة ليطمئنه، ورئيس الورشة يقولها لرئيس الورش، ورئيس الورش يقولها لمدير الإنتاج، ومدير الإنتاج يقولها للمدير العام ومنه إلى رئيس مجلس

الإدارة، ولو كانت قيمة الإنتاج البائر مليونًا أو مليونين لقلنا إنها تجارب نتعلم منها ونستطيع إصلاحها، ولكن عندما يصل البائر إلى أربعة بلايين لا يكون الأمر أمر تجارب وتعلم، ولا نقصا في المواد، إنما يصبح الموضوع نقصًا أخلاقيًا، يصبح موضوع غش آثم مقصود.

لأن كل واحد من أولئك السادة قال تلك العبارة باستخفاف وقلة ضمير لأنه لن يخسر شيئًا ولن يخضم منه أجر يوم، ولكن الخسارة بكاملها ستخضم من إيرادات الشعب المصرى كله..

لقد حومت حول حقيقة هذه الكارثة جريدة الأهرام فى مقالها المؤرخ ٣٠ أكتوبر ١٩٨١م فى مقال كتبه الأستاذ إبراهيم نافع تحت عنوان (وجاءت لحظة مواجهة الحقيقة) قال فيه : (بمعنى آخر: هناك إنتاج زائد، ولكنه إنتاج يتحول إلى إنتاج راكد نضطر معه إلى الاستيراد، وهناك بيروقراطية حكومية تتسلط على الشركات.. وليست هناك برامج تفصيلية للخطة فى كل قطاع، وبالتالى ليس هناك برنامج عمل محدد واضح المعالم حتى إن أهداف التصدير لا تتحقق، بل وبدأنا فى نسيانه كحقيقة اقتصادية ثابتة وفيها الإنقاذ الأول.. وذلك هو ما نعنيه بأن السطح أو الغطاء سليم، ولكن العمق يحتاج إلى نفاذ إليه.. والكلام هنا مهذب..

ولكن الكلام المهذب لا ينفع عندما تصل الخسارة فى الإنتاج إلى ٤٠٠٠ مليون جنيه من المصنوعات البائرة التى لا تباع.. لا ينفع هنا إلا الكلام الصريح الصادق حقًا، وهو أن أحدًا من المتسببين فى هذه الخسارة الفادحة لم يراجع ضميره، كلهم كذبوا بعضهم على بعض، كلهم كذبوا علينا. كلهم قالوا: كله تمام يا أفندم، ولم يكن كله تمام يا أفندم، والمسألة فى صميمها وكما قلت أخلاقية.. فإن العامل الواقف أمام الآلة.. لم يراع ضميره، وهو يستحق عقابًا على ذلك..

ورئيس الورشة المكلف بمراجعة إنتاج العمال لم يراع ضميره، وخان
نعمة العيش التي يأكلها من مالنا، ولم يقم بواجبه وأقر إنتاجاً فاسداً
لاينفع، وكذلك الذى فوقه والذى فوقه..

وهنا أيها السادة لابد من العقاب. فمادام هناك خطأ فهناك مسئول،
ومادام هناك مسئول يتقاضى أجراً عن العمل فلا بد أن تكون هناك عقوبة
عندما يتقاضى هذا المسئول أجراً على عمل لم يحسنه..

والمسألة ليست إصلاح نظام بل إصلاح أخلاق..

وكما أن هناك شيئاً اسمه الثواب فهناك شيء اسمه العقاب، والله
سبحانه وتعالى وهو أعدل العادلين - يربط الثواب بالعمل الصالح،
ويربط العقاب بالعمل غير الصالح. ولو أننا طبقنا عدل الله سبحانه
وتعالى لما تزايد تل الإنتاج البائر، حتى صار جبلاً، وإذا سكتنا عليه
فسيصير سلسلة جبال، وسيكون الانهيار أكثر من خطير..

إن العالم كله ينتظر الإنتاج الجيد ويشتره.. والسوق العالمية تستهلك
كل شيء لأن الدنيا كلها تعلمت درس الإنتاج الجيد إلا نحن، لازلنا
نقول (كله تمام يا أفندم) وننام..

نحن فى مصر نشترى بضائع كل بلاد الدنيا: من كوريا وتايوان
وهونج كونج والهند فضلاً عما نشتره من الدول الصناعية الكبرى، ومما
يؤلم النفس أن مصر كانت فى قمة البلاد المنتجة للأثاث والمصدرة له
قبل ثلاثين سنة تستورد اليوم الأثاث، وكانت الأحذية المصرية تباع فى
طول العالم العربى وعرضه فأصبحنا نستورد أحذية، وأقمشتنا التى كان
العالم يتهافت عليها أصبحت تشتري بحذر، حتى المشتري المصرى فى
داخل مصر أصبح يشتري بالة القماش فإذا فتحها وجد التمزيق والقطوع
والخيوط الخارجة عن النسيج، واضطر إلى أن يلقي جانباً أمتاراً بعد
أمتار، لأن الناس لن يشتروها، فى حين أن المصنع المصرى - وهو فى

الغالب قطاع عام - يتحكم فى المشتري ويقول له دون خجل : إما أن تأخذ البالات كما هى أو دعها، هناك ألف غيرك..

وهذا الكلام من صاحب المصنع أو المسئول عن البيع فيه صفاقة وقلة أدب وخيانة للوطن، فهو لا يستحى من أن إنتاجه فاسد، وهو لا يخجل من أنه منتج سيء ورجل عاجز ورئيس لا يستحق منصبه، ولا يكفيه ذلك حتى يصل إلى الوقاحة وقلة الأدب..

وهذا الأسلوب الوقح تستطيع أن تلمسه بنفسك كل يوم، فمن شهر مثلاً ذهبت أشتري حقيبة سفر من محل من محلات القطاع العام، وأهم شئ فى الحقائق هى الأقفال والمفصلات، ومضيت أجرب الأقفال، نحو ١٠ حقائب أقفالها لا تقفل، أو واحد يقفل والثانى لا يقفل..

وكل هذه الحقائق إذا أقفلتها لا تنطبق، لأن المفصلات فى غير مواضعها، وأخيراً قال لى البائع : يا أفندم أهلكتنا.. عشرون حقيبة تجربها دون أن تعجبك إحداها..

- يا سيدى إننى عميل أشتري وأدفع الثمن، وأريد حقيبة متقنة الصنع ينطبق جزأها ويقفل قفلها وكيف تريدنى أن أشتري حقيبة تنفتح منى أثناء السفر..

- يا حضرة.. هذا هو الذى عندنا.. إما أن تأخذه أو لا توجع قلبنا، لو كان كل العملاء مثلك ما بعنا حقيبة واحدة.. ولو كنا فى بلد آخر لاستحق هذا الرجل عقوبة..

ولكن عنده حق.. فهو لا يخشى عقوبة ولهذا فهو وقح قليل الأدب.. ثم تطلع على تقرير مجلس الإدارة لهذه الشركة فتقرى أن ملخصه عبارة (كله تمام يا أفندم) والمحل يكسب، ونسبة الزبح كذا، والعاملون- رئيس مجلس الإدارة فى مقدمتهم- يستحقون جوائز تشجيعية..

ويعطونهم مكافآت تشجيعية..

ويتعالى جبل الإنتاج البائر الذى لا يباع..

ويدفع الشعب من ماله ثمن هذا الإنتاج الذى لا يباع..

(وبرضه يقولون): كله تمام يا أفندم..

بالنسبة للدنيا كلها انتهى عصر التواكل والتكاسل والهزل فى علاج الأمور، والأمم التى نسميها الأمم القوية أو الغنية أو المتقدمة هى الدول التى لا يقول أهلها (كله تمام يا أفندم) إلا إذا كان كله تمام يا أفندم، والدول المتأخرة الفقيرة هى التى يقول أهلها (كله تمام يا أفندم) فى حين أن (كله مش تمام يا أفندم)..

والسألة هنا ينبغى أن تبدأ من أعلى، لأن المفروض أن الذى هو أعلى يعلم ويوجه ويثيب ويعاقب من دونه، وهكذا حتى نصل إلى القاعدة.. إذا كنت وزيراً فلا تصدق عندما يقولون لك (كله تمام يا أفندم) حتى ترى بنفسك أن (كله تمام) فعلاً..

لقد زرت أكثر من مرة قسم تعبئة الحقن فى شركة سيبا للأدوية فى بازل بسويسرا، هناك لا يختبرون عينات من الحقن المعبأة، بل يفحصونها واحدة واحدة..

هناك عاملات متخصصات جالسات إلى منضدة طويلة يمر أمامها شريط جلدى عليه الحقن، وخلفها أضواء مختلفة تكشف عن أى خلل فى محتوى الحقنة أو إحكام قفلها، والعاملات جالسات فى غاية الانتباه..

والشريط يسير أمامهن فى ببطء وبصرهن مثبت فيما يمر أمامهن.. كل حقنة يشك فى أمرها ترفع باليد وتوضع على المنضدة..

وهناك مراجعات أخريات. رئيسات يراقبن نفس الحقن مرة أخرى، والويل للعاملة التى تركت حقنة معيبة تمر، والحقن المعيبة تفحص لمعرفة المتسبب، ولا يمكن التساهل مع المسئول أبداً. لابد من العقوبة،

وفى الولايات المتحدة رأيت نفس الدقة فى صناعة السيارات فى ديترويت..

وفى أوساكا باليابان رأيت كيف يراقبون سلامة الإنتاج، هل يدهشك بعد هذا أن تعلم أن فائض الإنتاج الجيد المباع من صناعة اليابان وصل إلى ١٢٠٠٠ مليون دولار؟..

إن أوروبا وأمريكا تشكوان من جودة إنتاج اليابان، واليابان رفقا بهم تشتري بضائع لا تحتاج إليها، لكى يعتدل الميزان التجارى بينهم وبين اليابان..



ليس أسهل من النجاح لمن يعرف طريقه..

وطريق النجاح هو العمل الجاد المتقن والضمير الحى..

ولا يمكن فى أيامنا هذه أن تنتج إنتاجًا جيدًا ويبور.. لأن سكان الدنيا كثيرون جدًا، وكلهم يشترون، ونحن أنفسنا نذهب إلى كوريا لنشتري البضائع..

وفى هذا العام اشترت شركة ايبيريا الأسبانية للطيران طائرات من صنع أندونيسيا، لأنها وجدت أنها جيدة صالحة..

ونحن لدينا بضائع قيمتها ٤٠٠٠ مليون جنيه. وهى فى زيادة - لانستطيع بيعها لرداءتها، حاجة تكسف..

والذى يكسف أكثر هو أن هذه المنتجات من بضائع لا تحتاج إلى دقة عظيمة: أقمشة، جوارب، ملابس داخلية، حقائب سفر، قطع موبيليا عادية جدًا، وما إلى ذلك.. تريد أن تضحك وتبكي فى آن معاً؟..

ادخل إلى قسم الأثاث فى أى محل يبيع إنتاج القطاع العام واطلب كرسيًا عاديًا من النوع الذى يستطيع صنعه نجار السواقى أراهنك: لن تجد كرسيًا لا يعرج.. القوائم الأربعة لا تتساوى أبدًا.. حاجة تكسف..

والذى يكسف أكثر أن التقدير السنوى للمصنع الذى ينتج هذه الكراسى يقول: كله تمام يا أفندم!..

(٤)

مجاهدون: قضيتهم الفلوس*

الصحافة مهنة شرف، والقلم أمانة وكل كاتب جدير بهذا الوصف ينبغي أن تكون له قضية إنسانية عادلة، ومادامت له قضية إنسانية عادلة، فهو مجاهد بالقلم.. ولكن عالمنا العربي يشهد منذ حين ظاهرة الصحفيين الذين جعلوا كسب الفلوس قضيتهم، فكل ما يؤدي إلى الفلوس يكتب وينشر، وهؤلاء الناس ليسوا صحفيين، إنهم تجار باعوا كل شيء حتى الوطن وشرف المهنة، بل صاروا يتقاضون الفلوس على ما لا ينشرون لا على ما ينشرون. لأنهم يبحثون عن الفضائح، ويتقاضون المال على عدم نشرها، ولكي يحرروا العالم ذهبوا ليحرروه في لندن وباريس بل من قبرص.

باستثناء الجاقدين على الدنيا والناس، الذين طمس الله على قلوبهم فهم صم عمى لا يسمعون ولا يبصرون، ويحسبون أن القتل وسفك الدماء جهاد، لا بد أن تكون لكل مجاهد قضية يجاهد في سبيلها. سواء اختلفنا معه أم اتفقنا، فإنه يجاهد مادامت له قضية نابعة من إيمانه بما يجاهد في سبيله. مادام جهاده لا ينبع من مجرد البغض والحقد، ومادام يعتقد أن قضية تتوخى الخير للناس أو لطائفة من الناس فهو مجاهد وجهاده مشروع.

والقضايا والجهاد في سبيلها على هذا الأساس هما من أكبر أسباب تقدم الإنسانية. مهما كان رأيك في قضية المجاهد فإنك لا بد أن تحترمه مادام في قضيته جانب من الخير ولو لقومه فقط. لأنه مادام فيه خير ففيه فضيلة وفيه كرامة، وفيه أغلى ما في الحياة وهي حرية الإنسان.

رغم إنكارنا لحركة الصليبيات التي عانينا منها نحو ثلاثة قرون فلا بد أن نقرر أنه وسط عشرات الألوف من المتعصبين والطامعين

* نشرت هذه المقالة في ٣ يناير ١٩٨٢ م.

والمضللين والمغامرين الذين قاموا بهذه الحروب، فقد كانت فئة قليلة جدًا منهم لها قضية: قيل لهم إن المسلمين يحولون بين الناس وزيارة قبر المسيح، قيل لهم إن المسلمين أعداء المسيح. هذه القلة كانت مجاهدة رغم أنها كانت مخدوعة، وهى على قلتها هى التى تجعل للصليبيات معنى فى التاريخ.

وعندما قام عماد الدين زنكى بدعوة المسلمين للتجمع لطرد الغزاة المعتدين كانت له قضية ولهذا فهو مجاهد، وعندما استولى على الرها سنة ١١٤٤م. وفتح أبوابها للإسلام وأذن للنصارى فيها بأن يتعبدوا ما شاءوا أصبح اسمه حروفاً من نور فى تاريخ المسيحيين أنفسهم.

ثم جاء ابنه نور الدين محمود وارتد الجهاد إلى نبع الجهاد الصافى وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستيقظت أمة الإسلام على نداء الجهاد وقضية الإسلام المظلوم. وثلاثون عاماً من الجهاد فى ميادين الموصل والشام ومصر جعلت نور الدين محموداً نوراً لكل دين، جعلته نوراً للإسلام ونوراً لغير أهل الإسلام. وعمورى أو أمالريك المستعمر الذى قام فى القدس على بحر من دماء سبعين ألف مسلم استشهدوا يوم دخل سلفه بلدوين القدس وأعلن نفسه ملكاً عمورى هذا كان إذا ذكر أمامه اسم نور الدين تمشى الخوف فى أوصاله. لأنه كان يحس بالخشوع أمام المجاهد.

وعندما انتقلت راية الجهاد إلى صلاح الدين عرفت أوروبا كلها أنها كانت على ضلال. لأنها وجدت نفسها أمام مجاهد حق له قضية حق. والملوك الثلاثة الذين أقبلوا يقودون الحرب الصليبية الثالثة لعقاب صلاح الدين أحنوا هاماتهم للرجل الذى أقبلوا ليعاقبوه، وواحد منهم وهو ريتشارد الذى لقبوه بقلب الأسد أقبل من إنجلترا ليعاقب هذا المتمرّد الذى قيل له إنه اغتصب القدس من أهل النصرانية، وعندما أصابته الحمى وبات ليله يتقلب فى غمراتها أته كأس من صلاح الدين فيها شراب قيل له إنه ترياق.

وشرب الترياق وأفاق، وشفى به، وعندما علم أن هذه الكأس أتته من هذا الرجل الذى أتى ليعاقبه أحس أنه رجل أقوى منه وأبسل. وقال لقد فعل ما لم أكن أنا ولا غيرى يفعله قط. هذا رجل لا يمكن أن يختلس أو يعتدى. وأزمع العودة إلى بلاده. وعندما قالوا له: تمضى وتترك القدس فى أيدي المسلمين. قال. أما المسلمون فيهم مثل صلاح الدين فالقدس وقبر المسيح فى يده فى أمان. لقد هزمه صلاح الدين بكأس دواء. يومها عرف أن الإسلام قضية عادلة. ومادام قضية عادلة فأصحابها مجاهدون.

ولست أضرب هذا المثل جزافاً. إنما اخترته لأن له معناه هنا.



إن القضايا العادلة هى التى تخلق المجاهدين والقضايا الباطلة هى التى توجد القتلة والسفاحين والمضللين والأفاكين وطلاب الرزق الحرام. وكل جهد لا يقصد إلى خير الناس لا يمكن أن يكون جهاداً. ومادامت لا توجد قضية فلا جهاد.

الاستعمار كله لم يكن له قضية. كانت له مطامع، ولهذا وعلى الرغم مما أبداه بعض غلاة المستعمرين من ذكاء، فإن واحداً منهم لم يكن مجاهداً. كلهم كانوا لصوصاً: السير ايفلين بيرنج (السير كرومر) والماريشال ليوتى ومونجو بارك وسيسيل رودس كانوا لصوصاً كباراً. ليوتى عندما قال مرة: لا يمكن أن نحكم الناس رغم تقاليدهم. لابد أن نحكمهم من خلال تقاليدهم.

صفق له أعضاء المجمع الفرنسى إلا أناتول فرانس فقد قال له: ولماذا نحكم الناس أصلاً؟ فقال: لكى نحضرهم، لكى ندخل إليهم الحضارة الفرنسية؟ قال: وهل هذا عمل ماريشال وجنرالات وجنود؟ ولم يصفق أحد لأناتول فرانس، لأن الأكاديمى فرانسيز عندما استقبلت صاحب

السيف والمدفع لم تعد أكاديمية. القضية انتقلت إلى رجال التحرير
المغربى، أصبحوا هم الذين يعملون الفرنسيين. كانوا مجاهدين ولم
قضية.

أما الفاتحون المسلمون فكانوا مجاهدين لأنهم كانت لهم قضية.
قضيتهم هي الإسلام ورسالة النور. عقبة بن نافع الذى اخترق المغرب
بحد السيف كان مجاهدًا وقضيته الإسلام. لهذا كان موته خلودًا لأنه
استشهد فى سبيل قضية. ومن حواصل الطير وبطون السباع سيحشره
الله مع الصديقين والأبرار يوم القيامة. وكان ليونى رجلاً حقيراً عندما
شبه نفسه بعقبة بن نافع ولهذا لا يموت المجاهدون. إنما يخلدون
يصبحون شهداء والشاهد والشهيد لا يكون إلا حياً وإن مات جسده.

مارتن لوثر كان مجاهدًا، لأنه كانت له قضية. قضيته كانت تحرير
الدين من القساوسة الذين حولوه إلى تجارة، لقد ترجم الانجيل من
اللاتينية الذى كان الأخبار يتسترون به وينهبون أموال الناس. كان
رجلاً له قضية وكان صادقاً، ولهذا كتب له الخلود. لا يذكر أحد اسم
البابا الذى كان يتربع على عرش الكنيسة أيام مارتين لوثر، لأنه كان
رجل دين بدون دين. كان محصل أموال بلا قضية.

وكارل ماركس لم يكن مجاهدًا لأن قضيته كانت الحق. كل كلامه
بعيد عن الإنسانية، ولا توجد فى حياته ولا فى سطورة لمحة إنسانية.
كان يريد إحراق الدنيا فسلط العمال على أصحاب الأموال. فى نفس
الوقت لم يستح من الاعتداء على خادمته وعندما حملت منه طردها.
ألقى بها فى الطريق وعاد إلى مكتبه ليكمل المانيفستو. كلماته تقطر السم
والدم والدمار. كان هذا الرجل الذى زعم للناس أنه ملحد صهيونياً
متعصباً وله كتاب يسمى الدولة الصهيونية كان منافقاً وكاذباً.

ولا يمكن أن يكون المجاهد منافقاً أو كاذباً. لهذا لم يؤمن بلد بآراء
ماركس إلا ركب أهله الذل والشقاء، وأكبر دولة استعمارية عرفها

التاريخ هي دولة الشيوعيين الروس. إنهم استعماريون ولهذا فهم ليسوا مجاهدين وليست لهم قضية.

والكتابة الصادقة جهاد لأن لها دائماً قضية والكاتب الجدير بحمل أمانة القلم مجاهد لأن له قضية، قضية الإنسانية والحرية وكرامة البشر. فى تاريخنا الأدبى قليلون جداً كانت لهم قضايا تجعل لهم مكاناً بين المجاهدين. الجاحظ نفسه لم يكن مجاهداً لأنه لم تكن له قضية. لقد لعن ظلم الأمويين الذى سماهم النابتة، وأيد ظلم العباسيين الذين سماهم الأئمة. إنه رجل بليغ، ولكنه ليس صاحب رسالة.. أنت تعجب به، ولكنك لا تجد خيطاً يربطك به كإنسان.

والمتنبى كان شاعراً فحلاً، ولكنه لم يكن مجاهداً لأنه جعل قضيته الفلوس وكل ما عدّا ذلك غطاء. والرجل الذى يمدح كافورا الإخشيدى للفلوس ويذمه للفلوس لا يمكن أن يكون صاحب قضية. لهذا لم يتعلم العرب من المتنبى شيئاً وإن كانوا قد حفظوا شعره. ولا كان أبو حيان التوحيدي مجاهداً لأن قضيته كانت الفلوس، وبلاغته كانت عبقرية فى التسول. الوحيد من أهل الفكر الذى كانت له قضية فى تلك العصور كان أبا العلاء المعرى قضيته كانت كرامة الإنسان. لقد وضعه الله فى محبس فوضع هو نفسه فى محبس آخر ليكون حراً، ورهين المحبسين كان المفكر الحر الوحيد فى تاريخ فكرى طويل حافل بالمتسولين الذين كانت قضيتهم الفلوس.

لهذا نحن نحب العقاد ونحنى له هامتنا لأن قضيته دائماً كانت حرية القلم وكرامة الإنسان. فى سبيل قضيته تلك ضحى بكل شىء، والرجل الذى هز عرش الجبار لم يكن له بيت ولا كانت له زوجة ولا كان له مال. حتى طه حسين لا يسمو إلى شأو العقاد طه حسين كانت قضيته الأولى الوزارة وجهاده السلطان.

ذكرت ذلك كله وأنا أتأمل حال الفكر العربى فى أيامنا هذه. إننى أكتب هذه السطور خارج مصر وحولى صحف ومجلات غريبة يكتب

فيها كتاب يسمون أنفسهم مجاهدين. ولكنهم متسولون وقضيتهم الفلوس. لكنهم يكتبون لحساب أصحاب الفلوس ولا أحد منهم يكتب سطرًا في سبيل إنسان مسكين مظلوم مفلس. لا أحد من هؤلاء يجاهد في اليمين أو الصومال، لأن اليمن لا مال عنده والصومال لا خيل عنده يهديها ولا مال، كل ما عنده المنطق والمنطق لا يسعد طالب الفلوس.

كل هؤلاء يهاجمون مصر لأن مصر منذ أيام عبد الناصر لم تعد تدفع.. إنهم يكتبون في مجلات هي في ذاتها حيوانات عجيفة كتلك التي يحدثنا عنها الدكتور جوهر في أحاديثه عن البحار.

ونحن في عصر من العروبة عجيب، أصبحت الصحف العربية تصدر فيه في باريس ولندن لكي تصدر إلى البلاد العربية. الصحف نصفها إعلانات ونصفها الآخر تسول، وأنت تقرأ ما فيها فتعجب من مجاهدين كل قضيتهم الفلوس. مادامت هناك فلوس فهناك قضية، فإذا لم تكن هناك فلوس في قضية وبالتالي لا جهاد.

أصحاب هذه الصحف كلهم لبنانيون. بعد أن خربوا وكنهم لبنان، انتقلوا إلى لندن وباريس بل قبرص وأصبحت وظيفتهم تخريب العالم العربي كله لحساب نفس الذين خربوا لبنان. الأقلام هي هي واليد التي أحرقتها السوريون لأنها جرّوت مرة على أن تغضبهم مازالت تكتب في مجلة الفلوس.. نفس الأقلام التي تكتب بمداد الدماء هي التي ما تزال تكتب هناك.

وفي باريس تصدر مجلة عربية أخرى تسمى المستقبل. نفس الأقلام التي تكتب فيها هي أقلام الحقد الموجه لكل شيء فيه أمل في عالم العرب. من البديهي أن تكون مصر هنا هي الهدف، والذين يبتكون مصر هناك هم الذين لم يعودوا يبتكون على لبنان. لأن لبنان لم يعد يدفع. هنا يبكي نبيل خوري على مصير مصر بعد السادات ولا ندري ماذا يبكيه.

هنا يكتب من يسمى بإبراهيم سلامة.. يبدى خوفه من أن تضيع مصر مرتين.. ولا ندري متى ضاعت مصر المرة الأولى حتى تضيع الثانية. بعد صفحتين نقرأ أن معلومات الجامعة العربية تقول إن مصر مبارك تنوى حضور قمة فاس. وقد مضت قمة فاس مضت ولم تحضر مصر فأى أخبار هذه؟ وماذا تكون تلك الجامعة العربية التى وصلت منها تلك الأخبار. بعد بضع صفحات نقرأ حديثاً مزعوماً على لسان إبراهيم شكرى يزعمون فيه أنه قال إن كامب ديفيد شق للصف العربى وبديله يعيد مصر إلى العرب.

نفس المجلة تقول بعد ذلك إن دمشق تحمل إلى فاس ملف القوات المتعددة الأطراف. خلاصة المقال أن هذه الجريدة العجيبة لا يعجبها اشتراك دول غرب أوروبا فى قوة حفظ السلام. معنى ذلك أنها - لا إسرائيل - لا تريد لسيناء أن تستقل. أى عربى فى الدنيا يمكن أن يضيره تحرر سيناء. وأهل رأى السديد عند هؤلاء السادة هو أن تقوم مصر مثلاً بدعوة إسرائيل لاحتلال سيناء مرة أخرى والاستيلاء على قناة السويس لكى نقوم نحن العرب بتحريرها مبتدئين من فاس؟.

بعد قليل نقرأ أن ليبيا تربح المعركة الدبلوماسية لانسحابها من تشاد ولا نفهم أصلاً ماذا يريد أن يقول الكاتب. هل فهم أحد فى الدنيا لماذا كانت ليبيا فى تشاد، وهل ليبيا موجودة فى ليبيا لتكون موجودة فى تشاد؟.

ومجلة عجيبة أخرى تصدر فى قبرص للدفاع عن العرب. إنها لبنانية مهاجرة، وسبب الهجرة أن أصحابها كانوا فى بيروت يستولون على حصة ضخمة من الإعلانات العالمية، فإذا توقفت المجلة عن الصدور ألغى عقد الإعلانات، ولهذا فلا بد أن يستمر صدور المجلة، ومادام صدورها فى بيروت قد أصبح عسيراً ومحفوفاً بالخطار، فلتهاجر المجلة كلها إلى قبرص، ولتصدر من هناك حتى يستمر سريان العقد.

ويستمر سيل الإعلانات، وهذه الإعلانات لا تنهال على تلك الصحفية لأنها تباع مئات الألوف، فإنها في الواقع لا تباع إلا ألفين أو بثلاثة آلاف عدد.

إنما هذه الإعلانات تأتي لتحل محل كلام، يقول أصحاب المجلة إنهم يريدون نشره، ولكنهم يتوقفون عن النشر إذا دفع لهم ثمن مناسب، وهذا الكلام هو في الحقيقة أسرار فضائح ورشى تدفع لموظفين، وهذه الرشى تدفع لموظفين أو شخصيات من شركات عالمية لترسو عليها الصفقات، وقوة هذه المجلة أن أصحابها يعرفون هذه الأسرار وهم يهددون بها، فتري الشركة التي تدفع الرشوة أن الأفضل لها ولعملائها أو سماسرتها أن تشتري السكوت بنشر إعلانات تدفع فيها مبالغ طائلة.

وهكذا نجد المجلة التي لا تباع إلا ألفين أو ثلاثة حافلة بالإعلانات العالمية، لأن المجلة لا تعيش على ما تنشر بل على ما لا تنشر. لا تكسب بما تقول بل بما لا تقول، وهذا نوع من الصحافة. عجيب، صحافة التهديد بالنشر أو البلاك - نيلنج أى خطابات. التهديد التي ترسل للناس لكي يدفعوا وإلا.. فهي خطابات سوداء ومن ثم فإن هذه الصحافة سوداء.

وقد راجت سوق هذه الصحافة السوداء في بيروت رواجاً هائلاً وكسب أصحاب الصحف فيها أموالاً لا تصدق، لأن بعض أصحابنا أصحاب الفلوس يحبون - إذا هم نزلوا باريس أن يقضوا ليليهم في نوادي القمار وبيوت الرذيلة، وإذا ذهبوا إلى لندن كان نادي البلى بوى مقرهم المختار، وأصحاب الصحف لهم بالمرصاد، فهم ينتظرونهم في النوادي، ولهم جواسيسهم ومصوروهم.

ولا يكاد الإنسان الساذج المثل بالأموال يصحو من ليالى الشيطان حتى يزوره مندوب الصحيفة. وربما مندوبتها وهي في الغالب صفراء الشعر وردية الخدود، وأمام الإغراء يذل صاحبنا، وهنا تفتح الشقراء حقيبتها وتخرج صوراً وتبيعهما لأخينا بملايين؛ لأن نشرها يؤذيه، وهو

فى الغالب صاحب أعمال أو سيد عظيم تمر من تحت يديه الأموال، ومليون فوق أو ثلاثة لا تفرق، وبدلاً من النشر والفضيحة تدفع الفلوس بعضها نقداً وعدداً وبعضها فى صورة إعلان، وهكذا تكسب المجلة - أو الجريدة - طالعة نازلة كالمنشار. إذا طلعت كسبت وإذا نزلت كسبت، لهذا تستمر هذه الصحف فى الظهور من لندن وباريس وقبرص.. وربما من كماتشاك. المهم أن يكون لها مكان تطبع فيه، لأن الطباعة والنشر هى التى تهم.

تلك هى الصحافة السوداء حقاً. صحافة المجاهدين الذين قضيتهم الفلوس، والفلوس التى تعز على الرجل الشريف لا تعز على غير الشريف، والمرأة الشريفة تشقى لتعيش، وغير الشريفة تستريح لتعيش، وكل الفرق فى نظرتك إلى الشرف أو إلى عدم الشرف.

ولأن هذه الصحف والمجلات كثيرة الإعلانات أنيقة الطباعة فإن (البرىء المغفل) يظن أنها رائجة السوق واسعة البيع، فيدفع لها بسخاء لكى تنشر عنه، ومادام قد دفع لها بسخاء فهو سيدفع لها بسخاء أكثر لكيلا تنشر عنه، وتلك هى الحياة (ولا أقول المدرسة قط). الصحيفة التى أزهرت وأينعت فى بيروت، فهناك يا مولاي أينعت وأزهرت صحف قاتمة السواد.

وظهر كتاب صحفيون يكتبون بلغة (أكلونى العفاريات) وأسماءهم أشياء مثل إدوار معلوف أو جورج متلوف أو رينيه منتوف أو كرزى مززل أو جيعة مغيغب، وهذه مجرد أمثلة خطرت بالبال ولا صلة لها بالواقع، وهؤلاء هم الذين تصدوا - فى غياب الصحافة المصرية عن الأسواق العربية - لكى يعلموا العرب، وينوروا العرب، وهم دائماً أساتذة أخلاق واساطين شرف ويا ويلك من المرأة التى لا تتحدث إلا عن الشرف.

وواحد من هؤلاء مثلاً يكتب فى صحيفة من تلك قبل مؤتمر فاس يقول: (لو كنت جندياً إنكليزياً أو فرنسياً أو إيطالياً أو حتى مالطياً

لعصيت أوامر قيادتي العليا، ورفضت الالتحاق بالقوة المتعددة الأجناس التي سينسونها على خطوط النعاس بين مصر وسيناء بعد الانسحاب الإسرائيلي الكامل في نيسان / أبريل القادم من آخر شبر من الأراضي المصرية).

لو كنت جندياً في أحد جيوش هذه الدول لفررت إلى ليبيا مثلاً وأخذت جائزة، أو إلى سان سلفادور أو غواتيمالا أو جنوب أفريقيا أو إلى مكان آخر فيه بنويش (كذا) إلا على خطوط التماس في سيناء لأن خطوط التماس في بيروت بين الكتائب والردع أرحم ألف مرة فعلى الأقل تعرف لماذا أنت هناك. تعرف مثلاً أن عليك أن تطلق كل نصف ساعة رشقاً من الدوشكا ثم ترتاح ٣٩ دقيقة، وفي الليل تطلق رشقاً كل ١٥ دقيقة ثم ترتاح ١٤.

أما على خطوط التماس المصرية الإسرائيلية فماذا أفعل؟. مادام الطرفان متفقين وأكثر من متفقين، مادام يحق للإسرائيليين أن يدخلوا وقت يشاءون! ومادام لا يحق للفلسطينيين الدخول إلى الأراضي المحتلة مطلقاً. مادامت سأصبح يومياً بسيادة الرائد عبد المعطي عبد العظيم بعد ليلة لا تتمناها لعدوك من شخيرته وغطيطه، مادام سيأتي الكولونيل رافائيل كل يوم عارضاً خدماته ومساعدته للتدليل على مدى كرم الإسرائيليين وتعلقهم بالسلام.

ماذا أفعل هناك مادام ريغان وبيغن يعرفان مسبقاً أن لا شيء سيحدث حتى القوة المتعددة الجنسيات في جنوب لبنان أفضل لكثير، على الأقل يتصبح الإنسان بكوفية مرقطة أو بأحد رجال سعد حداد الذي تعب كثيراً فاستقال.. وعلى الأقل فإن ريغان وبيغن لا يعرفان مسبقاً ماذا سيحدث.

وكفى إلى هنا من خفة دم الأستاذ فيليب برطوش. لأن خفة دم (القلعوط) تكاد تقتل والعياذ بالله.

وكان هذا قبل مؤتمر فاس، ومن المعروف أن دولة عربية كانت تحمل إلى قمة فاس مسودة قرار بتهديد كل أوروبا إذا جرّوت إحدى دولها على الاشتراك في قوة حفظ السلام بين مصر وإسرائيل. ولا يهم أن المسودة تحولت إلى مبيضة أم لم تتحول، لأن المهم أن صاحبنا قد قبض الثمن.



هل رأيت الإشارة إلى سعد حداد؟.

إذن فلتعلم أن هؤلاء جميعا سعد حداد؛ لأن سعد حداد يمثل الأمل العظيم عند أولئك الناس، فهو يمثل الحق الصليبي على المسلمين في لبنان، ولهذا فهو لا يريد الفلسطينيين هناك، ولأنه لا يريد الفلسطينيين فهو مع إسرائيل قلباً لا قلماً، لأن أولئك الصحفيين لا علاقة عندهم بين القلب والقلم قط، فالقلب مليء بالحق على المسلمين في لبنان وفي غير لبنان. أما القلم فهو للبيع.

وعند هؤلاء الصحفيين فإن كل شيء قابل للبيع حتى الوطن. ولبنان نفسه باعوه، باعوه مرة وباعوه مرتين وثلاثاً، ومازالوا يريدون بيعه مرة رابعة وخامسة. وبعد أن باعوه هربوا إلى لندن وباريس ونيقوسيا. ومضوا يساومون على بيع العرب جميعاً، وفي فاس لم يستطيعوا بيعه لأن السوق انفضت قبل أن يفتح الدكان، ربما بسببهم.. ولا يعرف إلا الله سبحانه وتعالى مقدار ما دفع لهؤلاء الصحفيين قبل ذلك المؤتمر.



والآن وقد وقع ما وقع في فاس، هل تتفتح الأعين يا ترى لترى ولو جانبا من حقائق الأشياء؟.

ولو أن الأقلام التي كتبت في الصحف عن ذلك المؤتمر كانت نظيفة وباستثناء جرائد الجزيرة العربية - ربما كانت هناك إمكانية لعقد مؤتمر عربي ينفع العرب، ولكن هؤلاء السادة الذين يبيعون مال النبي ضلّوا الناس وخدعوا الجميع فكانت النتيجة أن حقائق بعض الدول التي

كانت ستشترك فى المؤتمر كانت مليئة بالمتفجرات. ولكن التوقيت أخطأ وانفجرت القنبلة قبل موعدها.

كم أتمنى أن يفتح العرب أعينهم ويعرفوا أن القلم جهاد وأن صاحبه لا بد أن تكون له قضية، وما لم تكن له قضية فهو لص وأفاق.

وفى إحدى هذه المجلات كتب صحفى مصرى نحبه ونحترمه لأنه نشأ تلميذاً فى مدرسة الصحافة الشريفة وتخرج على أيدي الشيوخ ثم أصبح أستاذاً.. كتب مقالاً عنوانه (ملاحظات حول مهنة الكتابة الصحفية).. ومضى يتحدث عن الشرف المهني وجلال القلم لناس لا يعرفون من شرف المهنة إلا ثمن هذا الشرف، ولا يعرفون من جلال القلم إلا ما يؤتيه من مال حرام.

كتب الأخ الطيب وصال وجال، ويبقى بعد ذلك السؤال: ما الذى يجعل القلم الشريف يكتب فى الميدان غير الشريف؟ الجواب يجده الكاتب الأستاذ الذى نحبه فى الصفحة التالية لمقاله: إعلان عن عطر فرنسى! موضع هذا الإعلان كان ينبغى أن تكون فضيحة، والإعلان ثمن عدم نشرها؟..

فلماذا يجرى قلمك النظيف هناك وأنت الحصيف الأريب؟..

لقد عرضوها علينا فأغنانا الله عنها، ولسنا بأذكي منك يا أخى أو أعلم، ولكن أحياناً يضل الذهن ويشرد خاطر ويؤذن المؤذن عند قدمى تمثال هبل أو اللات والعزى..

طفل (عليل) على ذراع متسولة*

هذه المرأة القارحة الغليظة الوجه التي لا تتعب من التسول.. أنت تعرفها، إنها واحدة من نسوان كثيرات يملأن نفسك ألماً وخجلاً، لأنهن أخذن طفلاً بريئاً مسكيناً واستخدمنه وسيلة للتسول وجمع القروش.

وهذا الطفل العليل المسكين الذى تعذبه هذه المرأة وشبهاتها، وتحمله على كتفها زاعمة أنه مريض مسكين، هو فى الحقيقة طفل عزيز عليك، إنه قطعة منك ولهذا فأنت تتمنى أن تنتزعه من أيديهن القاسية، وتضعه حيث يلقي العناية والعطف الإنسانى، ويشب رجلاً سوياً ويسير على قدميه.

إن هذا الطفل فى الحقيقة ليس مشكلة، فهو ليس مريضاً أو عيلاً، ولكن المشكلة هن أولئك النسوة القوارح المتسولات.

لا سبيل إلى الحياة الكريمة لهذا الطفل إلا إذا تخلص من أولئك المتسولات به، اللائى جعلن منه مأساة، وما هو بمأساة على الإطلاق.

امرأة (بالملاية اللف) على قارعة طريق.

على ذراعها طفل عليل ملقى على الكتف كأنه خرقة هالكة، المرأة بطفلها على الرصيف، لا يمر إنسان إلا أسرع إلىه: (شىء لليتيم يا سعادة البية.. شىء لله يا ست هانم.. حاجة للولد الغلبان ده يا محسنين)١.

وتظهر إشارة المرور الحمراء وتتوقف السيارات، المرأة تقفز بالطفل، كأنها شيطان، ومن سيارة لسيارة تستعطف للطفل وتتسول باسمه، وتمتلئ الكف الممدودة بخمسات القروش تندس فى الجيب. وتخضر

* نشرت هذه المقالة فى ٢٤ يناير ١٩٨٢ م.

إشارة المرور وتنطلق السيارات، وتقفز الشيطانة إلى الرصيف الآخر وتمضى عملية التسول، وتمتلئ اليد بالقروش، ربما بالخمسات ويستقر ذلك كله فى الجيب.

وهكذا من أول النهار إلى آخر النهار.

وطول النهار والطفل المسكين على الكتف كأنه خرقة مبللة ملقاة على مسند كرسي قديم، أحياناً يصحو ويتلفت حوله، وأحياناً يبكى، وتمد المرأة القارحة يدها التى لا تغسل أبداً وتخرج كسرة خبز تناولها للغلام، الغلام يلقي بها إلى الأرض لأنه ليس جوعان بل عطشان، والمسكين مبلل ملتهب الجلد، والمرأة لا وقت لديها لتسقيه، ولا صبر عندها لتنظر فى ثيابه المبللة وجلده المهترى. وتشعر هى بالعطش، فى حارة مجاورة يقف بائع خيار، تمضى مسرعة نحوه لتشرب وتعود إلى موقعها، فهى لا تطيق أن تفقد خمس دقائق من اليوم.. بائع الخيار الطيب يعرفها ويقول لها:

— ياولية، الولد هلك.. ارحميه شوية.

وبكل وقاحة تقول المرأة وهى تكرع من كوز ماء:

— حرام عليه.. الولد هلك! وأنا ما هلكتش..؟ طول النهار شايله على كتفى زى الحجر.

— ده الولد مبلول غرقان ياولية حرام عليك.. غيرى له ثوبه ولباسه، نشفيه.. أنت تجمعين من ورائه الذهب.

— دهب ايه يا حسرة، وهل بقى فى الدنيا محسنون.. والله يا عم عطية ما جمعت إلى الساعة ما اشترى به غذائى.

— طيب هاتى الوالد ياولية، أنا أغسله وأشوف له حاجة ناشفة من عندى ألفه فيها.

– طب بالعجل.. ليس عندي وقت لك أو له.

ويأخذ الرجل الطفل وهو يقول: لا حول ولا قوة إلا بالله يارب.. ده الولد ميت من العطش ياولية.. وهدومه مبلولة تنعصر.

ويرقد الرجل الطفل على جانب من عربة اليد إلى جانب الخيار، ويأمر امرأته بأن تتولى عمل البيع بينما هو ينزع ملابس الطفل، ويغسله بالماء البارد وتناول له امرأته خرقة جافة يجفف الطفل بها، ثم يلفه في خرقة أخرى. وتأخذ المرأة خياراً فتناولها للطفل.. ويقول الرجل:

– لا ياولية.. هذا الطفل صغير لا يأكل الخيار.. روحى هاتى باكو بسكوت من البقال ده.

– بسكوت؟ منين يا حسرة.. وهل أنا وجدت الخبز حتى أطعم (مقصوف الرقبة) هذا بسكوتا؟ لقد دفعت لأمه ثلاثين قرشا إيجارا قبل أن أتسلمه.. ثم تقول لى أن اشترى له بسكوتا؟..

– ياولية وانتى فى جيبك جنيهاات من وراء هذا المسكين.. افرضى أنك أخذته من أمه بخمسة وثلاثين قرشا.

– يفتح الله يا عم عطية.. عاوز تجيب له أنت بسكوت والا حتى بقلادة هات له أنت.. وأنت – عيني عليك باردة – جيبك مليون.

ويأمر الرجل ابنا له يلعب جواره بأن يشتري باكو بسكويت بعشرة قروش، ويكون الطفل قد انتعش من هذه (الإغائة) أو الغوث.. التى تداركه بها الله، وينجلي وجهه جميلاً لطيفاً بعد أن اغتسل وشرب، ويأتى البسكويت فيأكله والمرأة كالشيطان تتلمل، إنها تريد أن تخطف الطفل وتجري به إلى موقف التسول المختار، ولكن الرجل يستمهلها ويأكل الطفل ويضحك، ويتألق وجهه الوسيم وتبدو عيناه السوداوان الجميلتان، ويأتى ابن عم عطية ليلعب معه، المرأة ينفد صبرها. إنها

لا تطيق رؤية السيارات تقف عند إشارة المرور وفيها سادة فى جيوبهم مال، يمكن أن يجودوا منه بشيء، فتخطف الطفل، وتخطف من يد الرجل بقية البسكويت وتدسه فى فمها، وتمضى إلى قارعة الطريق.

والغلام المسكين روعه ما فعلته تلك القاسية فبكى، وسرت المرأة ببكائه فأسرعت فى خطوها لأن بكاء الطفل يعتصر قلوب المحسنين، ومن رصيف لإشارة مرور، ومن إشارة مرور إلى الرصيف الآخر، واليد القذرة تأخذ الخمسات والقروش وتضع فى الجيب الذى لا يمتلئ أبدًا. ويأس الطفل من الرحمة ويدركه التعب فيرتدى رأسه على الكتف وينام، وعلى الدموع تقفل عيونه، والشيطانة تقفز به من ناحية لناعية وتمضى ساعات النهار.

فى آخر نهار مهلك تعود المرأة بالطفل إلى الحارة التى تقطن فيها، قبل أن تأوى إلى دارها تمر ببيت أم الطفل وتلقى بهذا (الشىء).. الذى قضت النهار تحمله على كتفها تقسم بالله إنها ما كسبت به قدر ما دفعت، الأم شقية كثيرة العيال ولها زوج كأنه الضبع التى تعيش على الرمم.. هذه الزوجة فى نظره (رمة) يتشممها آخر الليل ليأخذ منها ما بقى فى جيبها من قروش. إن له منها سبعة أولاد أو ثمانية كلهم يعيشون على قوارع الطرق، بعضهم على أقدامهم، والباقى على أكتاف نسوان كهذه التى كنا معها..

هذه المرأة حاملة الطفل لتتسول به هى فى نفسها ضبع، ولها زوج ضبع مثلها، إنه يلم بها آخر ليلة التعيس ليقضى معها وقتًا تعيسًا ولكنها ترضى به، فقد ماتت فى كيانها الإنسانية من زمن طويل، فى العادة هى تعد لهذا الزوج الشقى الذى يعيش عمره يتشمم الرمم شيئًا من طعام، وهى رغم شقوتها تطعمه وتسعد به لحظات كما تسعد أى ضبع إلى جوار ضبعها، ولكى تزيد سعادتها فهى تتحرى أن تصنع له

طعاماً يرضيه فهي ميسورة الحال وهي لا تعطيه قط كل ما تجمع ولا نصفه ولا رבעه، وهي تعرف كيف تخبئ المال في جحور أو تحت بلاطات أو في مراتب آمنة كأنها البنوك السويسرية.

والأم الشقية بكثرة العيال لا تموت فيها الأمومة أصلاً، إنها تغسل طفلها وتطعمه وتغير ملابسه.. والطفل ينام منهوك القوى لقد شرب وأكل أيسر ما يؤكل ونام كما ينام كل طفل، بينما تكون الضبع الأخرى مع ضبعها فيما تتصور أنه متاع بفضل القروش التي تدفعها له، وهو كذلك يسعد بما يعطيها من لحظات، ولكنه أسعد بما تعطيه من مال، فهو عاطل حرفته استغلال أولاده، وهو بالنهار على المقهى، منظره يذكرك - من بعيد جداً - بأحلاس مقاهى الشانزلزيه والفيافينيتو وشواطئ بحيرة جنيف أو بحيرة ليमान أولئك المياسير الذين ينامون في أفخم الفنادق وينفقون عن سعة، لأن مورد رزقهم مضمون مأمون.. كله من مال المحسنين.

وفي ساعات الفجر يتقلب الطفل المسكين في فراشه على الأرض في البيت المظلم الواقع في شارع أشد ظلاماً، إنه يتقلب ويصحو ويبكى، وتنهض الأم فتسقيه وتغير خرقه البالية بخرق أخرى وتربت عليه لينام، فعن قريب يطلع النهار وتأتى الضبع لتتقدها القروش وتلفع (المسكين) على كتفها، وتمضى به كالشيطانة إلى قارعة الطريق لتقفز به من الرصيف إلى السيارات إلى الرصيف الآخر.



والذى يعنينى فى هذه الصورة الحزينة هو الطفل المسكين. لأن النساء اللائى مررنا بهن أمرهن معروف، فإنهن نسوان قوارح جامدات الأصداغ بلا حياء، وسنتحدث بعد قليل عن حاملة الطفل أو حاملات الأطفال متسولات بهم لأنهن فى حقيقة الأمر سبب مأساة هذا الولد

المسكين، وأذكر أن منظر الطفل آلمنى يوماً بعد يوم. وفى ذات مرة لقيت إحدى النسوة على الرصيف فقلت لها: إذا كان أمر هذا الطفل يشق عليك إلى هذا الحد فما يمنعك أن تعطينى إياه. وأنا أمضى به إلى دار حضانة وأتكفل بنفقاته جميعاً، لأنه ليس من العدالة أن تحمل عبئ امرأة فقيرة مثلك غير قادرة على القيام بشئون نفسها فضلاً عن شئون طفل صغير؟. قالت: أعطيك إياه؟ أنا أمه التى أنجبته كيف أعطيه لرجل غريب؟.

— ستظلين أمه، وسيظل ابنك يا ست، وكل الذى سأفعله هو أننى سأتولى نفقات تربيته تربية صالحة، وهناك دور تقوم بهذه المهمة، فأضعه فى واحدة منها وأقوم بكل نفقاته وأنت تظلين أمه، وتزورينه.

— وماذا أقول لأبيه؟.

— أبوه؟ أما تقولين طول النهار أنه يتيم.

— قصدت زوجى وهو ليس أباه.. لا يا سيدى هذا مستحيل فهذا الغلام ابنى ولا أطيق فراقه.

وسمع الشرطى طرفاً من الحديث فأقبل نحونا وقال:

— يا سعادة البية لا تتعب نفسك. هؤلاء نسوة لا يعلم بحالهن إلا الله سبحانه، وهذا الغلام ليس طفلها ولا هى تعرفه، إنما هى تستأجره لتتسول به.

— لا يعنينى أمر هذه المرأة أو غيرها يا حضرة الباش — شاويش، إنما يعنينى أمر الطفل فإن صحته تسوء ومستقبله يضيع، وما هو مصير هذا المسكين الذى تتبادل الأكتاف والأيدى؟.

— الطفل نفسه ليس مشكلة، إنما المشكلة هى مشكلة أولئك النسوة، ففى الحارة التى أسكن فيها عشرات الغلمان مثل هذا، ولا بأس بهم

ولا خوف على مستقبلهم فهم أطفال فقراء يتربون فى أحضان آبائهم وأمهاتهم ويشبون كما يشب غيرهم، ويتعلمون صنعة وقد يذهبون إلى المدرسة، ولكن مستقبلهم لا يضيع على أى حال، ولكن مصيبة هذا الطفل وأمثاله أن أمه بلا قلب، فهى تفرط فيه وتؤجره لمثل هذه المرأة التى تحاول أنت أن تقنعها بأن تعطيك إياه، وأنت لو تحدثت إلى الغد ما أجابتك إلى ما طلبت لأنها ترتزق منه، إنك تحاربها فى رزقها عندما تحاول إنقاذ هذا الطفل من يديها، وكلما كانت نيتك أحسن هى أكثر عناداً.. والله يا سيدى لو أنك قلت لها إنك ستربيته على نفقتك حتى يدخل الجامعة لصرخت وقالت إنك نصاب خطاف أطفال وشهرت بك وتسببت لك فى فضيحة، لأن رأس مالها هو تعاسة هذا الطفل.. أتصدق بالله؟ هذه المرأة وأمثاله أغنياء من وراء أولئك الأطفال، وعندنا فى حارتنا امرأة أثرت واقتنت العقار من وراء مثل هذا الطفل.. إنها غنية ذات مال، فهى تكسب فى اليوم الواحد من الطفل الواحد ما بين خمسة جنيهات وثمانية وربما عشرة ومع ذلك فما زالت إلى يومنا هذا (تسرح) بالأطفال على قوارع الطرق مرة فى الزمالك وأخرى فى الحسين وثالثة فى السيدة زينب، وفى الليل بعد أن تعيد الطفل إلى أمه أو أهله تعود إلى بيتها وتستحم وتتزوق وتبقى هانم معتبرة وميت ألوجه، حاجة من اتنين يا سعادة البيه: إما أن يظل الطفل المسكين تعيشاً كما ترى، أو تكون المرأة تعيشة فقيرة، وهى غنية موسرة لأنه تعيش غلبان، فإذا انتهت تعاسته فمن أين تعيش هى عيشة الملوك؟ والله يا سعادة البيه، إن لى ولا مؤاخذه ابن عم لا ينجب - بعيداً عنك - وقد حاول كثيراً أن يأخذ طفلاً من أولئك النسوة ليربيه ويتبناه فرفضن جميعاً، بل قالت واحدة منهن له:

- تتبناه وتربيته؟ وأين أهله وذووه؟. أحسبت أن لا أهل له لأنه

فقير؟.

- وماله الفقر؟ عيب؟ وماذا تريد من منه أنت ايتها الغريبة عنه المدعية الوصاية عليه؟ إنه غلام ذكى موهوب. وسيعينني الله على أن أربيه وأعلمه وأدخله الجامعة نعم، الجامعة! ولماذا لا يدخل الجامعة؟ هل الذين يدخلون الجامعة أحسن منه؟.

- دع غلامنا لنا ونحن نربيه وابتعد أنت عنا وإلا خربنا بيتك.

ومضى الشاويش يقول: هذا ما أصاب أخى يا سيدى وكان يريد للطفل أكثر مما أردت أنت، كان يريد أن يتبناه وصبح أباه ويتولى شئونه كلها حتى يشب ويضرب فى الحياة كغيره من الأولاد، فتجئ هذه القارحة وتزعم أنها أمه وأنها هى التى ستربيه ولا ترضى له إلا بالجامعة!.

وكانت المرأة قد هربت بالطفل، وفى طريقى إلى البيت هتف فى نفسى هاتف، هذا الطفل أنا أعرفه.. إننى أعرف مأساته بل لأعيشها فعلاً فهى إلى حد ما مأساتى أنا أيضاً.. وهذا المشهد الذى رواه الشاويش سبق لى أن شهدت مثله.. أين يا ترى؟ وعلى باب بيتى جاء الرد:

المشهد رأيته فى أحد أروقة هيئة الأمم فى نيويورك.. كنت ملحقاً بوفد بلادى فى إحدى دورات هيئة الأمم. وكالعادة كانت قضية فلسطين على الأجندة، وستظل على الأجندة فيما أعتقد زماناً طويلاً. وكنت أتصفح الأوراق فى أحد الأورقة وترامت إلى سمعى أطراف حديث من منضدة مجاورة واستولت هذه الأطراف من الحديث على سمعى، وإذا بواحد من المتحدثين يقول:

- والله يا جماعة إن المشروع الذى تتقدم به الدولة الفلانية لا بأس به، إن قضية فلسطين قد طالت وتعقدت، وكما تعقدت على مراحل فإن حلها لا يكون إلا على مراحل. وخطوة خطوة ومع مرور الزمن قد

تنحل المشاكل واحدة بعد أخرى. وفي يوم من الأيام لابد أن تنحل كلها ويستعيد شعب فلسطين حريته وأرضه ويسير في طريقه.

ورد عليه زميل له في صوت حاد عصبى:

– أولاً وقبل كل شيء قضية فلسطين هذه قضيتنا نحن.. نحن أهلها وأصحابها وممثلوها ولا ممثل لها غيرنا.. وأيا كان الحل المقدم فهو مرفوض لأنه بالذات لم يأت منا، ما هي الحكاية نحن أحياء ويتكلم غيرنا في شأن فلسطين؟.

– ولكنك يا أبا فلان تقول إن فلسطين قضية عربية.

– لا يا أبا علان، أنا لم أقل ذلك ولا يمكن أن أقوله، إن قضية فلسطين قضيتنا نحن بالأمومة والأبوة.. ولكنها قضية عربية بالمعاونة والمساعدة.. من يريد أن يعطى من يريد أن يتكرم فليعطنا نحن، ونحن نتصرف، نحن رجال أشداء وقدها وقود. نحن نعرف القضية ولا أحد غيرنا يعرفها، نحن وحدنا نمثل القضية في الأرض المحتلة وخارج الأرض المحتلة، نحن نشترى السلاح ونتدرب ونضحى ويريد صاحب هذا المشروع أن يحرمانا ثمرات تضحياتنا؟ نحن وحدنا سنصل بفلسطين إلى الاستقلال الكامل، نحن سنحرر الأرض كلها ولهذا فنحن لا نقبل التهاون أو التفريط وكل فكرة لا تأتي منا فهي فى انهزامية استسلامية.. ما شاء الله..

نحن نضحى وهم يفوزون بالتمرا..

ونظرت إلى الجماعة لأرى هذا المعصوب المتحمس أتقرى فى هيئة آثار التضحية التى يتكلم عنها فرأيت شاباً أنيقاً يلبس بدلة من أثمان وأغلى ما عرفت وعليه قميص يقول لك من بعيد إنه تفصيل من صنعه بيير كاردان دون سواه، والحداء جلد كأنه الحرير يتلألأ ويشع ويضىء،

وربطة الرقبة كما يقولون فى الحكايات (خيط لول وخيط زمرد) والشعر جميل مسبب فى صالون الفندق وفى اليد ساعة ديجيتال من ذهب ذى بريق، وفى اليد خاتم له فص كأنه الكوهى نور، وأمامه (شنطة) جلد ليزار وهى السحلية الفرنسية أو السويسرية التى يسمونها سلامندر.

واستحييت من نفسى أنا الذى لا أضحى ولا أتحدث عن بطولة قط، فهذى بدلتى الغلابة التى يرجع عمرها إلى أوائل سنواتى فى مدريد، صنعة ترزى الغلابة فى شارع فوينكارال وقميصى يا حول الله - اشتريته بسبعة دولارات أو ثمانية من متجر صغير فى شارع الفندق ورباط الرقبة قطعة قماش أسود، فقد كان ذلك بعد نكبة ١٩٦٧م ومن يومها إلى نصر أكتوبر لم أنزع الحداد، ثم عدت ألبسه بقدر من الله فى يوليو ١٩٨٠م.

وقالت نفسى لنفسى.

- إن معلوماتك فى حاجة إلى تصحيح، فإن التضحية كما أراها الآن تختلف عما كنت تقول لى وتزعم! انظر وتأمل التضحية ورمزها لتصحيح معلوماتك. إنها هكذا بالضبط كما تراها بعينيك هذا معناها فى قاموس العرب الحديث صنعة الأب المارونى اليسوعى المملوف. مملوف بماذا؟ لا أدرى ولكنه هكذا مملوف! أما المعانى التى تضحك بها على وتقول إنها من لسان العرب لابن منظور أو من تاج العروس للمرتضى الزبيدى فكلام قديم انتهى أمره وفات.

وبينما الحوار يشتد وصاحبنا المسحنفر المستعصب يكاد ينفجر من فرط الحماسة وحرارة التضحية جاء قوم عليهم سيما وجهاء العرب وجلسوا إلى منضدة قريبة ونظرت إليهم فرأيت علائم الأصل والشرف والحسب والنسب، وجلسوا يتحدثون فى أدب وتواضع وصوت

خفيض.. ولمحهم المسحنفر المستعصب فما أسرع ما زال غضبه وانفرجت أساريره ورق وهش وبش ونهض إلى أهل الأدب والحسب والمال والحياء فحياهم بتحية الملوك واستأذن في أن يجلس فأذنوا له ، ومضى يتحدث في ظرف ولياقة ويخرج أوراقاً من حافظته ويدخل أزراقاً وهو لا ينفك بنظر إلى الوجوه الوسيمة التى يتحدث إليها حتى إذا هز رئيسهم أو كبيرهم رأسه بالايجاب وأذن لابتسامة الرضا أن ترتسم على محياه فارتسمت ، انتقلت البسمة إلى الوجه الذى كان منذ حين غاضباً ينفث الشرر، وزاد الرضا فزادت الابتسامة وأصبحت من الأذن إلى الأذن، ولا أدري ماذا قال ولا ما قيل له ، ولكنه عاد بعد قليل إلى أصحابه وقد انصرفت جماعة الحسب والشرف والمال، عاد سعيداً مشرق الوجه وأغلق حافظته من جلد الليزار - وهو بالسويسرية - السلاماندر كما قلت لك - وأخرج منديل العافية ومضى يمسح عرق الجهاد وسمعته يقول لأصحابه :

- لقد تعبنا وسئمنا يا جماعة.. ما رأيكم فى (درك) عند (أولد جيمى) ثم نتعشى فى روف السفن ستارز؟.

ومضوا ونظرت فى ساعتى ، كانت السادسة والنصف ، كانت الجلسة فى قاعة الجمعية العامة قد بدأت من لحظات فمضيت أهروى إليها. وخطرت ببالى وأنا أشد فى خطوى صورة المرأة القارحة الرابضة على ناصية الشارع بالطفل الغلبان على كتفها وهى تقفز كالشيطانة من الرصيف إلى السيارات التى وقفت فى انتظار إشارة المرور الخضراء ، ما أجمل النور الأخضر! إنه يفتح لك الطريق ويبعث ابتسامة الرضا على الوجه الوسيم ذى الحسب والمال. وبأذن لصاحبنا المضحى بأن يتناول (الدرينكس) عند أولد جيمى والعشاء فى روف السفن ستارز.

والشاويش الطيب كان على حق فى كل كلمة قالها.

وعم عطية بائع الخيار الوحيد الذى رحم الطفل وسقاه وأطعمه وبدل له ثيابه ، هذا لن يذكره أحد، إنه مثلى ومثل قواميسى البالية صنعه

ابن منظور ومرتضى الزبيدي كلنا أشياء قديمة باليه واين نحن من المعانى الحديثة التى يتضمنها قاموس المعلوف. معلوف بماذا؟ لا أدري، ولكنه هكذا: معلوف.

والطفل؟ هل يظل هكذا أبداً عليلاً على الكتف؟ هل قضى عليه بأن يكون وسيلة للتسول؟ يبدو ذلك فى رأى هذه الطائفة من المتحمسين المجاهدين عند أولد جيمى والشقق الفاخرة فى جنيف ونيس. وليس هذا هو أسوأ ما ينتظر الغلام لأن من الممكن جداً أن يعتاد المسكين هذه الحياة التعيسة ويصبح أسيرها، يصبح طفلاً ثم إنساناً معوقاً، لأنه من المعروف أن الكثيرين من الأولاد أصبحوا معوقين لأن أهلهم أرادوا لهم ذلك: أسرفوا فى الإساءة إليهم وإهمالهم حتى تعطلت ملكاتهم وتلاشى طموحهم واستمرأوا حياة الضياع، مثل هذا التعويق يحدث لنوع آخر من المعاملة هو الإسراف فى التدليل، عندما يقضى الوالدان للطفل كل حاجة ويلبيان له كل نزوة، أحياناً يستمرئ الطفل ذلك ويكره العمل والواجب والمسئولية. ويشب شليل الذهن والإرادة، يشب معوقاً.

بالفعل هناك دلائل على أن أولئك المجاهدين يرمون بالفعل إلى تحويل الطفل إلى إنسان معوق، لأنهم يصرون دائماً على أن يحملوه على الكتف ويربتون على ظهره قائلين: لا عليك يا بنى نحن سنجيئك بالاستقلال اتبعنا لا تستمع إلى غيرنا، نحن وحدنا المتحدثون باسمك، سنصل بك إلى ما تريد، استمر أنت فى البكاء ونستمر نحن فى الجهاد، والبكاء عندهم هو تلك القنابل التى توضع فلا الأسواق ومحطات الحافلات فلا بعض نواحي الأرض المحتلة يضعها من يضعونها ثم يولون هاربين، وقد تنفجر وقد لا تنفجر، ولكن الإسرائيليين يصلون إلى الفاعل فى كل حين. وبدلاً من أن يهلك كذا إسرائيلياً يهلك أضعافهم من العرب. وفى كل حالة يتردد صوت

المجاهدين من الخارج: نحن نعلن مسئوليتنا عن الحادث الفلاني استمروا أنتم تجاهدون من ناحيتكم ونحن من ناحيتنا، أنتم فى الداخل تعملون فى ظل الخوف والرعب والانتقام الرهيب. ونحن فى الخارج فى باريس ولندن وجنيف وروما ونيويورك.. المهم هو الثبات.. سننتظر ولن نكل أبداً من الجهاد فى لأروقة هيئة الأمم.. لن نكل عن إلقاء الخطب والبيانات لقد انتصرنا بالأمس انتصاراً تاريخياً، أصبح لمكتبنا فى فينا وضع السفارات وأخوكم المجاهد أبو فلان أصبح سفيراً، تصوروا. سفير بكل شارات السفراء، الكاديلاك السوداء والراية ترفرف فى المقدمة، هل بعد هذا نصر! لقد اقتربنا من الهدف سيروا فى طريقكم ونحن فى طريقنا سائرون.

هذا والإسرائيليون بعد أن ضموا الجولان يستعدون الآن للضربة التالية، والمرأة الرهيبة جوئىلا كوهين توسوس فى أذن مناحم بيجين الذى لا تنطفئ فى قلبه جذوة الحق على البشر وإذلال الإنسانية كلها. عقاباً لها على ما يزعم أنها صنعتها بشعب الله المختار.

واللعبة يا سيدى سهلة ومريحة جداً، لعبة حمل الطفل والتسول به، ومادامت المرأة تزعم أنها أم الطفل، تكسب من ورائه ما تشاء، فلماذا لا تحمله أيضاً أخواتها وبنات عمها من المجاهدات. نعم، وفى وقت ما نشأت جماعات الجهاد التى ترفض كل شىء وتحرص على أن يظل الغلام عليلاً على الكتف إلى الأبد، ومادام هناك محسنون يعطون، ومادامت هناك سيارات تقف عند الإشارة الحمراء فهناك عشر نسوان بالملاية اللف يقفزن من سيارة لسيارة وكل منهن تشحذ لحساب الطفل الذى تلقيه على كتفها وركاب السيارات عندهم فلوس وهم يعطون ويعطون، وقام اتفاق (جنتل - من) بين المتسولات، كلهن يتسولن باسم غلام يتيم مسكين واحد، لم يعد أحد يهتم بالنظر فى وجه الغلام، إن

المحسنين ينظرون فقد إلى الأيدي الممتدة أمامهم ويعطون ليستمر الجهاد.

وهل تحسنت حال الطفل شعرة؟ بالعكس هو فى كل يوم أسوأ. وحكومة المحتل الطاغية يسرها أن يكون هذا هو كل الجهاد الذى يواجهها، ولهذا فهى تمضى فى طريقها دون خوف ودون حياء، بالأمس ضمت القدس العربية واليوم ضمت الجولان وغداً سيكون ما هو أسوأ، لأن قناع التذلل والمسكنة قد سقط من على وجه إسرائيل، والحية التى أدفأها الرجل الطيب فى يوم من الأيام رفعت الآن رأسها لتنهشه، وهو يستحق، فقد كان يعلم دائماً أنها حية، ولكنه لم يكن ليكتثر مادامت تنهش غيره: نهشت إنجلترا، وهى الحية التى أدفأت حية أخرى فلقيت جزاءها، ونهشت ألمانيا وفرنسا وكل أوروبا، والآن ذهبت فى الجرأة إلى مداها وما هى ذى رافعة الرأس لتنهش الولايات المتحدة نفسها، الولايات المتحدة تستحق، فإن الحية حية والسم سم، ومادام قد سرى فى أجساد الآخرين فلماذا لا يسرى فى دمها هى الأخرى؟.

وراكب السيارة الأصيل الموسر الحسيب لماذا يعطى؟.

إنه يعطى لأنه رجل طيب محترم وعنده مال وضمير، كانوا يقولون له: ادفع ونحن نجاهد، هات المال ولا تحاسب، ادفع ولك الجنة.

إنه يرضى ضميره ويستريح من مشكلة تثقل على صدره، وما دام للقضية أهلها، وماداموا يقولون له إن هذا كل المطلوب منه فليكن ما يريدون، ولكنه مل هذا الدور مع الزمن.

إنه يرى أن حالة الطفل تسوء وهذا النوع من الجهاد لن يؤتى ثمرة أبداً، وفى ذات مرة عندما امتدت إليه اليد فتح باب السيارة وخرج وقال: هذا الطفل يموت شيئاً فشيئاً بين أيديكن.. هاتوا الطفل أعالجه معكن.

وقالت إحدى القارحات : بكل سرور تفضل وعالجه معنا.. ما هي وصفتك؟.

هذه هي وصفتي.. لقد وضعتها بعد طول تفكير في أمر الطفل وفي أمورنا كلها. الطفل يموت شيئًا فشيئًا ولا بد من إنقاذه..

وقرأت المتسولات الوصفة وقلن : عظيم.. هذه الوصفة هي الترياق، ونحن نؤيدها ونشترك معك فيها.. والموعد في فاس.

واشتورت النسوان فيما بين بعضهن وبعض : ما الذى حدث فى الدنيا السيد المحسن الكبير سيأخذ الطفل منا ليعالجه ، وكيف نعيش إذن. ومن أين لنا المال؟ وعاد إلى ذهني مشهد حديثي مع المرأة عندما عرضت عليها أن تدع لي الغلام أرعاه، وعاد إلى ذهني كذلك حديث الشاويش : المشكلة يا سعادة البيه ليست مشكلة الطفل، إنها مشكلة النسوان، إنك تحاربهن في أرزاقهن عندما تحاول إنقاذ الطفل من أيديهن، وكلما كانت نيتك أحسن كن معك أكثر عنادًا ووقاحة، والله يا سيدى لو أنك قلت لها إنك ستربيته على نفقتك حتى يدخل الجامعة لقلت إنك نصاب خطاف أطفال. ولشهرت بك، وتسببت لك في فضيحة، لأن رأس مالهين هو تعاسة الطفل.

عاد إلى ذهني هذا كله، لأنه هو الذى وقع فى فاس ووقع فى القمة، على سمع الدنيا كلها وبصرها.

ولم تعرف النسوة للرجل الطيب أى توقير.

وكل ما كان تحت الملاية اللف أصبح خارجها.

وعاد الرجل إلى بيته أسفًا.

وعقب ذلك بقليل ولأن الإسرائيلى كان يعرف ما تحت الملاية اللف قبل أن يتكشف جرؤ على محاولة ضم الجولان.. هنا راحت السكرة وجاءت الفكرة.

لقد انكشف الغطاء، عرفت الدنيا كلها أن الطفل العليل الحقيقي ليس هو الذى على أكتاف المتسولات ولكنه فى أسر إسرائيل. وهى تريد هلاكه، لم يعد فى ذلك شك، وعندما قال لها الشرطى الأمريكى الذى طالما حماها. إياك أن تقتلى الغلام. رفعت رأسها لتنهشه.



هل انتهى سوق المتسولات؟ أرجو ذلك لأن الذى يحتاج إليه الطفل هو أن يرتاح كما يرتاح الأطفال. ويعامل بحب ورفق كما ينبغى أن يعامل الأطفال لكى يشب ويكبر ويصبح شاباً ثم رجلاً سوياً.. إنه يحتاج إلى عم عطية بائع الخيار الطيب الذى أخذ الطفل ساعة من نهار فسقاه وغير ملابسه وابتسم فى وجهه واشترى له البسكويت، لو عاملوا كلهم الطفل كما عامله العم عطية لانتهدت مشكلته لأنه طفل سوى ولا مرض فيه، بل هو طفل موهوب، كل ما يحتاج إليه هو أن يعامل بإحسان وأبوة حتى يشتد عوده، حتى يقف على أول طريق الحياة، على أول طريق الاستقلال. وهو وحده بعيداً عن المتسولات - سيعرف كيف يسترد حقوقه كاملة، بذراعه وحدها سيصل إلى ما يريد إذا تركته المتسولات. إذا فارق بلا رجعة الكتف الحجرية التى يموت عليها شيئاً فشيئاً يوماً بعد يوم.. إذا كتب له ذلك وقف على أول طريق النجاة، أتدرى كيف؟.

الطريق واضح وإن كان عسيراً.

لقد خاضته من قبل هذا الطفل أمم كثيرة، ونجحت وسارت فى طريقها، وقليل جداً من أمم الأرض لم تعرف الاحتلال والغصب والعدوان.

وما سيفعله الفلسطينى عندما يدرج على الأرض وحده. ويحمل على كتفه البندقية هو ما فعلته كل الأمم التى ابتليت بالاستعمار ثم تخلصت منه.. والذى فعلته هذه الأمم يقوم على قواعد بسيطة وواضحة..

أولها أنك إذا أردت أن تسترد حريتك فلا بد أن تستردها أنت بنفسك أنت وحدك. قد يساعدك الآخرون، ولكنك ستخوض معركتك بمساعدتهم وبغيرها، أن المعركة معركتك والأرض أرضك. وليس هناك إنسان يموت ليكسب أرض غيره.

من يريد أن يعطى فليعطك أنت، وأنت وحدك الذى ستقاتل، ولن تستعمل أرض غيرك. إن غيرك أضن بوطنه من أن يعرض سلامته من أجلك، كلهم يخدعونك، إذا قالوا لك غير ذلك. لن تخوض معركتك من سوريا أو من لبنان أو من الأردن.. لا أحد يقوم على أحراق داره لكى ينقذ دار الجار، لقد جربها عبد الناصر سنة ١٩٦٧م فاحترق واحترقت داره، إن أرض الله واسعة، وبلادنا كلها صحار، تستطيع أن تتدرب حيث تشاء، تستطيع أن تأخذ من السلاح ما تشاء.

أما من أين ستدخل إسرائيل وكيف ستدخل إسرائيل فهذا شأنك أنت.. إنه سر من أسرارك لا يصح أن يعلمه أحد غيرك، إنك لن تستأذن من سوريا لتدخل أرض المعركة من ناحيتها، لأنها لن تسمح لك بل تستخدمك لصالحها هي، إنها لن تآذن لك قط فى الدخول من أرضها، لا تقع فى الخطأ مرة أخرى، ولا تدع المتسولة تحملك على كتفها لترتق من ورائك.

إن حدود إسرائيل واسعة جداً ولن يصعب عليك الدخول من أى مكان تريد، ومادامت قد دخلت دون أن تستأذن أحداً فإن إسرائيل لن تقتص من أحد، لأنها لن تعلم من أين دخلت، وإذا هي علمت فهي ستعرف أنك دخلت على رغم الجار. وإذا كانت هي قد عجزت عن أن تمنعك من الدخول فكيف تعاقب غيرها لعجزه عن منعك من الخروج.. المهم أن تنقل المعركة إلى داخل إسرائيل.

وسبيل ذلك واضح، وهو أنك دخلت للقتال فهو دخول بلا عودة، إنه دخول للموت.. من العبث أن تدخل لتضرب ثم تهرب، لأنهم

سيتابعونك إلى أى بلد تذهب إليه ، وهناك فلسطينى ضرب وهرب حتى دخل الولايات المتحدة فقبضوا عليه هناك وأخذوه ليعاقبوه.

مادمت اتخذت قرار الجهاد فليكن هو قرار الموت.. ولا تؤمل فى النجاة قط، إذا فكرت فى النجاة فلن تضرب ولن تنجو.

ليدخل منكم إسرائيل عشرة ليموتوا. لو قتل العشرة خمسة إسرائيليين ثم استشهدوا، فإن النصر فى النهاية مضمون، فليست هناك دولة تحتل طويلاً الحرب من الداخل.. أنها سم قاتل: جرام منه يقتل الفيل.. المهم كما قلت لك أن تنقل المعركة كلها إلى داخل إسرائيل، وأن يكون الجهاد جهاد موت، المجاهدون الذين ساروا على طريقة (اضرب واهرب) تبينوا أنهم ليسوا مجاهدين، وقد عاملهم العدو معاملة مجرمين، كل الدنيا تعاملهم معاملة مجرمين، وإنجلترا رفضت أن تعتبر مقاتلى الجيش الأيرلندى مقاتلين ماداموا يضربون ويهربون فإنهم ليسوا مجاهدين، وعندما ضربوا عن الطعام إلى الموت وماتوا فعلاً لم تغير إنجلترا موقفها، وكلنا نعرف حكاية بوبى ساندز وأصحابه.

ذلك هو الطريق الوحيد أيها الأخ الفلسطينى، وكل طريق أخرى لن تؤدي بك إلا إلى مزيد من التعاسة لا تسمح لمتسولة قط بأن تحملك على كتفها لتتسول بك، لا تطالب لأحدًا بأن يعرض بلده للنار من أجلك.. ولا يخدعك كلام فى الأمم المتحدة، ولا مجاهدون يتحدثون باسمك من غرف فنادق الدرجة الأولى.

ومن يريد أن يجاهد لا يتناول الدرينكس عند أولد جيمى أو يتعشى بعد ذلك فى مطعم السفن ستارز.

إن المجاهدين هم الذين يقاتلون داخل الأرض نفسها. خارجها ليس هناك جهاد، هناك تسول، هناك خداع، هناك مزيد من التعاسة، أما الجهاد فلا يكون إلا داخل الأرض.. إنك خارج الأرض فقط حتى تتعلم

كيف تستعمل السلاح، مادام السلاح معك ومادامت تعرف كيف تستعمله فلا ينبغي أن يعلم أحد قط ما تنوى أن تفعله، ستدخل أرض عدوك ستملاً بالرعب قلب عدوك. ستموت برصاص عدوك.

وسيموت بعدك آخرون مثلك وآخرون، وإسرائيل لن تعرف يومها ممن تنتقم، بل لن تعرف من تتهم، ستعرف إسرائيل يومها أنك نذ لها، إنك تستطيع أن تقتلها وستسعى هي يومها لكي تتكلم معك.

ويومها ستقرر أنت وحدك لا أنت وغيرك.. ستقرر في ظلام مخبئك لا في قمة بغداد أو فاس ماذا تفعل.

لن تحتاج بعدها يا بني إلى قمم لأنك أنت ستصبح القمة.. وسل إخوانك الجزائريين الذين قاموا بمعركتهم قبلك، وسلنا نحن فقد خضنا معركتنا مع الإنجليز من قلب بلادنا، يومها يا بني لم نطلب معاونة من العالم العربي.

لأن العالم العربي نفسه لم يكن موجوداً.. أو لو يكن قد وعى أنه موجود.

(٦)

فيران وناس*

فى بحثنا عن أسباب جائحة الفيران اتهمنا كل شىء من نقص المبيدات إلى نقص طمى النيل. ولكننا لم نذكر السبب الرئيسى لأننا لا نجرؤ على مواجهة أنفسنا به وهو القذارة.

فنحن صراحة شعب لا يحس بالنظافة ولا نتأذى بالقذارة، والواحد منا يشتري أفخر السيارات ويوقفها بين أكوام الزبالة ويتهم الآخرين، وفى أكوام القمامة تتربى الفيران، والريف عندنا مقلب زبالة هائل، والناس هناك تعودوا على أن يقاسموا الفيران جحورها، وقد تتحقق مكافحة الفيران بفوسفيد الزنك أو بالراكومين. ولكنها تكون أولاً بالمكنسة وعربة القمامة والماء والصابون. والفيران لا تعيش قط فى مكان نظيف، ولا يحق لنا بحال أن نشكو الفيران لأن البيئة التى أنشأناها بانعدام إحساسنا بالقذارة هى بيئة فيران. ونحن فى الحقيقة نزاحمهم فى رزقهم لأننا ارتضينا لأنفسنا أن نعيش فى البيئة التى لا يعيش فيها إلا الفيران.

كل الذين يمارسون الفن فى إخلاص يعيشون فى وحدة دائمة. إنهم وحدهم مع الناس ووحدهم بعيداً عن الناس يحبون الناس ولكن من بعيد يخدمون الناس وكأن الواحد منهم متبرع يعطى ويتستر تحت اسم «فاعل خير» ومن غرائب أقوال جيته أنه سئل: هل تشعر بالوحدة؟ أجاب: نعم عندما أكون من الناس وكان لودفيج فإن بيتهوفن يقضى بعد الظهر وحده فى مقهى صغير فى قريته وكان الناس يرونه فى ركنه جهم الوجه صامتاً فيحسبون أنه فى حاجة إلى من يؤنسه ويقحمون أنفسهم عليه، فكان يقول: تريدون أن تؤنسونى؟ فابتعدوا عنى إذن..

* نشرت هذه المقالة فى ٥ سبتمبر ١٩٨٢ م.

هكذا آنس بكم أكثر. وكان أبو العلاء المعري أعظم «إنسان» فى تاريخ الحضارة العربية ولكى يحتفظ بإنسانيته صافية فرض على نفسه وحدتين: واحدة داخل الأخرى فلزم كسر بيته وأنس بالظلام. ومن الظلام أخرج النور. وكان المتنبى أشعر من أبى العلاء ولكنه أنفق عبقريته على عتبات حكّام لا يساوى أى واحد منهم بيتاً من شعره، ولكن أبا الطيب أذل شعره وباع فنه بالثمن الرخيص. ولهذا فإن لشعره فى الأذن دويّاً وفى السمع حلاوة ولكن وقعته فى القلب مرير.

ومن بين أدباء الغرب المعاصرين أفضل جون شتاينبك لأنه أنشأ فى وحدته عالماً كاملاً دافق الحيوية. ووحده شق طريقه بالجهد والإخلاص والصمت، وقبع فى قريته «ساليانس» يكتب منها ويراسل الناشرين، وعندما قفز بروايته البديعة: شقة تورينا أو تورينا فلات إلى الصدارة. وتوالت عليه الدعوات والتكريمات. كتب إلى ناشره يقول: إن كنت تقدرنى حقاً فاحمنى من هذا البريق الذى يجعلنى أكره الناس. وأنت تعرف أننى أحب الناس لأننى بعيد عنهم، ومن سطور المضيئة فى روايته «ثم غاب القمر» وقد نقلتها إلى العربية قول امرأة واحد من ضحايا الحرب الذين قتلهم الألمان إننى وحيدة جداً من بعده والوحدة تقتلنى! ويرد عليها العمدة قائلاً: إذن فأنت لم تكونى تحبين زوجك، إذا كنت وحدك فأنت تعيشين معه ومادمت تعيشين معه فهو حى لم يمت.. فلماذا تريدان قتله؟.

ومن روايات شتاينيك البديعة رواية صغيرة لا أزال أعود إليها طلباً للأنس وبين الحين والحين اسمها «عن الفيران والناس» وليس فى الرواية فيران لأن الناس فى أمريكا لا يأذنون للفيران بأن تكون بطلة رواية أو شخصية الموسم لأنهم فى نظر أنفسهم أعظم من الفيران، والفيران لا يعظم شأنها إلا إذا تفوقت على الناس، وأثبتت أنها أقوى وأصلح للبقاء منهم.. هذا هو لباب مأساتنا اليوم مع الفيران، لقد أثبتت

أنها أقوى منا وأصلح للبقاء. وهذه الدنيا ميدان صراع بين الأحياء. والبقاء للأقوى. لأن الله خلق الفأر كما خلق ابن آدم. فأما الفأر فقد نظم حياته وخاض معركته وغلبنا فلماذا نشكو؟ إن ذلك يذكرني بكلمة قالها رجل من بناء الزراعة المصرية في الجيل قبل الماضي وهو محمود باشا شكرى وقد عملت معه شهوراً فى مطلع حياتى. فكنت أراه يركب حملاً من الفجر ومن ورائه ناظر الزراعة والخولية ويقف عند شجرة شجرة فإذا رأى شجرة جوافة أكلت الفيران من ثمرها قال لناظر الزراعة ما هذا يا ناظر التناقلة؟ ويبدأ حضرة الناظر يقسم بالأبالسة مبرئاً نفسه فيقول الباشا: أنت هنا وكل رجالك لتحارب الفيران ودودة القطن وكل الآفات. فكل ما تأكله محسوب عليك: مخصوم منك خمسون قرشاً! وشجرة بعد شجرة يستهلك الخصم راتب الرجل فيقول: وبعدين؟ من أين سأكل أنا وأولادى يا سعادة الباشا؟ ويرد الباشا: من الفيران! لو أنك ناظر زراعة جدع لما أكلت الفيران رزقك، اعرف خلاصك. ماذا أعمل لكم وأنتم تشكون من كل شيء حتى البراغيث تشكون منها مع أننى قلت لكم ألف مرة إن البرغوث لا يعيش فى بيت نظيف؟ ماذا تريدون؟ أن أنظف لكم بيوتكم؟ أن أحمى لكم أولادكم.. أن أغسل لكم ثيابكم؟ كفاية عليكم الشاى والمعسل وأحضان نسوانكم يا ناظر البلاوى. هذه الفيران أنتم تربونها بالكسل والإهمال وهل كان من الممكن أن يعيش فى هذا الغيط فأر إذا كنت أنت ورجالك تدورون على الأشجار والزراعات يوماً بعد يوم كما أفعل!

وقبل أن أنسى أقولك إن رواية «عن الفيران والناس تدور حول إنسانين متناقضين فرضت عليهما ظروف الحياة أن يعيشا معاً وقد أبغض كل منهما الآخر وصار ينظر إليه وكأنه فأر يعيش معه فى البيت والفأر عجيب من هذه الناحية. فهو يعيش معك فى بيتك ويشاركك عيشتك وطعامك ولكنه لا يريد أن ينشئ معك أى علاقة، فلا يكاد

يسمع حسك حتى يختفى فإذا سكت حسك وهدأت حركتك خرج يمارس حياته فهو يعيش معك ومنك وعليك ولكنه يرفضك، لأنه لو قبلك فلا مفر له من أن يسمح لك بالتحكم فى حياته. كما فعلت مع القط والكلب، فالقط أيضاً حيوان طفيلى مثله فى ذلك مثل الفأر ولكنه تعايش معك وأنشأ معك ألفة وصداقة، وهذه الألفة جعلتك تتحكم فيه فأنت تكره القطط الإنساث وتعدمها لأنها تتكاثر، وأنت تفضل القط الذكر لأنه لا ينجب بل أنت قد تعمقه بعملية جراحية حتى يعيش لك وحدك وهذا ثمن التعايش الذى قبله القط، أما الكلب فقد تحكمنا فى حياته حتى صنعنا أصنافاً من الكلاب تطابق مطالبنا فهناك كلاب للسيدات لا تصلح إلا للجلوس على الحجر، ولم يبق لها من خصائص الكلبية إلا الاسم. وهناك كلاب صيد تأتينا بالطائر المصيد دون أن نأكله. وهناك كلاب سباق دربناها على أن تجرى وراء أرنب آلى وهى تعرف أنه ليس بأرنب أصلاً، ولكننا أفسدنا طبعها وتحكمنا فيها بحسب أهوائنا.

هذا كله رفضه الفأر: رفض التعايش معنا والتفاهم مع جنسنا حتى يحتفظ بشخصيته فأراً محترماً، حتى الطعام الذى تضعه فى الأركان لا يأكله لأنه يعلم أننا لا نفعل شيئاً إلا حسب مزاجنا وإذا كان مزاجنا أن نضع فى هذا الطعام سمّاً وضعنا السم لهذا فهو يرفضه أصلاً، ويفضل عليه الطعام الذى يسرقه رغم أنوفنا فهذا قطعاً ليس فيه سم.

والإنسانان اللذان يعيشان معا فى رواية شتاينبك ينظر أحدهما إلى الآخر نظرته إلى الفأر. وأنت لا تعرف من منهما الإنسان ومن منهما الفأر، وهذا بدوره يأذن لنا فى أن ننظر إلى مشكلة الفيران من وجهة نظرها هى، فإن الفأر لا بد أنه يظن أنه هو الأصيل ونحن الطفيليون، وإذا كان الله قد خلق الأرض للأحياء جميعاً فلماذا يريد الإنسان أن ينفرد وحده بالحياة؟ وإذا كانت هناك شجرة جوافة فلماذا يبيع

الإنسان لنفسه أن يأكل منها ويحرم ذلك على الفأر ؟ ولماذا يريد الإنسان أن يعيش أولاده جميعًا ويموت أولاد الفأر جميعًا ؟

وإذا كان الإنسان يريد لها معركة بقاء بينه وبين الفيران فقد قبل الفأر المعركة وخاضها بسلاحه ، وللأفأر سلاحان هما أمضى من كل سلاح ، الأول حيوية عجيبة تتحدى كل صنوف الموت ، ثم قدرة على الإنجاب رهيبه حقًا فإننا إذا أعدمنا ٨٠٪ من فيران هذه السنة فإن العشرين فى المائة الباقية تبذل أقصى جهدها لتكون مائة فى أول السنة القادمة والفأرة الواحدة تستطيع أن تلد فى العام ثمانين فأراً.

وما رأيك فى مخلوق يأخذونه ويصبون فى حلقة سما ثم يلقون به فى التواليت ويشدون السيوفون وتمضى به المياه المتدفقة ، من مأسورة لأنبوب ومن أنبوب لمأسورة مسافة تسعة كيلو مترات ويخرج بعدها الفأر الشرير حطيمًا ، فلا يكاد يستقر على الأرض دقيقة حتى ينتعش وينهض ليلتهم وينهش ويقضم ليعوض ما فات ، وقد غسلت مياه المجارى التى مرّ فيها أمعاءه وكتبت له النجاة من السم.

وهذه هى النقطة التى أريد أن أصل إليها فيما يتعلق بموقفنا نحن المصريين من الحياة، إننا ننسى دائماً أنها معركة بقاء أو موت مع الفيران أو مع الطاعون أو مع إسرائيل أو مع الإنجليز أو الأتراك ، فهى دائماً معركة والفوز للأقوى ، وكل أعدائنا الذين دخلنا معهم فى صراع أخذوا الصراع جدًّا فكسبوا وخسرنا ، ومعركتنا مع إسرائيل لم نأخذها جدًّا إلا مرة واحدة. كان ذلك فى أكتوبر ١٩٧٣م وعندما أخذناها جدًّا انتصرنا ، لقد حطمنا لإسرائيل ٤٠ طائرة منها ١٩ فانتوم فى يومين ، فى ستة أيام حطمنا لها ٤٠٠ دبابة ، يومها زلزلت أقدام إسرائيل وشعرت أن المصريين رجال وليسوا فيرانا ، يومها بكى موسى ديان وركع سفير إسرائيل فى واشنطن تحت قدمى كيسنجر ، وللمرة الأولى شعرت الولايات المتحدة أن هنا على ضفاف النيل أمة صحت بعد نوم

طويل. وكل قوة أمريكا وضعت يومها لكي تقف معنا لأن الدنيا تحب المنتصرين، ووزير خارجية أمريكا هنري كيسنجر طار إلى بلادنا لكي يتفاهم مع الرجال، كان أنور السادات على القيادة إذ ذاك، وتلك تحية.. متواضعة له، والرجل المنتصر يومها كان يعرف أن النصر لا بد أن تعقبه مفاوضات لكي يأخذ المنتصر حقه، وصراع الأمم حرب ومفاوضات.. حرب وسياسة، وإلى ذلك الحين كان العرب يأخذون في صراعهم مع إسرائيل طريقا شاذة لا هي حرب ولا هي سياسة إنها طريقة الهروب من المعارك ومن السياسة معا. كنا نسميها باللاسلم واللاحرب وهي عبارة ليست من لغة البشر. إنها من لغة الفيران لأن الفأر لا يقاتل أبداً إنه يحارب الفناء بالهرب ودخول الجحور والإنجاب، والذين رفضوا الجلوس إلى مائدة المفاوضات وسخروا من محادثات الكيلو ١٠١ وفك الاشتباك الأول والثاني كانوا يتبعون سياسة الفيران، وسياسة الفيران، هي التي قادت إلى مصيدة بيروت، ومصيدة بيروت كانت عاراً على إسرائيل ولكنها كانت ذلاً وعاراً علينا، لقد حيينا الرجال الخارجيين إلى ملاجئ جديدة وكأننا نصلي صلاة جنازة، وبعد رحيل الأسرى أقامت إسرائيل لنفسها نائب ملك على لبنان، ونائب الملك يسمى بشير الجميل. إنه نائب الملك بيجين ونائب الملك ريجان، وما كنا نتحاشاه من سنوات يقع اليوم، لبنان يتحول إلى لبنانيين، والمعركة انتهت على طريقة الفيران، كما تنتهي شيئاً فشيئاً معركة أفغانستان التي أقام عليها جلالة القيصر ليونيد بريجنيف نائب ملك يسمى بابرak كارمل.

لقد تتبعنا أخبار استسلام بيروت والدمع ملء عيني لأن هذا المشهد ليس جديداً على، فقبل ٤٩٠ عاماً وثمانية أشهر أي في الثاني من يناير ١٤٩٢م كان فرناندو وإيزابيلا يحاصران غرناطة لكي يحكما الحصار على المعقل الأخير للمسلمين. ابتنينا مدينة تسمى سنتافي أي العقيدة المقدسة، وفي صباح الثاني من يناير هذا خرج أبو عبد الله آخر

ملوك غرناطة التعساء مستسلمًا وسلم رايته ومفتاح المدينة إلى المنتصرين ،
يومها أكرموا كما تكرم رفات الأموات وقالوا له : تخير المنفى الذى تريد
أيها الملك الصغير ونحن نوصلك . وخرج الرجل وحاشيته منكس الرأس ،
وسار وكأنه نفسه جنازة ، وطريق المنفى إلى مدينة وادى آش ، كان
طويلاً ، ولكنه على أى حال أقصر من الطريق إلى اليمن الجنوبية ، ما من
مرة قرأت خبر تسليم غرناطة إلا سألت نفسى : ماذا جرى للرجال ؟ إن
أبا عبد الله هذا كان آخر رجل تعرفه من سلالة صحابى جليل هو سعد
ابن عباد الذى شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وجاد بمعظم ما له
فى سبيل الإسلام . ما أجمل البداية وما أسوأ النهاية ، والفرق كلمة
واحدة ، فى البداية كان الرجال وفى النهاية كان الفيران . بين البداية
والنهاية تسعة قرون لأن سنة ١٤٩٢م هى سنة ٨٩٧ هجرية ، والرجل
الذى سلم غرناطة لم يطمئن فى منقاه تحت رحمة عدوه ، فكتب إلى
سلطان المغرب أبى عنان خطاباً فى نحو عشرين صفحة يعتذر فيها عما
أضاع ، وخلاصة العشرين صفحة هى : لقد ضيعت غرناطة لأننى فأر
حقير ، فهل تسمحون لفأر حقير بأن يجد جحراً فى بلادكم يموت
فيه ؟ وسمحوا له وأقبل يجلله العار ولكنه لم يشعر بالعار لأن الفيران
لا تعرف العيب . وككل فأر فى التاريخ اصطحب معه تسعاً من جواريه !
ألم أقل لك إن الفأرة تنجب فى السنة إذا أرادت ٨٠ فأراً ؟ أتدرى كم
زوجة كانت للملك فرناندو الكاثوليكي المنتصر ؟ واحدة هى إيزابيلا .
امراة بألف رجل . أتدرى كم طفلاً أنجب فرناندو وإيزابيلا ؟ بنتا واحدة
هى خوانا التى جنت فيما بعد وسميت بخوانا المجنونة ، وخوانا هى
أم واحد من أعظم حكام أوروبا هو الإمبراطور شارل الخامس أو
شرلكان ، وشرلكان أنجب ولدين الملك فيليب الثانى الذى حاول أن
ينتزع البحر المتوسط من أيدي المسلمين . وأخاه غير الشرعى الأمير خوان
يوستريا الذى كسب نصر ليبلانتو سنة ١٥٧١م وانتزع سيادة البحر

المتوسط من الأتراك العثمانيين. هذا هو ما يخرج من صلب الرجال والنساء الذين يصنعون التاريخ. أما أبو عبد الله الصغير ملك غرناطة المنهزم فقد أنجب من نسائه التسع فيرانا بلا نهاية ، وعلى جحور الفيران حبس شيخ أندلسي يسمى ابن عاصم وقرأ تلقين الموتى ، والتلقين كتاب عنوانه «جنة الرضى (بضم الجيم) فيما قدر الله وقضى» والعنوان جميل ، ولكنه تلقين قرىء على قبور فيران لو كانت للفيران قبور، أما العبرة فقد نطق بها شوقي عندما قال يصف مشهد خروج بقايا الأندلسيين.

آخر العهد بالجزيرة كانت

بعد عرك من الزمان وخرس

فتراها تقول: راية جيش

باد بالأمس بين أسر وحبس

ومفاتيحها مقاليد ملك

باعها الوارث المضيع ببخس

خرج القوم فى كتائب صم

عن حفاظ ، كموكب الدفن خرس

ركبوا بالبحار نعشا وكانت

تحت آبائهم هى العرش أمس

سبحان الله! ماذا يصف شوقي؟

غرناطة أم بيروت؟ خروج أبى عبد الله أم خروج الفلسطينيين؟

سيان ، فإن الفيران لا تصنع التاريخ ولا هى تقرأ الشعر. إنها تصنع

فيرانا.

ولكن هل الفيران وحدها هى التى تصنع الفيران؟

لا والله ، إنما الناس أيضاً تصنع الفيران.

وهذه الفيران التى تلتهم مزارعنا نحن الذين صنعناها.

وانظر إلى أى قرية مصرية وقل لى بصراحة : هل الذين يقبلون العيش فيها ناس أو فيران. أنا شخصياً أقول لك إنه لا يوجد إنسان يحترم إنسانيته يرضى بأن ينام فى دار من الطين والبوص والسعف كلها شقوق وجحور وندوب : ولا ينهضن إلى إنسان ويحاول المزايدة والدفاع عن الفلاح ، فما أظن أحداً فى هذا البلد يأسى لحال الفلاح كما آسى ، والمسألة أيها الإخوة ليست بلاغة ألفاظ ولا التماس أعذار ، إنما هى مسألة البحث عن الخط الفاصل بين الفيران والناس ، أهنالك حد أدنى تنتهى عنده الآدمية ، ورجل يقف فى الطابور عند مركز توزيع السجائر فى القرية ليحصل على علبة سجائر سوبر ثم يشربها فى جحر فيران هو حالة نفسية تستدعى العلاج ، لأن الأمر هنا لا يتوقف عند بيت من طين يعيش فيه رجل يتفرج على التليفزيون ويدخن السوبر ويصنع كل عام طفلاً ، بل هى مسألة بلد يتحول كله تحولاً عجيباً من سيئ إلى أسوأ ، كأنه تخطى الحد الفاصل بين الفيران والناس.. ونحن هنا لسنا أمام مشكلة فيران بل أمام مشكلة بلد بأسره. والموضوع لا يهم وزارتى الزراعة والصحة بل هو موضوع وزارتى التربية والتعليم والثقافة أيضاً ، وليست أنا أول من اكتشف هذه الظاهرة وكتب فيها. وقرأ هذه السطور التى كتبها أنيس منصور فى واحد من مواقفه بتاريخ ١٦ أغسطس ١٩٨٢ م :

«وهذا الزحام يجعل الناس أكثر استعداداً للعدوان على الآخرين لأنهم فى حالة دفاع عن النفس وعن الجسم وعن المساحة الصغيرة فى الطريق والطابور والأوتوبيس ، وهذا الشعور يسلب الناس شعورهم بالأمان ، ولذلك يتوجس الناس من الناس ، وتكون العلاقات مجرد حسن جوار ووقف إطلاق النار لا محبة ولا مودة ولا صداقة وإنما زمالة وتعايش معاً تماماً كما يتجاور الناس فى الأسانسير أو تتلاصق السيارات فى الموقف أو تتكدس صناديق الزبالة فى الشوارع أو المتهمون فى

القفص أو الجثث فى المشرحة ، ولأنك لا تنظر عادة إلى وجوه الناس فإنك لا تميز أحداً عن أحد ، فكل واحد ليس إلا حبة عدس فى شوال أو علبة صفيح فى صندوق. كل الناس مثل كل الناس ، وكلهم ليسوا أصدقاء لأنك فى زحام الحركة والمشاعر ، وفى ضباب الهموم وتراب القرف ، لا تستطيع أن تميز بين العناق والخناق. ولا بين الذى يميل إليك والذى يميل عنك ، ولا بين الذى يذهب إليك والذى يذهب عنك ، فوجوه الناس مثل ظهورهم وهى جميعا تستحق الحرق» .

يا إلهى ! هذا وصف ناس فى مدينة أم موكب فيران؟!

هل هذا مقال أو رثاء «بوست مورتم»؟!

إنه فعلاً رثاء أو تلقين على قبر ميت.

وإذا صدق إحساسى ، وكان كلام أنيس منصور تلقينا بعد الموت (بوست مورتم) ، فأليك اليوتوبسيا أى تشريح الجثة. قام به طبيب فى الطب والفكر هو يوسف إدريس. فقد أخرج الجثة من المدرج وشرحها. وإليك جزءاً من التقرير الذى كتبه ، ومن أسف أننى لا أستطيع أن أورد لك على تواليه فهو عندك فى أهرام ٢٢ أغسطس ١٩٨٢م.

«الواقع أبداً لا انفصال بين الحادث فى لبنان والحادث لنا وإذا كان الأطفال يقتلون فى لبنان وكذلك النساء فإن الأطفال فى العالم العربى يرضعون أفكاراً سقيمة أشد فتكاً من القنابل العنقودية ، والنساء فى عالمنا العربى مقتولات روحاً وجسداً وكرامة ، فكما أن الواقع واحد فالمعركة أيضاً واحدة ، وإذا كانت الأقلام كلها فى أنحاء العالم قد أجمعت على استنكار الموقف العربى فهذا الموقف لم يأت من فراغ ، إنه نتيجة محتمة لفراغ العقل العربى وبالتالى انعدام الإرادة العربية ، فالإرادة والفعل والموقف أشياء لا بد أن تنبع عن فكرة وتفكير وإعمال هائل للذهن ، فإذا لم يكن هناك ذهن يعمل وإذا كان العقل قد خوى

إلا من التفكير فى سد الغرائز وضمان المستقبل الفردى ، إذا كانت دائرة الأفكار قد ضاقت حتى لم يعد المواطن فى مصر أو فى غيرها من البلاد العربية يرى إلا ما حوله وأمام أقدامه مباشرة فكيف نطلب منه أن يرى عدوه بله أن يقاتل أو يقاوم عدوه؟.

وفى رأى يوسف إدريس أن هذا التحول المخيف فى شخصية الإنسان العربى يرجع إلى غياب الحرية والديمقراطية من حياة العرب جميعا منذ كانت عصور الاستقلال.

فالديمقراطية تخلق الإنسان الواعى الذى يفكر بنفسه مستقلاً عن غيره ، الذى يرى طريقه ويتجه إليه وفى غياب الديمقراطية تنشأ عقلية القطعان أو نفسية الجماعات (ماس سايكولوجى) وهنا نجد الناس يسيرون فى حياتهم على الصورة الرهيبة التى يصفها أنيس منصور ، ويقول يوسف إدريس: «ونظرة واحدة لفوضى المرور فى شوارع القاهرة تعطيك فكرة واضحة أن جماعة السائقين سواء أكانوا محترفين أم هواة جماعة غوغائية محضة كلها أفعال وردود أفعال صبيانية وأنانية لا تجدها إلا عند الأطفال (أو الفيران؟) إنه أيضاً نوع من سلوك الجماعة الناتج عن فكر جماعى متخلف لا يرتد إلى النظام تماماً كالأطفال إلا برادع قذى عينى أو غرامة أو حبس ، فى حين أن الإنسان الحر الناضج ليس فى حاجة إلى أن يخاف ليتبع القانون إنه يتبع القانون إيماناً منه بحق الناس عليه ، وهذا هو السلوك الناضج الناتج عن فكر ناضج..

أنيس منصور ويوسف إدريس هنا على حق.

وإنه لمن غرائب الظواهر أن التعليم أيام الإنجليز ودنلوب أخرج طلعت حرب والعقاد وطه حسين والمازنى وسلامة موسى وسعد زغلول وتوفيق الحكيم ، والباشا الذى كان يفحص الأشجار والزراعات يوماً بعد يوم ، والتعليم فى عصور الاستقلال فى العالم العربى كله أخرج كتبه

أرشيف لا يحسنون إلا القيد فى السراكى والحفظ فى الملفات والصادر والوارد.. النمل والصراصير والعنكبوت.. كما يقول نجيب محفوظ فى ثرثرة فوق النيل ، والتاريخ الذى أعلمه للطلاب لا يبقى منه فى أدمغة الطلاب إلا ما بقى فى ذاكرة عم أنيس أفندى المسطول الذى أخرج من الدرج محبرة وراح يملأ القلم. عليه أن يعد البيان من جديد. حركة الوارد لا حركة البتة فى الحقيقة. حركة دائرية حول محور جامد ، حركة دائرية تتسلى بالعبث ، حركة دائرية ثمرتها الحتمية الدوار، فى غيبوبة الدهور تختفى جميع الأشياء النminente ، من بين هذه الأشياء الطب والعلم والقانون والأهل المنسيون فى القرية الطيبة والزوجة والإجئة الصغيرة تحت غشاء الأرض وكلمات مشتعلة بالحماسة دفنت تحت ركام الثلج ولم يبق فى الطريق رجل وأغلقت الأبواب والنوافذ وثار الغبار لوقع سنابك الخيل وصاح الممالك صيحات الفرع فى رحلة الرماية كلما عثروا على آدمى فى مرجوش أو الجمالية أقاموا منه هدفًا لتدريبهم ، وتضيع الضحايا وسط هتاف الفرع المجنون.. وهذه سطور رائعة من قلب نجيب محفوظ.

وصورة المسطول هذا الذى دار رأسه من القيد فى دفاتر الصادر والوارد قفزت إلى ذهنى أكثر من مرة وأنا ألقى محاضراتى فى التاريخ ، فأنا أحاول أن أفتح بجهد الموت أذهانا أقفلت تمامًا من أكثر من ثلاثين سنة حتى أصبحت توابيت ، وأنا أشرح للطلاب معنى حركة التاريخ لكى أخرجهم من الخنادق التى تترسوا فيها ، ويرفع طالب إصبعه ويزدهينى الفرع وأقول: أخيرًا فتحت تابوتا ، ويقف الطالب ويقول: يا أستاذ الكلام الذى تقوله هذا سيجىء فيه سؤال؟ وتنهار آمالى كلها ، وأجلس فى تودة.

وانظر.. إننى لا أرى طالبًا بل فأرًا واقفًا فى طابور سجائر السوبر ، وأنا مع الأسف بائع السجائر ، والسيجارة التى أبيعها اسمها ليسانس آداب سوبر ، يضعها الفأر فى منقاره ويمضى يطالب الدولة بوظيفة ،

والدولة لا تعطيه وظيفة إنما إعانة أو بدل تعطل ، ولا يكاد حضرته يطمئن إلى أن اسمه قد تدون في سجل المستحقين في الحق المعلوم الذى قال الله إنه حق للسائل والمحروم ، حتى يطالب بشقة يتفرغ فيها لصنع فيران،

وبعد.. فقد أصبحت حياتنا كلها مواجع.

مواجع تبدأ من ساعة تفتح عينيك فى الصباح إلى ساعة تغلقها فى منتصف الليل ، وقد كنا فى الماضى نستقبل اليوم بشيء جميل يسمى طبق الفول ، ولكن طبق الفول اليوم أصبح طبق حصى وسوس ، وبائع الفول الذى كان فيما مضى إنساناً لطيفاً شجى الصوت أصبح اليوم رأسمالياً يكلف قدرة الفول خمسين قرشاً ويبيعها بخمسة جنيهاً ، وهو يبيع فى اليوم أربع قدور ، وصافى ربحه يا مولانا فى اليوم خمسة عشر جنيهاً على أقل تقدير وهذه ٤٥٠ جنيهاً أى ضعف مرتب الأستاذ الجامعى ، وأكثر من مرتب الوزير. والغريب أن الوزير نفسه مازال يضع بائع الفول فى قائمة الكادحين المطحونين ، وهو نفسه الوزير أقصد - أول المطحونين.

وأنت لا تدري من أى المواجع تشكو؟

مواجع الزبالة التى تتعالى فى الطرقات ، أم مواجع المواصلات التى أصبحت مرضاً متوطناً ، أن مواجع الفيران والناس؛ أم مواجع اللطمة المخزية التى تلقيناها فى لبنان ، أم مواجع العرب الذين حكموا على أنفسهم بالذل والهزيمة والموت قبل أن يحكم عليهم الزمان؟

يأس قاتل يكاد يحطم الرأس والبدن والروح ، وأنا واقف أقاوم ولا أريد أن أستسلم ، لأنه لا يدخل عقلى كيف ندع غرناطة تسقط ونحن العرب والمسلمين ملايين . فتجىء مأساة المجاهدين فى لبنان وأراهم يا ولداه يعاملون معاملة محكوم عليه بالإعدام ، تفضل جلالة

الملك رونالد ريجان فأصدر أمرا بتخفيف الحكم عليه وجعله نفيًا مؤبدًا.. ويمر الجيش الكسير مطوى الرايات فى قناة السويس فى طريقه إلى اليمن الجنوبية ويهتف المساكين: ثورة ثورة حتى النصر!

أى ثورة أيها العزيز وأى نصر؟! ألم تفهم بعد أنك لن ترى هذا النصر بعينيك ، لأن أنصارك وهم نحن نسوا طعم النصر لأنهم لم يذوقوه من أيام سليمان بن عبد الملك؟!

هل هى مواقع سقوط غرناطة أو آلام سقوط بيروت أو ويسلات نائب الملك بشير الجميل وصاحبه بابرak كارمل نائب الإمبراطور بريجنيف أو هى مواقع العرب الذين سيعالجون مأساة لبنان بنفس الطريقة التى عالجوا بها مأساة فلسطين: صلاة الغائب تقام مرة فى الخرطوم ومرة فى فاس؟ دائما يصلون بعيدًا جدًا عن مقبرة الفقيد.

وأخونا أمين عام المؤتمر الإسلامى يهنئ نفسه بأنه عقد مؤتمرًا ناجحًا لإنقاذ أمة الإسلام فى يامينا عاصمة النيجر. وهو يعرف أن أهل جمهورية النيجر كانوا يكونون أسعد بكثير لو أنفق أموال هذا المؤتمر على حفر بئر يشرب منها النيجيريون لأن المساكين يموتون من العطش والجوع! تصرف عقلاء هذا أم أوهام مساطيل؟.. ومعدرة عن إلقاء السؤال فإنما أنا مؤرخ حولنى تاريخ العرب إلى كاتب فى مكتب صحة يقيد الوفيات.

وصفحات دفتر القيد العريضة جعلتنى أخلط كل شىء بكل شىء وأنا معذورا وأحيانًا وأنا أقرأ الجريدة أشعر كأننى أقرأ أن الأمير المملوكى بيبرس الجاشنكير خرج يتمرن على الرماية فى ميدان التحرير، أو أن أبا منصور الحلاج قد بعث من قبره يصيح ما فى الجبة إلا الله! ولبس طيلسانًا وامتطى حصانًا ووضع على رأسه عمامة وزنها قنطار وسمى

نفسه آية الله روح الله ، ومضى يتدرب على أبهة الخلافة على ضفتي الخليج.. أم هي فيران الدقهلية والشرقية قررت أن تصطاف على شاطئ المنتزه في الإسكندرية؟
فيران وناس؟

لا والله إنما هم ناس أصبحوا فيرانا وفيران جاء دورهم ليصبحوا ناسًا ، وحركة التاريخ لا تتوقف ، وإن لم يفهمها تلميذى صاحب سيجارة السوبر في المنقار. أم هم قومي العرب في حاجة إلى رأس جديد؟ لأن رأسهم الذي يحملونه على أكتافهم لم يعد فيه مخ. لقد غسلوا مخهم ألف مرة بعد أيام الراشدين حتى لم يعد هناك مخ على الإطلاق..

والرأى عندي أن يضيف مؤتمر فاس إلى قراراته قرارًا أعتقد أن فيه الشفاء.. التعاقد مع شركات الإلكترونيات في اليابان على صنع مخ عربي جديد يعمل بالكوارتز لأن المخ العربي العتيق قد تحول من ألف سنة هجرية إلى طحالب في فجوات صخور الجماجم في أعماق ليل الزمان ، ومعذرة يا أخى نجيب محفوظ إذا غيرت بعض ألفاظ عبارتك الرهيبة في الثروة فوق النيل. والنيل كان يومًا نهرًا عظيمًا فجعلناه ترعة صرف صحي لأننا فيران. □

لست وحدك فيها أيها العصفور*

الفكرة فى ذهنى من زمن طويل. وكنت أتريث بها حتى تبلغ أوانها من النضج واكتمال المادة فأكتبها على ما أرجو ، ويقرأها القارئ على ما يحب.

أما العنوان فقد قبسته من عبارة لجون شتاينبك أرسلها على لسان والد بطل روايته البديعة «إلى الشرق من عدن» وعدن هنا ليست مدينة اليمن المشهورة ولا هى جنة عدن الواردة فى القرآن الكريم ، وإنما هى قرية صغيرة فى الولايات المتحدة. وإلى شرقها وجد الشاب المغامر الذى تدور عليه الرواية عيون نطف تفجر منها الذهب الأسود عاليًا فى السماء ثم انصب على الأرض مطرًا ، وتحت هذا المطر الأسود وقف الشاب المحتاج يمسح به وجهه وقد استطاره الفرح وجعل يقول: الآن أنا ملك الدنيا! وهى لى جميعا. الأرض أرضى والذهب ذهبى والرجال خدمى والنساء عشيقاتي!

وينظر إليه أبوه الشيخ مشفقاً عليه من هذا الغرور المدمر ، ويقول: - يالك من مسكين.. تحسب أن هذه الدنيا لك وحدك.. لست وحدك فيها أيها العصفور.

أما الذى عجل بكتابتها ، فحادث عادى مما يحدث لى ولك كثيراً فى هذه الأيام، ونحن نروى مثل هذا الحادث للطرافة وتفريج الهموم ، وهى فى الحقيقة تنطوى على تصوير لداء ربما كان من أخطر ما نعانيه والقصة أننى أردت تنجيد كرسيين وبعض الوسائد فقصدت رجلاً من أصحاب هذا الشأن بعد أن اشتريت قماش التنجيد ، وسألته عن أتعابه فجعل ينظر ويقيس ويجيب: ثم قال:

* نشرت هذه المقالة فى ٢٦ سبتمبر ١٩٨٢ م .

- عن الكرسيين وحدهما مائة وخمسون جنيها
وفاجأني هذا التقدير الذى تخطى كل حساباتى ، فقلت له :

- وهذا آخر ما عندك؟

- إى والله ، وهو تقدير راعيت فيه ما بينى وبينك من قديم
المعاملة ، وهو لهذا أيسر ما أستطيع طلبه ، ولا أملك تخفيض شىء
منه .

- ما كانت نيتى قط أن أسألك التخفيف ، لأن الفرق بين ما كان فى
خاطرى وما قلت أنت شاسع ، فلندع الأمر كله الآن حتى يرزقنى الله
ما تطلب أو قريباً منه ، وأخذت قماشى ومضيت..

ودلنى الناس على رجل آخر حسن الصنعة وعلى جانب كبير من
الإحساس الخلقى ، فقام لى بالعمل كله : الكراسى والوسائد على أحسن
هيئة. وتقاضانى عن ذلك كله خمسة وستين جنيها.

وبعد شهر طرق المنجد الأول بابى ، وقال وهو مروع مستاء :

- زوجتى تضع اليوم أو غداً ، وقد حملناها إلى مستشفى صديقك
الدكتور فلان لقرب مستشفاه منا وواسع شهرته فى التوليد.. ولكنه
يطلب قبل أن يدخلها المستشفى ثلاثمائة جنية عن العملية وأيام ثلاثة.
أما فى ذلك؟ أدخلها لتلد فى أمان وتقوم بالسلامة.

- ولكن ثلاثمائة جنية ! تلك كما ترى مغالة ، وقد أتيت أرجوك أن
تكلمه فى التخفيف.

- أما أنا فلن أكلم صاحبى فى التخفيف ، وإذا كنت أنت تطلب
مائة وخمسين جنيها فى كرسيين ، فلماذا تستكثر على الطبيب
ثلاثمائة فى عمل فيه حياة.. وموت؟.. إننى أحسب أنه يغالى فى
التقدير ، ولكنك أنت أيضاً تغالى ، وأنت تتصور أن المغالة حق لك

وحدك ، وقصر عليك. وأنت تنسى أننا كلنا نعيش فى دنيا واحدة ، فكما تغالى على الناس يغالون عليك ، وما تأخذه منى زيادة دون عدل يأخذه منك آخر زيادة دون عدل. والعلة جاءت من أنك تتصور أنك هذه فى الدنيا ، وكلها لك وحدك أيها العصفور.



ومن معانى الحضارة أنها القدرة العقلية على العيش معا ، كما يقول جوردن تشايلد ، فى كتابه المسمى «ماذا حدث فى التاريخ؟» فإن المخلوقات الوحشية مفطورة على الإحساس بأنها تعيش وحدها ، أو أن الكون مخلوق لها وحدها ، ولو ترك كل جنس وشأنه لأهلك البقية ، ولا يمسك الحيوان عن التهام الكون إلا الخوف على حياته هو، ولو تركت الأغنام وحدها لأتت على كل أخضر تجده ، ولكن الذى يمسكها ويمنعها من التمدادى هو الخوف على حياتها من السباع ، وقد أهدانى صديق مرة حملاً صغيراً هو الوداعة نفسها ، فأطلقتها فى حديقة صغيرة كانت عندى ليمرح ويزأط ، وخرجت وعدت آخر النهار فإذا بهذا الحمل الوديع قد قضى على ثلاثة أرباع الحديقة ، وأدهشنى أن يجتمع فى كيان هذا المخلوق الصغير الوداعة الجميلة والشراسة الرهيبة فى الافتراس. واللطيف أنه بعد أن ألحق بى هذا الضرر كله جعل ينظر إلى بعينه البريئتين وفكاه لا تتوقفان عن القضم والمضغ ، فقلت له: لا. وحياتك ما تخذعنى قط نظرتك الوديعه تلك. ولو تركتك على علاتك لأكلتنى على طريقتك ، ولا علاج لك إلا الجزار والفرن. هنا ستكون أنت أجمل وألطف ونعيش نحن عليك يوماً كما افترستنا أنت فى يوم.

وقد كان الإنسان البدائى قبل الدخول فى دور الحركة الحضارية يعيش بفكر صاحبنا المنجد الذى أباح لنفسه أن يستحل مالى دون حق ، ثم استنكر أن يستبيح غيره ماله ، مال الناس له حلال ، أما ماله هو فحرام ، والضمير والدين والإنسانية ينبغى أن توجد عند الآخرين

ليعاملوه بها ، أما هو فيعامل الناس دون ضمير أو دين أو إنسانية ، وقد كان المنجد الذى ذكرته يكلمنى فى وداعة ذكرتنى بالحمل الوديع الذى افترس الحديقة فى يوم ثم جاء ينظر إلى فى وداعة وبراءة ، وقد التمسست عذراً للحمل لأنه خروف. وهذا مستوى فهمه ، ووجدت كذلك علاجاً لوحشيته ، فأكلته بعد أن أكلنى. ولكن ما حيلتى مع هذا المنجد وأشباهه ممن يفترسوننا على مدار اليوم دون إحساس أو مراعاة؟ وقد حدثونى عن رجل انكسر محور سيارته وهو المعروف بعمود الكردان ، فأصلحها ورممه وباع السيارة لرجل آخر وهو يعرف أنه غشه. فباعه سيارة مقصومة الظهر. وشاركه فى ذلك الغش صاحب متجر سيارات ، فأما الذى باع السيارة فله ابن غير صالح يسلبه ماله قسراً ويهينه ويسود عيشته. وأما صاحب متجر السيارات فقد ذهب إلى أوروبا ليعربد ويتسوق فنهبوا ماله واشترى سيارة من إيطاليا وفى الطريق من الإسكندرية إلى القاهرة انكسر عمودها الفقرى ، وهو عمود الكردان. وكلاهما يشكو سوء حاله وما أصابه ، ويتعجب ويتساءل: ماذا فعلت يارب فى دنياى حتى يصيبنى هذا كله؟ والجواب على هذا التساؤل الغريب هو ما قاله جون شتاينبك على لسان الأب يخاطب ابنه :

— يالك من مسكين ، تحسب أن الدنيا كلها لك وحدك ، ولست وحدك فيها أيها العصفور.

وهنا نضع أيدينا على داء من الأدواء التى تجعل حياتنا اليوم جحيما ، وقد أشرت إلى ما وصفه أنيس منصور من تزاحم الناس وتدافعهم ، ودفع الناس بعضهم لبعض فى الطرقات دون إحساس أو مراعاة ، فالواحد منهم يدوس الآخر ولا يبالي ، لأنه يعيش بإحساس أن الدنيا له وحده ، وهو وحده له حق المسير فى الطريق ، والآخرون دخلاء وله الحق أن يدوسهم إذا اعترضوا طريقه. ومن أسابيع وقفنا عند معبر للطريق فى شارع الهرم ، وكنا جماعة نريد أن نعبر إلى الضفة

الأخرى ، والسيارات تنهب الأرض دون مراعاة لأحد ، ونحن ننتظر ونشير بأيدينا ولا أحد يظلم من سرعته ويأذن لنا فى المرور ، كأنه هو وحده الإنسان ونحن لا ناس ، كأن الإنسان منهم إذا أخذ رخصة قيادة سيارة فهى عنده رخصة ليدوس الناس ، وبعد لآى وخوف شديد وقف لنا راكب سيارة وأوقف الآخرين. فعبّرنا ونحن لا نصدق بالسلامة ، وكأننا فى ميدان حرب. ونجونا من رصاص القناصة. وأنظر إلى صاحب السيارة الذى تفضل علينا بذلك فأجده الممثل عمر الحريرى ، وأقول لنفسى :

أخيراً.. رجل متحضراً

أجل: متحضر. لأن الموضوع هنا موضوع حضارة ، لأن الحضارة من معانيها الرئيسية القدرة على العيش معاً فى سلام ، والعيش يختلف عن التعايش. فإن الحيوانات تتعايش على أساس الافتراض ، فهى لا تراعى بعضها بعضاً ، وإنما يخيف بعضها بعضاً ، ويتحامى بعضها بعضاً ، فالسبع أو النمر والغزال تتعايش ، ولكن على أساس الهرب والخداع ، فالنمر لا يترك غزالاً قط إلا إذا كان قد شبع وامتلأ أو قعد به المرض أو أعجزه الغزال بسرعة عدوه والأرنب يعيش فى جحر عميق لا سبيل للسباع إليه وهذا تعايش على أساس الغريزة الوحشية ولكنه ليس عيشاً معاً. ويفرق جوردون تشايلد بين الاثنين.

فالتعايش الغريزى يسمى CO-EXISTENCE معاً على أساس العقل والفهم الحضارى يسمى CO-LIVING . فالأول مجرد وجود أو نجاة من الهلاك SURVIVAL : والبقاء مع الخوف الدائم. وفى وجود كهذا. لا أمن ولا فكر ولا تقدم. والثانى حياة فى ظل العقل والأمن وهنا يكون الفكر والتقدم والحضارة ، هنا يزدهر الفكر وتنمو الفضائل.. وينتقل الإنسان من الوجود إلى الحياة.

وهذا هو الذى انتهيت إليه بعد تفكير طويل فى أحوالنا فليس الذى نحن فيه اليوم حياة بل مجرد وجود أو إفلات من الهلاك أو «سيرفايفل»، فأنت تخرج من بيتك ولا تدري إن كنت تعود ، فإذا كنت راكب سيارة فأنت لا تأمن سيارة أخرى يركبها مخلوق يحسب أنه مادام قد اقتعد مكانه وأمسك بعجلة القيادة فقد أصبح الشارع كله ملكه ، وليس على ظهرها إلا هو وسيارته قاتله الله! فهو يندفع ويلف ويدور ويهشم سيارات الآخرين ، لأن الشارع كله ملكه ، والمرور كله فى خدمته ، وإذا كنت سائرا على قدميك ففرصتك فى النجاة قليلة؛ فالأرصفة استبد بها من دونك أصحاب سيارات أوقفوها عليها ، وبعضهم يسترسل فى البدائية والوحشية ويغضى سيارته على الرصيف بغطاء من قماش. لأن هذا الرصيف ملكه ، ونحن السائرين على أقدامنا لا شيء : هوام أو حشرات أو قطط وكلاب نستطيع أن نمر تحت سيارته ، فليس على ظهرها غيره. وبعد السيارات تجد بائعا قد احتل الرصيف بصناديق فاكهة. ونحن إذا عذرنا هذا البائع لأنه جاهل يطلب رزقه بالطريقة التى تعود عليها.. فأى عذر نلتمسه لرجل المفروض أنه متعلم ويعرف شيئا عن المواطنة والمواطنين؟ وما باله لا يكتفى بوضع سيارته على الرصيف بل يغطيها بقماش حماية لها ، ويرغمنا نحن على الهبوط إلى نهر الشارع والتعرض للخطر؟ إن سيارته عنده أعلى من حياة الناس ، وهذا مستوى فى الإحساس الإنسانى جد ضئيل ، وصاحبه لا يمكن أن يكون متحضرا. إنه حيوان بدائى يتصور أن الدنيا كلها ملكه ولا وجود للآخرين.

ومثل هذا الرجل ألوف وألوف من أولئك الذين يعيشون معنا ويحسبون أنهم مواطنون صالحون ، وماهم بمواطنين بأى حال. وقد تعودنا القول بأن اللص هو من يأخذ مالا ليس له ويدعى أنه له وهو يعلم أنه كاذب. وجريمة السرقة هنا لا تتوقف على قدر المسروق أو

طريقة السرقة ، فسارق الجنيه لص وسارق الألف لص ، والذي يدس يده فى جيبك وينشل حافظة نقودك لص.

والرجل الذى يقتحم دارك لص ، وكذلك الذى يتقاضاك عن سلعة أو خدمة أضعاف ما تستحق ، وقد يزعم بعض المشتغلين بالتجارة أنها تجارة وشطارة وأن التجارة تبيع للتاجر أن يكسب أقصى ما يستطيع. وهذا ليس مجرد خطأ فى فهم معنى التجارة. بل هو سرقة مقصودة. والمقدم عليها لص. وأى فرق والله بين النشال الوضيع والمحتال الرقيق وطبيب موفور الرزق يرفع أتعابه ضعفين وثلاثة. أو يطلب عن عملية جراحية أضعاف ما تسمح به آداب المهنة؟ والمحامى الذى يبذل أقصى وسعه فى الحصول على توكيلك ومقدم الأتعاب. ثم لا ترى منه بعد ذلك إلا تأجيلات وتسويات. وفى كل يوم يكون عنده أربع أو خمس قضايا فى محاكم شتى ، فيحضر واحدة ويكلف زملاءه بالاعتذار له وطلب التأجيل فى الباقيات ، ومدرس يعتمد إرغام التلاميذ بأساليب معروفة على أن يأخذوا عنده دروساً خاصة وينتقل من بيت لبيت كأنه محصل لا معلم. ويطول الأمر لو مضيئنا نستعرض المنحرفين فى شتى المهن.

فهذه الممارسات كلها ممارسات عدوان على أموال الناس وعلى أمن الوطن كله ، وإذا كنت قد صورت لك جرائم أولئك الذين ينطلقون بسياراتهم فى الشوارع غير عابئين بإخوانهم المواطنين الذين يريدون عبور الشوارع ، وأريتك معى أنهم فى الحقيقة سفاحون على عجالات القيادة. فقد آن أن أقول لك هنا إن المسألة ليست مسألة استخفاف أو نزق فحسب ، ولا هى أعمال سطو غير مشروع على أموال الناس وحياتهم فقط.. بل هى دليل على أن المستوى الحضارى العام منخفض جداً ، لأننا فى الحقيقة نعيش بأسلوب البدائيين الهمج الذين لا يعيشون ولكنهم يتعاشون. والحياة عندهم هرب من الاغتيال ونجاة من الهلاك أو «سيرفايفال».. وصدقنى.. إنك عندما تعود إلى بيتك

سليماً بعد انتهاء عملك فتلك مصادفة لأن أى ضعلوك جالس على عجلة قيادة كان من الممكن أن يصدمك ويصيبك بأذى لا حدود له. لولا عناية الله ، وإذا صحوت من نومك بحمد الله معافى أنت وأهلك فتلك أيضاً مصادفة ، لأن شيئاً ما لو طرقتك أو أيا من آلك بالليل ، لا قدر الله ، واحتجت إلى الطبيب المسعف فسيطول شقاؤك ، لأن التليفون لن يسعفك ، ورقم الإسعاف لا يرد ، ولو رد فإنه لن يدركك إلا وقد فات الوقت ، وإذا أتى رجال الإسعاف وحملوا المريض فهو لا يدري فى أى أيد سيقع ، والمفروض أنك تحت مظلة التأمينات. ولكن تلك المظلة سلوك ولا قماش ، وها أنا ذا أكتب لك هذه السطور وأنا مثلك تحت المظلة ، ولكن صدقنى أنه لو وقع لى شىء الآن فلا أنا ولا أهلى تعرف إلى أين نتجه ، والمفروض أن كلا منا ينبغى أن تكون معه بطاقة تأمين صحى على مستشفى أو مركز إسعاف معين قريب من بيته. وفى البطاقة أرقام تليفونات المفروض أنها ترد وتستجيب وتسعف فى الحال. وقد قيل لى إن هذه البطاقات موجودة ، ولكن الذين اعتمدوا عليها ندموا على ذلك أشد الندم.

والمصيبة أن هذه البطاقات موجودة ولا تنفع ، وليس أمامنا جميعاً إلا الحل القديم الذى كان موجوداً قبل المظلة وبعدها. وهو أن تتصل بطبيب صديق إذا كان لك طبيب صديق ، أو يسرع المصاب أو يسرع به آله إلى قسم الطوارئ فى أحد المستشفيات ، وهذه الطريقة موجودة قبل المظلة. وكانت فى الماضى تنفع ولكننى جربتها مع ناس أحبهم ثلاث مرات ، وفى مرتين ضاع منا المريض ، وفى الثالثة أنقذناه فى آخر لحظة «صدفة» والصدفة كانت طبيباً طيباً متحضرًا مجرباً وجدناه هناك «صدفة» فرأف بحالنا فأسعف المريض.

إذن فكيف تكون هناك مستشفيات ومراكز إسعاف وأرقام مدونة على بطاقات ولا نتيجة؟ كيف يكون هناك ناس معينون لإسعاف المرضى فى مئات المستشفيات ولا فائدة والمريض أو المصاب الذى يصل يقضى

الساعة أو أكثر قبل أن يظفر بأى عناية؟ هل هذا خطأ الدولة أو المسئولين عن شئون الصحة؟ لا والله فالحكومة تنشئ المستشفيات وتعين الأطباء والمرضيين وتدفع الرواتب ، ولكن المصيبة فى الناس الذين لا يحسون بإحساس الآخرين قط ، والمريض أو المصاب فى نظرهم رزية أو جثة. رجل غريب ينظرون إليه كما كان البدائى ينظر إلى أى رجل غريب عن قبيلته إنه ليس إنساناً فى نظره بل هو عدو ينبغى التخلص منه ، إنهم يحسون أن الدنيا كلها خلقت لهم وحدهم ، والآخرون ليس لهم وجود.

ومنذ عامين كنت فى طليطة بأسبانيا فى مؤتمر ، وأصيبت ساقى إصابة أليمة ، ونادينا تاكسيا فأخذنا إلى أقرب مستشفى ، وما كدنا نصل حتى لاحظ المرضون أننى لا أستطيع السير ، فأسرعوا بكرسى ذى عجلات ونقلونى عليه ، وخلال ساعة كان الكشف قد تم ، وعملت صور الأشعة ، وكتب العلاج ، كل هذا ولا بطاقة مظلة معى ولا رقم تليفون وإنما هم الناس الذين هناك هم الذين يشعرون أن المريض إنسان مثلهم ، له حق العناية ، وأنهم يتقاضون رواتب ليكونوا هناك دائماً. أما أن تصرف الرواتب وأصحابها إما أنهم غير موجودين فى مواقعهم وإما أنهم موجودون ولكنهم ينظرون إلى أى مريض يؤتى إليهم به وكأنه رزية أو بلية أو تلقيحة ، فلا بد أن يكون هناك شىء ناقص. إذا وجد المرض لم يوجد الطبيب ، وإذا وجد المرض والطبيب فجهاز الأوكسوجين لا غاز فيه والأشعة معطلة وفى كل الحالات فالدواء غير موجود وعلى المريض أو آله أن يسرعوا إلى الصيدليات المناوبة.. وأين هى؟ فى أوروبا تجد على باب كل صيدلية مقفلة قائمة بالصيدليات المناوبة المفتوحة فى ليلتك. كشف داخل برواز مضى وعلامة على أقرب صيدلية ، وأسأل صديقاً صيدلياً فى ذلك فيقول: جربنا ذلك فكان اللصوص يسرقون المصابيح ، والمصباح الصغير هذا ثمنه قروش قليلة ، وأنا شخصياً لم

أسمع بهذه التجربة «ونقابة» الصيادلة لم تضع أى تعليمات دقيقة لتنظيم شئون الصيدليات المناوبة، والإعلام الضرورى بهذا الشأن منعدم، وبعد نشرة الأخبار فى أى بلد متحضر يقرءون عليك فى التليفزيون قائمة بالصيدليات المناوبة فى كل حى، وخاصة فى المدن الكبرى، والناس يصغون إلى هذا البيان وفى يدهم المفكرة والقلم، ليدون كل منهم الصيدليات المناوبة فى حيه، ويكفى فى هذه الحالة أن يعطوك صيدليتين فى كل حى، لأن الصيدلية تدلك على الطبيب إذا احتجت إلى الطبيب، أما عندنا فانك تسمع بعد النشرة أغنية تقول لك: إنك تنتسب إلى سبعة آلاف سنة من الحضارة، وتتلقت حولك وتبحث فى جيوبك وتنظر من النافذة وتسال أين؟ أين هى تلك الآلاف السبعة؟ كان يكفى والله سنة واحدة! كان يكفى أن نكون فى سنة أولى حضارة على أن تكون سنة أولى وحضارة حقاً.

لابد أنك رأيت بعض أفلام رعاة البقر.

ولابد أنك رأيت مرة فى هذه الأفلام قطعاً من البقر أو البقر الوحشى المسمى بالبيزون، وقد ذعر وانطلقت ألوفه فى حالة ذعر أو فزع أو «يانيك» حيوانى يسمى «بالاستامبيد» هنا ترى ألوف البقر تنطلق مروعة يدوس بعضها بعضاً، وتدوس كل ما يعترض طريقها. فهذا هو ما تراه حولك: استامبيد! والناس يخطفون من حولك، ويدوسونك إذا اعترضت طريقهم أو لم تنتبه لنفسك، وانظر إلى الشارع المصرى وقل لى إن لم تكن بالفعل فى حالة اليانيك هذه. فالسيارات تدوسك قطعاً إذا لم تكن فى يقظة الفأر، وإننا لنرى من فظائع ما يحدث مالا يكاد يصدق، وفى الإسكندرية على الكورنيش تبينت أن عبور الشارع مخاطرة بالنفس، وكادت السيارات تصيبنى بشر عظيم ذات مرة، فأقصرت عن العبور. وحرمت على نفسى متعة المشى على شاطئ البحر، ولأجلها أتيت! ولدة عشرة أيام لم أجازف بعبور الشارع مرة

واحدة ، وبين رجل مرور ورجل مرور مسافة ميلين أو أكثر ، وأصحاب السيارات كأنهم أعلنوا الحرب على المشاة. لا هودة ولا رحمة كأنهم غزاة دخلوا بلدا وألغوا قوانينه وأعلنوا حالة طوارئ وهم أعلنوها فعلاً ، وأى سائر فى الطريق يعتبر نفسه فى حالة طوارئ.

وما يحدث لك فى الطريق يحدث لك فى غير الطريق فـ، صور شتى، وأنت دائماً فى حالة «يانيك» ودفاع عن النفس ونجاتك مصادفة ! وهل هناك أبسط من عملية شراء شىء من الفاكهة؟ ولكنك لا تكاد تقترب من الفاكهى حتى يشرع فى عملية اغتيال مالك ، فالسعر الذى يقوله لك مضاعف ، وأنت وحظك ، فإذا كسبت منه معركة السعر اغتالك فى النوع : قطعتان على الوجه والباقي ستلقيه فى الزبالة ، فإذا كسبت معركة النوع اغتالك فى الوزن ! فمالك ضائع ضائع ، وهذا الذى يبيعك الشىء عدو يتحفر ليغتال مالك. وأى عامل تطلب إليه خدمة فهو يفرض عليك أجرا وكأنه يشهر فى وجهك مسدساً ويقول لك كما يقولون فى الألمانية : مالك أو دمك. وقد تعودت أن أكشف على نظرى عند طبيب أعرفه كشفاً روتينياً مرتين فى العام ، لكى أقيس المسافة بينى وبين الظلام ، وكنت أدفع فى هذا الكشف جنيهاً عشرة إلى العام الماضى ، وهذا العام أعطيت شيخ الخفر ، ولا أقول الممرض فهو فى الحقيقة شيخ خفر ، الجنيهاً العشرة.. فقال : عشرة أخرى ، أصبح الكشف عشرين ، ففكرت قليلاً ثم أخذت منه الورقة المالية وقلت : لا لزوم مادمت أفرق بين الورقة ذات العشرة والورقة ذات العشرين ، فحالة النظر هى هى والحمد لله ، وصاحبى الطبيب لن يقول لى إلا هذا على أى حال وهبطت السلم وأنا أغبط نفسى على أننى كسبت عشرين جنيهاً !

ومن المسئول عن ذلك؟

الحكومة؟

وهل الحكومة إلا نحن؟ ومن يكون الجالسون فى مكاتب الدولة إلا نحن أو أبناء عمومتنا؟.. فالعيب فيهم كما هو فينا. ومن شهور شب حريق فى بيت جار صديق بعد منتصف الليل ، وبعد محاولات لاستدعاء المطافئ بالتليفون ، رد رجل يقول: المطافئ لا تستدعى إلا من مراكز البوليس ويسرع ابن الرجل بملابس البيت ميلين إلى نقطة البوليس ، فيجد الضابط يتحدث ويتضحك بالتليفون ، ثم استأذن من صديقه ، وقال للشباب:

- فيه حاجة يا حضرة؟

- أجل ، فى بيتنا حريق . وأرجو استدعاء المطافئ.

- البطاقة؟

- سيدى لقد أتيت إلى هنا عدواً والنار فى بيتى.. أرجوك وأنا فلان..

- البطاقة أولاً

وأسرع الشاب عائداً إلى بيته ، بينما رفع الضابط سماعة التليفون وعاد إلى الضحك وهو يقول:

- بقى هيه الحكاية كده يا حمادة؟

وعندما عاد الشاب ، وجد أن النار قد التهمت نصف البيت ، وذكر الأب أن لديه رقم ابنة أحد كبار المسئولين فهى صديقة ابنته ، فاستغاث بها فجاءه الفرج.

والرجل موجود يستطيع أن يؤكد الواقعة.

ولكننا أمام حالة فريدة لناس يعيشون كأنهم عصافير أو غربان ، كل منهم يحس كأنه وحده على ظهر هذه الأرض ، أو كأن الله خلقها له وحده ، والناس من حوله غرماؤه فهو يغتالهم على قدر ما يستطيع ،

وهم أيضًا يعاملونه بالمثل ، ولو استطاع الواحد منهم أن يمحى الآخرين ليعيش وحده لفعل.

مبالغة؟ لا والله! إنه الواقع ولا زيادة ، وبالأمر سمعنا ثلاثة أو أربعة من المسئولين عن مياه الشرب يقولون: إن الطحالب فى الماء دليل على جودته وصلاحيته للشرب ، وأنا واثق أننى لو قدمت لكل واحد من هؤلاء السادة كوب ماء بالطحالب وقلت له: أشرب ماء صحيا بالطحالب.

أتظن أنه يشربها؟ لا والله! إنه يرضاها لنا ، ولا لنفسه ، فنحن شيء وهو شيء. نحن لا ناس وهو ناس ، وقد خلق الله الدنيا كلها بما عليها ومن عليها لهذا العصفور ، فليس على ظهرها غيره.

وهل هذا المستوى الحضارى المتدنئ جديد علينا؟ أقصد هل كنا بالأمر أحسن مما نحن عليه اليوم؟

فى الظاهر فقط ، أما فى الباطن والحقيقة فقد كنا دائماً هكذا.

أما ما يبدو من أنه كان هناك - من ثلاثين سنة مثلاً - نظام أحسن وخلق أسمى وأخلاقيات أعلى ، فالسبب فى ذلك أننا كنا أقل عدداً ، وكانت المرافق جديدة ، فلم يكن التزاحم بهذا العنف ولم تكن المرافق قد بليت ولا كانت مكاتب الحكومة قد اتسخت وهبط حالها إلى المستوى المخيف الذى هى عليه اليوم.

وكانت قد عبرت بنا موجة - قصيرة الأمد مع الأسف - من الحضارة الأوروبية فتأثرنا بها حيناً ثم عدنا إلى ما كنا عليه.

عدنا إلى حضارة المجتمع العربى من القرن الرابع الهجرى/العاشر الميلادى وما بعده ، وهى حضارة تدهور واضطراب وظلم.

وفى ظل هذه الحضارة لا يكون للإنسان هم إلا النجاة بنفسه وعياله ،
وفى ظل تلك الحضارة المتردية سادت الأنانية ، وكل إنسان كان
يتصرف على أنه عصفور - أو غراب - وحيد فى تلك الدنيا ، وكل ما
فيها له وحده ولا وجود للآخرين..

أما حضارة التعاون ، حضارة العيش معاً ، فلم نسعد بها إلا فترة
قصيرة جداً.. وتلك حكاية أخرى تحتاج منا إلى حديث يعيننا الله عليه
إن شاء الله. □

(٨)

أنفقت مالى وحجّ الجمل*

عادت قوافل الحجاج إلى قواعدها سالمة والحجاج عادوا من رحلة التقى، والصالح أبرارًا كما ولدتهم أمهاتهم. لكى يبدؤوا عامًا جديدًا من أعمارهم المجيدة يخوضون خلاله فى متهات الحياة إلى الرقاب. ويكونون فى نهايته سودًا كالهباب كما تريد شياطينهم.

وعلى ألوف البيوت فى طول البلاد وعرضها أقيمت الزينات على بيوت الحجاج السعداء، وتألقت حبال من المصابيح المختلفة الألوان تعلن أن هنا واحدًا من السعداء الذين حجوا وزاروا ولبوا وسعوا ووقفوا بعرفات وأفاضوا من منى وغفر الله سبحانه لهم كل ذنب تقدم وقلدتهم الملائكة الأطهار أوسمة من نور.

وأمام العمارة الصاعدة إلى عنان السماء التى شادها الحاج حسنين عبد الدايم عنبه - عنبه واحدة - على أرض استولى عليها بوضع اليد وبناها دورًا دورًا بحجارة من جهنم. جلس الحاج الذى زار سبع مرات واعتمر سبع مرات وأسبل عينيه يستمع إلى آيات الذكر الحكيم فى سرادق عظيم أقامه بماله كله منهوب وأضاءه بألف مصباح وأخذ التيار لها من جامع سيدى المحبوب، لأن الحاج عنبه لا تقف جرأته عند مال النبى. بل هو أيضًا يأكل مال الله، ولا ضير عليه فى ذلك فإنه يقول: أن الله سبحانه يغفر كل الذنوب.

وترك الحاج التقى الصالح آيات الذكر الحكيم تتضوع كالمسك فى جو السرادق، وجلس على أريكة عالية حليق اللحية مصبوغ الشعر كأنه عريس وسبح مع أحلام مئات الألوف التى سيجمعها هذا العام. فقد

* نشرت هذه المقالة فى ٢٤ أكتوبر ١٩٨٢ م.

عقد بعد أن أفاض من منى وحل الإحرام عقداً مع حاج من أمثاله من أبناء الملايو يسمى عبد الستار فونج تونج ومركز أعماله في هونج كونج، باستيراد بضع مئات الأطنان من أحقر أصناف الشاي، وتسلم من الحاج فونج تونج بعد أن دفع العربون صندوقاً مليئاً ببطاقات مستديرة مطبوعة بالذهب آنق طبع وأجمله تقول:

إن هذا الشاي هو القطفة الأولى من الأيرل حراى أغلى شاي فى الدنيا، وقد رصها الحاج فى الصندوق رصاً وغطاها بسجاجيد صلاة ومسابع ولفائف من المسك والعود، فرقها على رجال الجمارك وهو عائد إلى الوطن العزيز، ومر من الجمرات دون تفتيش، وتراب الشاي يعبأ الآن فى دهايز دكانه فى أكياس من البلاستيك وتثبت فى كل كيس منها بطاقة مذهبة لتباع بعد ذلك على عباد الله التعساء فى صناديق جميلة تقول بلغة إنجليزية سليمة إنها واردة من سيلان من صنع س. م. بلاك وت. ر. هوايت الموردين الخاصين لبلاط جلالة الملكة التى غربت شمسها فى كل مكان.

وأشرق فى سرادق مقصوف الرقبة. الحاج حسنين عبد الدايم عنبة. ومحلاته من مشهد الإمام الحسين إلى العتبة. وعين الحسود فيها ألف حصوة وحنة.

وفى شارع قريب من الشارع الذى يقيم فيه الحاج عنبة أنواره تالأت أنوار أخرى أوقدها زميله فى التقى والورع الحاج محمد بن عوضين المجذوب فقد عاد هو الآخر من الأراضى الحجازية بعد أن أكرمه الله بالحج والزيارة سبع مرات وبالعمره سبع عشرة مرة.

جلس هو الآخر فى صوان أقامه عند عماراته التى شادها بالمال الحرام فى شارع الحجاز. جلس غارقاً فى أنوار الكهرباء وترقرقت آى الذكر الحكيم فى الأذان جميعاً إلا أذنه فقد كان مشغول بقضاياها التى

لا تنتهى لأن كل ساكن من سكان عماراته تلك قد رفع عليه قضية، ولو أحسنت الحكومة لخصصت له دائرة قضائية تشمل كل درجات المحاكم من الجزئى والابتدائى إلى النقض والإبرام لأن مال صاحبنا كله حرام فى حرام، والشقة التى قيل ساعة الاتفاق إنها مائتا متر أصبحت مائة وخمسة عند الاستلام ومن يرفض الاستلام فهذه فلوسه يستطيع أن يستردها على داير سليم ولا ضير على الحاج فى ذلك. فقد بنى عمارته بمال الناس. وهناك مئات مستعدون لدفع ما يطلب والحاج الذكى لم يكتب إيصالاً أو ورقة بمقدم أو عربون وكله كلام فى كلام.

وهذا العام يدخل أخونا الحاج المجذوب ميدان الموبيليا والأثاث وقد اتفق مع الحاج تركى يسمى الحاج ترمان بدر الدين جساويد يحج سنة ويغزو أخرى كما كان يفعل هارون الرشيد، اتفق معه على إنشاء شركة أثاث حديث تسمى شركة مجذوب - كو. كل ما فيها مصنوع من خشب الجوز إذا شئت أو البوا - دى - روز، من تصميمات المصمم الإيطالى اليصاند - ينو نصابينى وستشترىها العرائس لأنها جميلة براقه.

وستتبين كل عروس بعد التبات والنبات، أن ما بها ليس بخشب الجوز ولا بخشب على الإطلاق. وسترفع القضايا وتدور ألف خناقة، ولكن ذلك كله لا يهم الحاج المجذوب. وفيما تضيره مائتا قضية جديدة إذا كانت لديه ألف! والمهم أن الأموال تنصب فى جيب صاحبنا بغير حساب، ويبتنى عمارات جديدة، وعلى باب كل عمارة حاجب وبواب. وفى آخر العام سيحج صاحبنا ويغسل آثامه جميعا ويعود إلى أرض الكنانة طاهراً كما ولدته أمه.

والحج فيما قالوا له زيارة وتجارة.

والتجارة عنده ضحك على الناس وشطارة.

وغاب عن باله يا ألف خسارة.

أن هناك نارا وقودها الناس والحجارة.

وأرجو ألا يقع فى ذهنك وأنت ترى زيوف الحجاج هؤلاء، أن معظم الحجاج من هذا الطراز، فإن الغالبية العظمى من ضيوف الرحمن مسلمون مخلصون يخرجون للحج فى يسرة أو عسرة وقلوبهم معلقة بالكعبة وربها، وأمنيته العظمى فى الحياة هى أن يصل الواحد منهم إلى بيت الله ويحج ويقيم ما شاء الله له أن يقيم ثم يعود. والألوف منهم يخرجون من ديارهم لا يملكون إلا قوت شهر أو شهرين والكثيرون منهم يخرجون من بلادهم فى السنغال أو موريتانيا والنيجر ونيجيريا عند سوكونو أو كانوا أو من بلاد الجوكون، فيما يعرف اليوم بالجابون، ويسيرون جماعات ترتزق على الطريق ومنهم من يحمل على ظهره زكينة من التمر الجاف أو الشعير وما تيسر له من الجلود وهو يبيع ويشترى على الطريق، والرحلة طويلة شاقة ولكن الأمل فى زيارة بيت الله يشد عزيمتهم ويقوى قلوبهم، وغالبيتهم يختارون طريق السودان النيلية، لأنهم يجدون هناك ناسًا طيبين فى حاجة إليهم. لأن الأرض واسعة، والناس فى بعض نواحي السودان لا صبر لهم على الزراعة فيكترون من تيسر لهم من أولئك الناس يعملون لهم فى الأرض فى مقابل نسبة من المحصول ويعمل الرجل منهم فى الأرض سنتين أو ثلاثا حتى يدخر ما يمكن له من مواصلة الرحلة وأولئك هم (الفلاتة) الذين يقومون أيضًا بنشر الإسلام على طول الطريق وهم ناس فى غاية الأمانة والشرف. ينزلون حيث يشاء الله لهم أن ينزلوا فيخدمون ويعطون أضعاف ما يأخذون، والفلاحون يأتمنونهم على أموالهم ونسائهم لأنهم أهل أمانة وفضل، فإذا اجتمع للواحد منهم من فضل عمله ما يمكنه من مواصلة الرحلة مضى، وقبل أن تستولى الحبشة على بلاد أريتريا كان حجاج أفريقيا يعبرون إلى الحجاز من موانئ زيلع ومصوع وما جاورهما ويصلون إلى بلاد اليمن أو عسير، وهناك يعودون إلى الزرع والحصاد،

وشمال اليمن وعسير فى نواحي غامد وأبها وما جاورها من أخصب بلاد الله، فكان أولئك الناس يكسبون هناك مالاً طيباً حلال، ثم يصعدون إلى أرض الحجاز فيحجون ويعتمرون، وكان مياسير الحجاج ينفقون الألوف على أولئك الناس، سواء فى الإقامة أو العودة ولم تكن أرض الحجاز فيما مضى أرض معاش واسع كما هى اليوم فكان معظم الحجاج الأفارقة يعودون كما أتوا فإذا عاد الواحد منهم إلى وطنه حاملاً لقب الحاج لم يعد يعنيه بعد ذلك من الحياة إلا أن يربى أولاده ثم يموت فقيراً قرير العين، فقد أكرمه الله بأعلى ما فى الدنيا فى إحساسه، وهو زيارة بلده الحرام والطواف حول الكعبة وإقامة شعائر الحج المبرور والوقوف بشباك المصطفى (كامل البهاء والنور) ومثل هذه الرحلة الشاقة كان يتجشمها الألوف بعد الألوف من أهل الملايو وجاوة وسومطرة وبلاد البنغال وبقية الهند وأفغانستان وما إلى شمالها من البلاد الواقعة اليوم فى أسر الروس والشيوعية. والله سبحانه يكتب لهم الخروج من سجن الكافرين والعودة إلى عالم الإيمان، ومعظم هؤلاء كانوا يحجون بطريق البحر، إما على نفقة أهل الخير والصالح وما أكثرهم، وإما عاملين فى السفن وقادين وخداما وحمالين.

وقد قرأت من سنوات كتاباً هو قطعة من الإيمان، عنوانه طريق مجرة إلى السماء.. كتبه شاب طبيب يعمل فى ولاية أيوا الأمريكية، واسمه سيف الدين شوهان، مال وحكايته كما يحكيها كما يحكيها فى كتابه أعجب من الخيال، فإن والده واسمه علاء الدين شوهان كان من حجاج الملايو من إمارة البتك. وفى سنة ١٩٣٣م قرر الوالد أن يحج بامرأته، إذ أتيحت له فرصة السفر إلى جدة خادماً على إحدى السفن الإنجليزية وتيسرت لامرأته فرصة العمل على نفس السفينة. ووصل الاثنان إلى الأرض المباركة فحجا وجاوراً. ثم انقطعت بهما السبيل، فقد كان الموسم ممحلاً والحجاج الموسرون قليلين، وبعد الحج أقام الرجل وامرأته فى

الحوارى المحيطة بالحرم يبيعان ما يتيسر لهما من خبز وبيض ومتاع رخيص، أو يتسولان، ونزلت بالبلاد نازلة وباء احتملت الوالد علاء الدين شوهان. فمضى مخلفا امرأته حاملاً وجاء الموسم، ووفد الحجاج، وأنجبت الأم ابنها سيف الدين فى موسم خصب وخير وبركة.

ويشاء ربك أن يحج فى ذلك العام (١٩٣٥م) حاج من مياسير أهل البتك، يسمى تاج الدين - رضا - مال، على سفينة تجارية يملكها، وأوسع الله عليه فكسب فى سفرته تلك مالاً كثيراً، وكان ذات مرة يتسوق حول الحرك فراعته كثرة المتقطعين من أهل بلاده، فآلى على نفسه أن يعيد منهم من يريد إلى وطنه.

وكانت أم سيف الدين منهم، فعملت خادمة سفينة العودة ووصلت إلى بلاده مع وحيدها، وهناك عملت فى أرض الحاج تاج الدين، وكان ذلك الرجل الطيب قد افتتح فى أرضه مدارس إسلامية للصغار فدرس فيها سيف الدين ثم ظهرت منه نجابة، فاتفق الرجل عليه من ماله مع مئات من أمثاله ووصل الشاب إلى مدرسة الطب فى كوالا لامبور، وكانت إذ ذاك عاصمة مستعمرة بريطانية وتخرج فى المدرسة وعمل فى مستشفياتها، وهناك لقيه طبيب أمريكي من ولاية أيوا كان يدرس هناك طب المناطق الحارة فأعجب به وتوسط له فى بعثة إلى جامعة الولاية فى ضواحي بلدة ديموين فلما وصل إلى هناك وعرفه الناس أحبه وعينوه معيداً فى كلية الطب وكان اسمه قد أصبح سيف الدين شوهان مال (مال) كان لقب التاجر الموسر الذى أعاده مع أمه من الحجاز إلى الملايو، وكان الرجل قد أعطى اسمه لكل من شاء من الأولاد والبنات الذين عادوا إلى البلاد على نفقته.

وقد أصبح سيف الدين مال من كبار أساتذة الطب فى جامعة الولاية، فكثر ماله وتزوج من أمريكية أسلمت لأول يوم تعرفت به، وأخذت اسم مريم وهو اسم أمه وجعلت تلح عليه فى العودة إلى بلاده مع أولادهما، فما كادت الحرب العالمية الثانية تنتهى، ويسرح الرجل

من الخدمة العسكرية، حتى عاد بماله إلى ولاية البتك، وهناك عاش وعمل وكتب حكايته في كتابه هذا الذى أشرت إليه.

وإذا كانت الصلاة قرّة عين كل مسلم. فإن الحج أمله ومناط حبه، وعلى مدار التاريخ ظلت مواكب الحج من أطراف المعمورة تفد على الأرض المباركة. ويتجشم أصحابها من عناء الرحلة وشظف الحج والقيام بمناسكه ما تجده مفصلاً فى كتب الرحلات، ولكن يشاء ربك أن الحاج مهما عانى من الوصب فى رحلته فلا تكاد عينه تقع على الكعبة حتى يشرق قلبه بالنور، وينسى مضانك الرحلة ومتاعبها. ويفيض قلبه بحسب الله ورسوله، ويلهج لسانه بالحمد شاكراً ثم ملبياً.

ويعصور لنا ذلك الإحساس الدينى الدافق. الرحالة المشهور محمد بن أحمد بن جبير الكنانى الغرناطى صاحب كتاب الرحلة الجبيرية الذى يعتبر أجمل كتب أوصاف الرحلات فى أدبنا الجغرافى. لقد قام هذا الرجل بثلاث رحلات للحج من موطنه غرناطة إلى الأراضى المقدسة. وقد ولد فى غرناطة سنة ٥٤٠هـ - ١١٤٥م. وتوفى فى الاسكندرية عائداً من رحلته الثالثة سنة ٦١٦هـ أو ٦١٧هـ - ١٢١٩م، أو ١٢٢٠م وهو معاصر لصلاح الدين. وقد قام برحلته الأولى للحج عندما كانت القدس فى أيدي الصليبيين. ووصف رحلته وصفاً بديعاً. فلما بلغه أن صلاح الدين قد استعاد القدس أسرع يحج مرة أخرى، ثم رحل للحج رحلته الثالثة بعد موت زوجته، وتلك هى رحلته الأخيرة التى مات وهو عائداً منها.

وابن جبير دقيق جداً فى وصف رحلته. فهو لا يترك شاردة أو واردة إلا دونها، ولا ينسى ذكر التواريخ قط ولكنه لا يكاد يصل إلى الحجاز بعد مكابدة أهوال شتى فى رحلته الأولى حتى ينسى نفسه ووقته وتواريخه. وتهتاجه العاطفة فيصبح كلامه كله شعراً. وهو لا يرى مكة والمدينة بعينه بل بعين العاطفة والخيال والإيمان. عندما يقترب من

مكة لا يعود يرى أرضاً أو جبلاً أو ودياناً. إنما هي أنوار تهل عليه، وجنان تحيط به، وعطور تملأ الجو حوله، وما يحس به قلبه يطغى على ما تراه عيناه. وقد قلت فى كلامى عن زحلته تلك فى كتابى (تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس).

ولا غرابة فى ذلك فإن الرجل الذى يحمله الإيمان على ركوب المخاطر، والتعرض للمهالك من ساحل الأطلسى أو من حدود الصين إلى الحجاز ينتقل بشعوره إذا هو اقترب من مهد الإسلام وبلد البيت العتيق أو إذا هو أهل على مدينة سيد المرسلين وعرة بنى آدم. من عالم الواقع إلى عالم الإشراق الروحى، وتستغرق إحساسه نشوة غامرة نحمد أننا كنا ممن عرفها واستشعر جمالها.

الحق أن رحلة ابن جبير قطعة من الأدب الجغرافى إلا عندما يصل إلى مكة المشرفة. هناك يصبح الرجل شاعراً ثم صوفياً فهو لا يتحدث إلا عن الأنوار والبركات والخبرات وهو لا يصف لنا - على عادته - مأكله ومشربه. كأنما استغنى عن زاد الدنيا بزاد المعاد. وهو ينتقل من مشعر إلى مشعر من مشاعر الحج. وكأنه دانتى يتجول فى نواحي الفردوس فى صحبة بياتريس. وهو عاشق ولهان - مثل دانتى - وهو معذور فى عشقه. فإن الله سبحانه وتعالى قد أفرغ على بيته وما حوله من الجمال ما يجعل أبعد الناس عن الشعر شاعراً، لقد حججت أول مرة سنة ١٩٣٨م. ولم تكن المملكة السعودية قد أنشأت هناك ذلك الإنشاء الباهر الذى نراه اليوم. وإنما كان الحرم المكى أصغر مما هو عليه اليوم بكثير، ولكن صدقنى إننى لا أشعر كيف كان ويقع فى حسابى أنه كان دائماً بهذه السعة والجمال، ولقد كان الحرم حول الكعبة حصباء إلا المسعى ومع ذلك فإننى لا أذكر إلا أنه كان جميلاً باهر الجمال مفروشاً بالرخام أبداً وأيامها كنا نقيم عند مطوف طيب القلب رحيم بإخوانه أسكننا دويرة لطفية هى رحبة تحيط بها حجرات، وتلك الحجرات كانت بيته

مع أهله ، فإذا جاء موسم الحج أخلاها ليؤجرها للحجاج ولا أذكر كم كنا نؤدى إليه ، ولكننى أذكر أننى كنت دائماً أشعر لأنه يتفق علينا أكثر مما تعطيه ، وكان يسمى الحاج خلفان الغامدى ، وكانوا ينادونه بأبى فاطمة ، ولم يكن عنده من الطعام إلا ثريد أو قول مطبوخ بشعير ، وكان رفقاءى فى الدار أهل نهم . فما تكاد القصعة توضع حتى يمسحوها مسحاً فلا أكاد أصيب شيئاً وأمضى إلى ساحة الحرم حيث أجلس وأسند ظهرى إلى حائط ويأتينى الحاج خلفان وفى يده ابنته فاطمة ومعه خبز وفول ويقول : كل يا بنى ، فما أراك إلا جوعان ، وأنت فيما أرى خلفان مثلى فى شئون المعاش . وآخذ الطعام ، ومعى الصغيرة وأخرج من الحرم وأضع الطبق على عتبة بيت وآكل وبصرى مثبت فى البيت .

وقد تحدث ابن بطوطة أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إبراهيم اللواتى الطنجى عن مكة والمدينة حديثاً مستفيضاً فى رحلته والحج إلى بيت الله الحرام كان محور حياة هذا الرجل الذى يعد من معالم الحضارة الإسلامية ورحلاته كلها كانت طوافاً دائماً حول البيت من قريب أو بعيد ، وهو يدور ويدور ثم يعود إلى مكة والكعبة ولقد حج ست مرات وجاور أثناء رحلاته فترات إذا جمعتها كانت نحو ثلاث سنوات وله فى كلامه الكثير ملاحظة لو قرأتها وتأملت أحوال مكة اليوم لنالك العجب فقال (إن الله سبحانه وتعالى شاء أن تكون مكة بواد غير ذى زرع ولكنه ساق إليها الخيرات من كل صوب فكل طرفة تجلب إليها وثمرات كل شىء تجلب إليها . ولقد أكلت بها من الفواكه العنب والتين والخوخ الطيب والرطب مالا نظير له فى الدنيا . وكذلك البطيخ المجلوب إليها لا يماثله سواه طيباً وحلاوة واللحوم بها سمان لذيزات الطعوم . وكل ما يفترق فى البلاد من السلع فيها اجتماعه وتجلب لها الفواكه والخضر من الطائف ووادى نخلة وبطن قر لطفاً من الله بسكات حرمة الأمين ومجاورى بيته العتيق).

وابن بطوطة كان فى مكة فى حجته الأولى فيها بين رجب وذى الحجة سنة ٧٣٨ هـ نوفمبر ١٣٢٨م أى أن بيننا وبين كلامه هذا نحو ستة قرون ونصف، ومع ذلك فأنت تشعر وكأن مكة فى أيامه هى مكة اليوم وكأن الرجل كان يجد ما يريد فى واحد من (السوبر ماركت) التى توجد فى مكة وكل بلاد المملكة السعودية اليوم. وهذا فى حقيقة الأمر شىء عجيب فإن الله جعل بلده الأمين فى واد غير ذى زرع ثم ساق إليه الناس الخيرات من كل مكان، حتى ليشعر الإنسان بالأمن والسعة والرخاء فيه، حتى فى أيام الخوف والشدة والمجاعة وقد أشار إلى ذلك إبراهيم رفعت باشا فى كتابه الممتع (مرآة الحرمين).. فقد كان ضابطاً فى الجيش فحمل معه (المبرة) من مصر وكأنه ذاهب إلى بلاد لا طعام فيها ولا زاد، فما كاد ينزل به حتى تعجب من وفرة الخير فى كل موضوع، وكان الناس يدعونه إلى بيوتهم، فيطعم عندهم بأكثر وأحسن مما كان يطعم فى القاهرة، حتى جعل عساكره يفرقون فى الناس ما لديهم من (البقسماط وجراية العسكر)، فنهرم وأمرهم بالمحافظة عليها خوف المجاعة. وانتهى الأمر فى خاتمة زيارته الأولى بأن أمره جنده بنفسه قبل العودة أن يفرقوا ما لديهم من الطعام فى الناس (فقد استغنينا طوال الرحلة عن ميرة الجيش والبقسماط).

وهذا الرخاء المادى الذى يتحدث عنه ابن بطوطة فى كلامه عن مكة، يعود بنا إلى الرخاء المعنوى الذى كانت مكة ومدن الحجاز تتمتع به خلال العصر الأموى. لأن مكة التى كانت قطب السياسة والمال فى العصر الجاهلى تحولت بعد الإسلام إلى ضاحية من ضواحي المدينة المنورة، لولا البيت العتيق، ثم انتقلت السياسة إلى الشام، وانتقل صراع القبائل إلى خراسان والمغرب والأندلس، وبقي الحجاز هادئاً ساكناً يعيش فيه فى أمن ودعة من أراد العيش فى أمن ودعة خلال العصر الأموى المضطرب. وهنا، فى جو هادئ لم تعكر صفوه السياسة إلا أثناء فتنة ابن الزبير، عاش شاعر الغزل الرقيق الشريف عمر بن أبى ربيعة وهو عمر بن عبد الله بن أبى ربيعة المخزومى وهو أشعر من أطلعت

قريش في تاريخها، ويكاد شعره يشف على شعر الشريف الرضى، وهو ثاني شعراء قريش من ناحية الشاعرية والإلهام، ونحن في الحجاز مع عمر بن أبي ربيعة وكأننا مع فولفجانج جيته في فايمار، فكلاهما شاعر عظيم يأخذ شعره بالألباب والعقول. ولقد تعلم الناس على يدى أبي الخطاب عمر بن أبي ربيعة كيف يقولون شعر الغزل فى عفة وتساون وكمال وكان الناس يقرءون ما يحكيه من معاشقة ومغامراته فى أشعاره ويعرفون أنها خيال فلا يغضبهم ذلك منه. وكانت كريمات العقائل يسعين إلى عمر ليذكرهن فى شعره وأى امرأة لا تحب أن يقال الشعر فى جمالها؟! وهذا القول لا يضير أهلها أو يمس شرفهم فهذا كله كلام شاعر عفيف يتخيل ولا يرى والحال فى هذا يشبه ما تفعله كرائم العقيلات على طول التاريخ فى الغرب من القعود للفنانين لرسم صورهن وإضفاء لمسة الخيال على ما منحهن الله من حسن وجمال ولقد رأيت من أسابيع مجموعة من الصور رسمها كبار مصورى العصر لأميرة الأساطير فى أيامنا جريس باتريشيا كيلي التى أضفى عليها الموت المبالغت جمالاً ليس بعده جمال، رأيت صورها بعدسات كبار مصورى عصرنا: أيروين بلومنفيلد وهويل كونانت وجوسف كارش وفيليب هالسمان وجاك هنرى لافارج، فقلت: هذه والله أشعار أبى الخطاب صارت صوراً! وهنا فى مكة والمدينة ترك الناس السياسة لأهل السياسة وعاشوا فى ودعة وأمان، وجعلوا من مكة والمدينة خلال قرابة القرن عواصم الشعر والفن وواحة أهل الإلهام وأطلعت مخزوم عبقرىها الثانى بعد خالد بن الوليد بن المغيرة وهو عم شاعر الغزل الخالد.

وبعد هذا الطواف فى عالم الخيال والتاريخ، نعود إلى الواقع وحجاجة. نعود للغم والنكد والمعلمين الذين اتخذوا الحج ممحاة يمحون به آثامهم وما يفعلون بنا قاتلهم الله! وهنا نجد أن الداء قديم وقد تحدث عنه الحافظ أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزى المتوفى سنة ٥٩٧هـ / ١٢٠٠م فى كتابه الممتع؛ (تلبيس إبليس) وهو كتاب لطيف لم يجد عند أهل الأدب والتاريخ ما يستحق من عناية، وصاحبه. وهو من أعظم الفقهاء يكشف فيه عن آثام عصره وعيوب أهله ويقول إن هذا

الشر كله إنما أتى من إبليس الذى يتسلل إلى نفس الإنسان ولا يزال به حتى يضلّه عن السبيل وله فى ذلك حيل وأساليب يفصلها ابن الجوزى فى فصول كتابه. وفيما يتعلق بالحجاج يقول ابن الجوزى وكأنه يتحدث عن صاحبنا الحاج حسين عبد الدايم عتبة وصاحبه الحاج محمد بن عوضين المجذوب ممن يأكلون مال النبى ويهضمون مال بيوت الله وقد لبس إبليس على جماعة من القاصدين إلى مكة فهم يضيعون الصلوات. ويطلقون إذا باعوا ويظنون أن الحج يدفع عنهم. وقد لبس إبليس على قوم منهم فابتدعوا فى المناسك ما ليس منها. فرأيت جماعة يتصنعون فى إحرامهم فيكشفون عن كتف واحدة عن كتف واحدة ويبقون فى الشمس أياما فتكشط جلودهم وتنتفخ رؤوسهم، ويتزينون بين الناس بذلك وهؤلاء كانوا يحجون لى يقول الناس: ما أتقاهم! أو لعلمهم حسبوا أنهم بذلك يمكرون على الله. والله سبحانه خير الماكرين. هؤلاء الناس جميعا لا يحجون. إنما يسافرون إلى الحجاز ويعودون. أما الذى يحج فما يلبسون وعليهم جميعا ينطبق قول من قال: أنفقت مالى وحج الجمل! أى الجمل الذى حجوا عليه. وربما طافوا وسعوا به، فحج الجمل ولم يحج صاحبه وما أحسب لأن لهم ثواب حج أو عمرة. وحالهم كحال جار لنا ممن يحج عامًا ويغزو عامًا. أما فى عام الحج فهو ناسك وأما فى عام الغزو فهو فاتك ينتقل بين لندن وباريس ولا يكاد يترك موبقة إلا أتاها. ثم يمضى إلى الحجاز فى العام التالى يغسل ذلك كله. فى حسابه وكأنه بين حجة وعزوة يفسر فى جهل شديد قول الله سبحانه فى سورة التين ﴿لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم، ثم رددناه أسفل سافلين﴾.

إذن.. فهو القط بسبس*

حكاية مشهورة يعرفها كل دارس للأدب العربى وكل مولع بأدب الجاحظ أبى عثمان عمرو بن بحر وكتابات الحافلة بالمعارف والمعلومات الفياضة بالجمال وخفة الظل مع الفهم التام للمجتمع الإسلامى وأدبه وتاريخه وفكره حتى عصر الجاحظ نفسه، فقد ولد الجاحظ سنة ١٥٩هـ وتوفى سنة ٢٥٥ للهجرة (تقابل ٧٧٥م و ٨٦٨ للميلاد) أى أنه عاش خلال العصر الذى تم فيه التحول الحاسم لدولة الإسلام من دولة عربية يقودها ويوجه سياستها العرب إلى دولة بلا شخصية ولا وظيفة ولا هدف. دولة يقال إنها عربية. وأصحاب السلطان فيها كل أصناف الناس إلا العرب، ودولة يقال إنها دولة الإسلام. كل ما يجرى فيها هدم للإسلام وتزييف لأصوله وعقيدته وطبيعته، دولة قامت لتقود البشر إلى معارج الخير والسعادة والرخاء فأنحرف بها شياطين الناس إلى دركات الشر والتعاسة والجوع. ومجتمع كسل من فيه قلق خائف من الخليفة إلى الفقير الذى يجرى على أهله وغياله..

فى هذا العصر الحافل بنذر الشر وطوال الردة إلى ما هو أسوأ من الجاهلية. كان الجاحظ بظرفه وعلمه ومهارته فى الحديث عن ألوان التعاسة التى كان الناس يحيونها. كانت كتابات هذا الرجل - الذى لم تهيه الحياة لمحة من لمحات وسامة الخلق وعوضته بكل لمحة من لمحات الظرف وخفة الظل هى تسلية الناس أجمعين، كان تلفاز العصر، وكتبه كانت مسلسلات أيامنا، فهى حديث الناس وتسلية المجالس، ولكل عصر تسليته من مستواه: لأجدانا كتابات الجاحظ وهى ديوان من العلم والأدب حافل. ولعصرنا مسلسلاته، وهى أساطير

* نشرت هذه المقالة فى ٣١ أكتوبر ١٩٨٢م.

ملونة، ونحن نطرب لها، لأننا نرى فيها الشيء الأساسى الذى نفتقده فى الحياة من حولنا، فإن مسلسلات التلفاز كلها ألوان وليس فيها إلا ألوان. أما حياتنا فلا لون لها ولا طعم، ولكن لها مع الأسف رائحة لا تستريح إليها القلوب.

حكاية الجاحظ تقول: إن رجلاً اشترى رطلين من اللحم وتركهما لامرأته لتعد الطعام، ومضى إلى عمله. ثم عاد آخر اليوم يطلب الطعام فلم يجد الطعام، وقالت له امرأته: إن اللحم كله أكله السنور، وهو اسم من أسماء القط فى لغة العرب.

ونظر الرجل إلى السنور فإذا به قمىء هزيل تنطق هيئته بالمجاعة فأخذه ووضع فى كفة الميزان فإذا هو رطلان، فقال لامرأته: - هذا هو اللحم فأين السنور؟.

ذكرت هذه القصة الطريفة وأنا أشهد واحداً من الاستطلاعات التلفازية حيث تقوم سيدة شابة وسيمة ذات ذكاء بعرض إحدى مواجهنا والبحث عن المسئول، فإذا عرفنا المسئول تبين لنا وجه الحل، وكانت المشكلة المعروضة هى مشكلة اللحم، ومن المسئول عن غلاء سعره، وفوضى تجارته، وقامت السيدة باستجواب كل المسئولين عن حكاية اللحم. من المزارع الذى يربى إلى التاجر الذى يشتري إلى المسئول فى الوزارات عن تزويدنا باللحم ما بين محلى ومستورد، والقائم بمراقبة العملية كلها إلى المسئول عن المذبح. إلى المسئولين عن شواذر بيع اللحم. ثم أصحابنا (المعلمين) الذين لا يتاجرون فى الجزارات بلحم البقر والجاموس والغنم. إنما بلحومنا نحن، ما مررت بدكان من دكاكينهم ورأيت الذبائح معلقة فى الخطاطيف إلا قلت: والله ما هذه الذبائح إلا نحن! حتى إنى لأرى نفسى معلقاً فى الدكان من عرقوبى ليبيعنى المعلم دبشة والمعلم حكشة رطلاً رطلاً وريشة ريشة.. وكل ما أرجوهم فيه فى هذه الحالة هو أن يبيعوا لحمى بالتسعيرة.

الذى تبينته أثناء الاستطلاع أن الكل كذابون. وأكذب الجميع هو الفلاح الذى يربى المواشى، وهو رجل كالح الوجه كئيب المنظر، وأكأب ما فيه عيناه، فإنك تقرأ فيهما الكذب المركب. فهو يكذب من البداية إلى النهاية. يكذب فى كل كلمة يقولها، وكلما أقسم بالله كان ذلك دليلاً أقوى على كذبه، والسيدة المستطلعة حيرى من أمرها أمامه. فهى تراه يكذب ولا تستطيع أن تصفحه على وجهه لأنه كذاب. وهو يتكلم ويستشهد بأخيه أو ابنه أو العامل معه وكلهم كذابون. وأنت نسأل نفسك: هل تقاليد الريف التى توارثتها أجيال هذا الرجل انتهت إلى حقيقة واحدة هى الكذب؟

وتياس المسكينة منه ففتجه إلى المسئولين فى الحكومة عن شئون اللحم ما بين محلى ومستورد. فتجد كلامهم عجيباً متناقضاً متضارباً. فهم يقسمون بالشياطين وبشيخهم إبليس أنهم ملائكة أبرار. وأنهم لا ينامون لحظة من ليل أو نهار. يراقبون ثعالب التجار. وتنتقل إلى التجار فتصل إلى ذروة الكذب. فالمعلم دبشة لا يراعى إلا الله فى كل درهم من اللحم يبيعه. لأنه رجل مخلص يريد أن يدخل الجنة دون مشاكل أو إجراءات. أما العمارة التى اشتراها فى شارع الميرغنى فهذه ورثها من تركة أبيه الحلال، فأبوه طيب الله ثراه كان يورد اللحم الحلال لسلاطين مصر من أيام قلاوون الجبار إلى طومان باى الشهير بالمنشار، أما العمارة التى يملكها على شاطئ البحر فى الإسكندرية فهى ثلاثة بالله العظيم ومالك على يا شيخ حلفان. فهى ربح حلال من بيع اللحم بالتسعيرة والعدل والقسطاس، وكذلك السيارة المرسيدس الغلبانة التى يركبها، والفيلات الجميلة التى تسكنها زوجاته الأربع وأولاده الخمسة عشر. وكلهم ملائكة أطهار، يأكلون حلالاً ويشربون بلالاً، وهم جميعاً أبرياء من كل سوء. لأنهم سيدخلون الجنة معه بنفس التأشيرة على نفس الباسبور..

وتلثفت المذبة المحيرة إلينا وتقول وفى عينها شقاء الدنيا ويأس العالمين : إذن فأين الحل ياناس ومن المسئول؟

والجواب المريح الشافى هو أن المسئول عن مشكلة اللحم من بدايتها إلى نهايتها هو نفس المسئول عن رطلى اللحم اللذين اشتراهما الرجل فأكلهما السنور الهزيل الضئيل.

المسئول هو القط بسبس ولا مجرم سواه.

هو الذى يفترس مئات الألوف من أطنان اللحم التى نربىها أو نشترىها ، هو المسئول عن ملايين أطنان العلف التى نوزعها على المربين من المزارعين.

وهو وحدة المسئول والبقية أبرار أطهار.

وقد تعرضت لهذه المحنة وأنا أحقق فى مأساة شبابنا. وشبابنا يا مولاي له ألف أب، ومع ذلك فهو أتعس الأيتام، وهو لكثرة المشرفين على شئونه والمعنيين بأموره أضيع من الأيتام فى مادية اللئام. ومن هم أولئك اللئام؟ تعال يا أخى نسأل ونحقق. بدأت أحقق الموضوع عند الكبار فرأيت العجب بدأت من حقيقة واضحة لا شك فيها. فيما حسبت، وهى أن شبابنا ضائع فى البيت وضائع فى الطريق وضائع فى المدرسة وضائع فى الجامعة وضائع بلا أمل بعد الجامعة.. لأن المرتب الذى سيتقاضاه بعد الغلب والتعب لا يرضى به أتعس متسول على باب سيدنا الحسين.

وتعجب المسئول الكبير الذى بدأت التحقيق عنده من كلامى وقال. تقول هذا وأنت تعلم أننا اعتمدنا الملايين بعد الملايين لرعاية الشباب، لقد أنشأنا مركزاً لرعاية الشباب فى كل محافظة وكل مدينة وقوية ووحى، وفى كل مركز عشرة من الاختصاصيين يعيشون رهبانا بالليل وفرسانا بالنهار فى خدمة الشباب المحتار، وماذا يعملون رحمك الله

لخدمة الشباب إننى أرى الشباب غلباناً تعيشاً يلعب الكرة بجورب محشو بالقطن لأنه لا يجد كرة محترمة - أو نصف محترمة وهو يلعب الكرة فى الحوارى والأزقة لأنه لا يجد مكاناً يلعب فيه غير الحوارى والأزقة، ومراكز الشباب التى تتحدث عنها عاجزة عن أن تدبر للشباب فى كل حى مائة متر مربع يجعلونها حديقة له يستروح النسيم فيها ويتلاقى كما يتلاقى غيره من الشبان. وفى حى كامل مثل حى الروضة والمنيل لم تقيموا له مكتبة واحدة يتردد عليها ليقراً ويتعلم، ولو أنكم أنفقتم المال الذى تنفقونه على (رهبان الليل وفرسان النهار).. الذين ذكرتهم على الشباب نفسه لكان أجدى. فمركز الشباب الذى يحتله الموظفون يكون أنفع لو تحول إلى ناد ومكتبة جميلة التأثيث حسنة الإنارة يزورها الشاب ليجتمع بأترابه تحت إشراف رجل واحد طيب صادق يحمل فى صدره قلباً عامراً بالخير. وقلب واحد عامر بالخير أبرك علينا ألف مرة من لقب الدكتوراه الذى يحمله كل عبقرى من عباقرة مراكز الشباب، لقد زرت بلاد الدنيا جميعاً وليس فيها بلد واحد إلا فيه مراكز للشباب يستمتع فيها الشباب وحده، ولا يحتلها ثقلاء الظل من الموظفين حتى شباب قرغيزيا فى بلاد المسلمين الذين نقول: إنهم يرسفون فى قيود الذل والاستعمار فى تركستان الروسية. حتى هناك أنشأ الناس لهم مراكز شباب هى بيوت أنيقة ذات حدائق فيها مكتبات وقاعات لممارسة الرياضيات وملاعب للكرة بشتى أصنافها، وأنا لا يهمنى أن تكون الكتب التى يحويها مركز الشباب من تأليف لينين أو تشكوف. لأن الذى أعرفه وهو بديهى أن الشباب فى حاجة إلى شىء واحد: أن يستمتع بشبابه.. فينفق وقت فراغه فيما يحب من لعب أو رياضة أو حديث أو مطالعة. أما أن يدخل الشاب مركز الشباب فيجده غرقاً يحتلها موظفون: هذا مدير وهذا نائب مدير وهذا وكيل وذاك سكرتير. والذين ليسوا بموظفين فى المركز فهم

مخبرون. فهذا شيء لا ينفع الشباب والمساحة الوحيدة المباحة للشباب هناك هي المدخل الذى يجلس فيه فراش، وحتى الفراش لا يخدم الشباب إنه يعدل القهوة والشاي للسادة الإخصائيين، وكل هم السادة رجال المركز هو التخلص من الشباب. فالمكان الوحيد للشباب عندهم هو الورق، والعمل الوحيد الذى يشغلهم هو كتابة خطابات من المركز القروى للمركز الإقليمى، ومن الإقليمى للمركزى ذهاباً مرة وإياباً مرة وتقارير ترفع إلى السيد الوزير أو السيد الوزير الأمين ومؤتمرات يختارون لها محاسب الشباب باسم قيادات الشباب وساقية دايرة ولا ماء وأرض عطشانة ولا رى!

فإذا دخل شاب سأله الفراش:

- عاوز حاجة يا حضرة.

- السيد المدير.

- مش موجود.

- السيد الوكيل.

- فى اجتماع.

- فالسيد السكرتير.

- سافر إلى أمريكا فى بعثة تدريب.

وينصرف الشاب كاسف البال يبحث عن داهية يذهب إليها.

ويقول مسئول عن شئون الشباب وهو يطلعنى على دفتر مطبوع.

- انظر إلى هذه الدراسة الميدانية التى قمنا بها عن شباب حى باب الشعرية! وانظر فى الدفتر فإذا به جداول من أوله إلى آخره.

- وما هى هذه الجداول يا مولانا؟

- كل جدول من هذه خلاصة استبيان ميداني : لقد قسمنا الشباب إلى قطاعات أفقية وأخرى رأسية ، وأرسلنا خمسين باحثًا وباحثة ليستوفوا البيانات ويملئوا الخانات.

وملئوها فبركات وابتكارات. والفبركات رتبت وحللت بمعرفة حاسب إلكتروني أخرج النسب المئوية التي تصل إلى ١,٠٠٥٪ في المائة.

- ومن الذين يقومون بهذه التجهيزات؟

- شباب من القيادات في بعثات تدريب في مراكز جامعية أمريكية..

وهنا تعود إلى ذاكرتي مأساة بعثة التدريب في برنامج التنمية الإدارية التي أرسلوها إلى مركز تدريب دولي تنظمه جهات علمية في الولايات المتحدة. والمجموعة المصرية تكونت من عشرة شبان والدول المشتركة في الدورة عشر دول أفريقية وآسيوية.

والذي فعلته المجموعة المصرية لا يوصف إلا بأنه مأساة والخبر بتفاصيله نشر في تقرير طويل في جريدة الأهرام. ونحن في هذه المقالات لا نبحث عن أسرار لأننا لسنا في حاجة إلى بحث وتنقيب، فالمصائب ومظاهر التخلف الإداري أصبحت تعرض على عربات الكارو في الشوارع. والمسؤولون عما يصيبنا تخلصوا من عقدة الخوف من العقاب و (عيب) يا جدع، فإننا في مجتمع مواطنين أحرار كلهم رءوسهم مرفوعة في السماء والحمد لله والرأس الوحيد المائل هو رأس أئمة العزيزة مصر والحكاية باختصار أن هذه المجموعة المصرية التي اختارها السادة المسؤولون كانت (عرة) في وسط المجموعات الأفريقية والآسيوية.

فقد وصل أفرادها (المحروسون) وكل واحد منهم تكلف علينا ٤ آلاف دولار. وصلوا ليكتشفوا أن الدراسة هناك باللغة الإنجليزية، وكانوا فيما نظن ينتظرون أن الدراسة في جامعة شيكاغو ستكون باللغة العربية. وحتى ولو كانت باللغة العربية فصدقني أنهم ما كانوا ليفهموها لأنني أنا أدرس في جامعة القاهرة باللغة العربية ولا يفهمني الطلاب إلا بشق النفس ولا بد أن نخاطبهم بلغة المرحوم إسماعيل ياسين ليفهمونا ووصلت المجموعة في شهر رمضان فقال أفرادها جميعا: هذا هو شهر الصوم، ولا دروس في شهر الصوم.

وقالت السيدة الأمريكية المشرفة التي تبينت أن المجموعة المصرية مجموعة قرود لا آدميين: ننتهز هذه الفرصة وننظم لهم برنامج تقوية في اللغة الإنجليزية، ثم تبينت أنهم في حاجة إلى أن يتعلموا حروف الهجاء وأن معرفتهم باللغة الإنجليزية لا تخرج عن لفظين: أو كيه (باى باى) والاثنان من قاموس العلامة إسماعيل ياسين. وواحد منهم كان يحفظ أغنية إنجليزية تقول: هابى بيرثادى يا حمادة (وهو اسمه) وهى من قاموس عبد السلام النابلسى. وواحد منهم لزم غرفته فلم يحضر الدروس ولكنه في شهر رمضان لم يترك سينما يعرض فيها فيلم من أفلام البورنو إلا شرفها بحضوره والبورنو كلمة يونانية معناها - ولا مؤاخذه - القذارة. ومجلات البورنو هى مجلات القذارة وكذلك أفلامها. والقذارة لا تنقض الصيام ولكن دروس التدريب على التنمية الإدارية تنقضه.

وبعد شهر رمضان استمروا لا يحضرون الدروس وعلقوا لهم إعلاناً مخجلاً في لوحة الإعلانات. كل هذا ومجموعات طلاب البلاد النامية الأخرى يحضرون لأنهم آتون من بلاد نامية تريد أن تنمو. أما نحن فبلد توقف عن النمو؛ لأنه طفل متخلف، وعن قريب سيصدر تصنيف جديد للأمم: أمم متقدمة، وبلاد أقسمت بالله العظيم ثلاثاً ألا تتقدم.

ولماذا لا تحضرون الدروس يا بهوات؟.

لأننا سبق أن حضرنا برنامج تدريب مشابه لهذا فى ألمانيا.. يا نهار أبيض !.

هؤلاء المتخلفون قومياً وعقلياً وإدارياً سبق أن أرسلتهم الغلبانة مصر على حسابها إلى برنامج تدريب إلى ألمانيا وخابوا خيبة بلا حدود، ومكافأة لهم أرسلناهم إلى دورة ثانية فى الولايات المتحدة؟.

- نعم، ولم لا؟.

- ومن الذى يتولى اختيار أفراد هذه المجموعات؟.

لا تتعب نفسك فى البحث لأن الذى قام بالترشيح والاختيار هو القط بسبس.

وهل يصنع هذه العجائب إلا العكروت بسبس؟.

واليك مقلب آخر من مقالب الملعون بسبس.

كلنا نعرف أن السياحة فى مصر راقدة الآن فى وهدة عميقة طويلة ولا يدري إلا الله وحده متى وكيف تخرج منها، ولماذا والله تخرج إذا كانت الآثار نفسها فى طريقها إلى الزوال؟.

وكلنا نعرف أن السبب الأكبر فى هذه المأساة أن المشرفين على السياحة عندنا لم يكتشفوا بعد أن السياحة تقوم على المعاملة الحسنة للسائح والخدمة الحقيقية بالسعر المناسب له.

فالسائح الذى يخرج من مطار القاهرة ليجد فى انتظاره مجموعة من (العصبجية) يسمون (سائقى تاكسى) ويجتهد كل واحد من هؤلاء فى نهب المسكين لمجرد إيصاله إلى الفندق هذا سائح لن يعود إلى مصر مرة أخرى رغم كل ما تفعله مصلحة السياحة.

وعندما يقف سائح مسكين عند الهرم ويجد نفسه محاطاً بعصابة حقيقية من أدنى مستويات المجتمع المصرى وهو لا يتحرك إلا وجد هذه الوجوه القبيحة حوله وهم يثقلون عليه ويضايقونه إلى الموت. حتى إنه لا يستطيع رؤية الهرم، والمسكين إذا عطش لم يجد إلا زجاجة زفت كولا يبيعه إياها رجل لا يوصف إلا بأنه متشرد. ويطلبه بجنيه ثمنًا للزجاجة وليس هناك مكتب سياحة محترم ولا مكان يستريح فيه ولا حتى دورة مياه، فإن هذا السائح يلعن اليوم الذى نزل فيه مصر وعندما يعود إلى وطنه سيحذر أى واحد من مواطنيه من الذهاب إلى مصر. وهذا لا يمنع من أن يكون لنا فى كل بلد مكتب سياحى فيه مستشار وكذا ملحق وهذه المكاتب ضرورية وإلا فأين يذهب. والله المحاسب؟.

وفى الأقصر مكتب لمصلحة السياحة أذهب إليه فى أى ساعة من ساعات النهار. فإنك لن تجد أحداً. وإذا وجدت فشاب لا يعجبك ينظر إلى السائح الغربى وكأنه تلقيحة أو رزية لا استعلامات ولا معلومات ولا إرشاد إلى فندق ولا إنقاذ من براثن سائق تاكسى. أما إذا طلبت خريطة أو دليلاً فأنت ساذج فالمكتب ليس فيه شئون السياحة إلا اللافتة، والبهوات الذين يعملون فيه إذا حضر الواحد منهم مرة طالب بحوافز لأن المرتب الذى يأخذه هو نصيبه الذى يستحقه فى الوقف الكبير الذى يسمى وزارة السياحة.

ولكن القط بسبس الخبيث ألقى فى روع جهابذة السياحة عندنا أن العلاج الأكبر لمشاكل السياحة عندنا هو أن نشترك فى معرض السياحة العالمى الذى تقيمه منظمة السياحة العالمية أستا.

ومن حسن حظ القط بسبس أن المعرض أقيم هذا العام فى فلوريدا، قال:

وهيا يا أولاد نعملها هيصة: وفد من ١٥ عبقرىا وبافيون أو جناح نكلفه مثلاً ٢٠٠ ألف دولار، وفرقة رضا على البيعة وتحصلون على

الميدالية الذهبية، والميدالية الذهبية تعويذة سحرية تجعل كل سائحى الدنيا يتجهون بالألوف إلى مصر التى فاز جناحها بالميدالية الذهبية.

وذهب الوفد العظيم ومعه لا أدرى كم مهندس ديكور وكم فنان. ورقصت فرقة رضا وأخذنا الميدالية الذهبية.

وعدد السياح الذين أتوا إلى مصر هذا العام لم يزد على واحد على ٢٠٠٠ من الذين ذهبوا إلى إسبانيا، وإسبانيا المسكينة لم تحصل على ميدالية ذهبية أو فضية.

وفى المجموع جوالى نصف مليون دولار راحت فى سبيل ميدالية مطلية بالذهب إذا بعناها فهى لا تغطى حساب وجبة واحدة فى فندق، وأين تعلق هذه الميدالية؟.

على صدر القط بسبس! فهو صاحب هذه الخطة العبقرية وله الفضل فى التوفيق العظيم الذى وصلنا إليه.

— يا ناس، أما كان أذكى بالنسبة للسياحة فى مصر لو منعنا العمل فى مكاتبنا؟ لو أنشأنا مكتباً فعالاً لتيسير أمر انتقال السياح من المطار إلى فنادقهم ومن فنادقهم إلى حيث يريدون؟ وإلى السيد وزير السياحة تجربة سياحية وقعت لى.

خرجت من مطار القاهرة معى حقيبة وكانت الساعة بعد العاشرة مساءً بقليل، وما رآنى سائق تاكسى حتى حسبنى خواجة فأسرع إلى وطلب ١٥ جنيهاً لكى يوصلنى إلى الزمالك حيث يوجد فندقى كما قلت له. ووجدت لأننى وقعت فى كمين لأن هؤلاء الناس عصابة، واحد يقول ١٥ والثانى يقول ما معناه: علشان أنت راجل عجوز ١٢ جنيهاً، ودخلت السيارة على أن أدفع ١٢ جنيهاً. فلما مضت بنا وأصبحنا فى الظلام ووحشة الطريق قال (عواطلى)، كان يجلس إلى جانب السائق:

١٥ جنيها أو تنزل يا خواجة، وقلت بارتياح: لا لزوم لذلك: ١٥ جنيها هذا حسن جداً.. وأعطيت العنوان قرب نقطة بوليس الزمالك.

وعند القسم أوقفت السيارة وقلت للشاويش الواقف هناك: خذ بالك لو تحركت السيارة فاضرب بالرصاص، أنا داخل للضباط إنه ابن أخى. ومادام حضرة الضابط ابن أخى فقد كنت واثقاً من أنه لن يدع واحداً من هذين الصعلوكين يتحرك. ولم أكن كاذباً فكل ضابط بوليس فى مصر هو ابن أخى أو ابنى.

وقصصت على الضابط ما حدث بعد أن عرفته بنفسى وأخذوا الاثنين إلى الداخل وتبين أن السائق لا يحمل رخصة والرجل الذى معه لا يحمل بطاقة شخصية، وعاملها حضرة الضابط كما يستحقان وتركت عند الضابط خمسة جنيهاً للسائق. وكذلك حقيبتى الكبيرة. وكان الشاب عند حسن الظن به، ومضيت إلى بيتى بحقيبة يدى وفى الصباح مررت فأخذت الحقيبة وعرفت حينئذ أنه عند الاستجواب بشأن رخصة القيادة والبطاقة أن هذين الإنسانين يفعلان هذا مع السائحين بانتظام.

ألم يكن أفضل بدلاً من الميدالية التى لا قيمة لها أن ننشىء مركز النقل للسياح فى المطار مع رقابة تامة على السائقين بحيث لا يركب سائح مع سائق تاكسى إلا عن طريق هذا المكتب، فى إسبانيا لا يهتم فى المطارات هذه المكاتب ولديهم شركات سيارات وأتوبيسات لنقل السائحين. والمكتب يتصل بعد ساعة من خروج السائح برقم تليفون فندقه أو الجهة التى هو ذاهب إليها ليطمئن على مصير السائح. ولكن، ما العمل والقط بسبب يتدخل فى كل شئوننا ويفسدها؟.

وإسبانيا ليس لديها قط بسبب وليس لديها نتيجة لذلك ٥٠٠ دكتور فى السياحة والفنادق لكن لديها ٤٠ مليون سائح فى الساعة.



وأنت قد قرأت مثلى خبر المستشفى الأميرى فى بلد مصرى كبير،
هناك قالت لنا الصحف إن معظم الأجهزة الكبرى معطلة بما فى ذلك
جهاز تعقيم حجرة العمليات.

فى مثل هذه الحالات أنا سيىء الظن وهناك مثل عربى يقول: إن
سوء الظن من أقوى القطن.

ويقول لى ظنى السيىء إن القط بسبس الذى عطل هذه الأجهزة لابد
أن يكون واحداً أو أكثر من هيئة العاملين فى المستشفى لأنه من غير
المعقول أن تتعطل لمدة عام وأكثر أجهزة الأشعة والتعقيم والأوكسوجين.
وهناك أطباء يعملون ويكشفون على المرضى.

وسوء ظنى يقول لى، إن جهاز الأوكسيجين إذا كان معطلاً فى
المستشفى فهو لن يكون معطلاً فى عيادات الأطباء الخاصة، وكذلك
الحال بالنسبة لجهاز الأشعة وجهاز تعقيم حجرة العمليات والمرضى
يتعودون أن يتجهوا رأساً إلى عيادات الأطباء. لأن القط بسبس وشركاه
عطلوا العمل فى المستشفى العام.

والقط بسبس عند الجاحظ كان مسكيناً هزياً ومظلوماً.. ولكن القط
بسبس عندنا ثقیل الدم والوزن. ومن سوء الحظ أنه لا يعمل بمفرده فى
الغالب فهناك دائماً قواقيط بسبس يعملون تحت إشراف المعلم بسبس
الرهيب وفى هذه الحالة يكون اسمه بسبس كو.

وهل معقول يا ناس أن إنساناً كان سائق لورى سنة لا أدري كم. ثم
نكتشف فجأة أن له كذا شركة وكذا عمارة وفيللا وعزبة. إلا إذا افترضنا
أن يكون هناك شىء يمكن أن نسميه بسبس كومبانى ليمتد.. إنهم
عصابة ضخمة كانت تعمل بهدوء ولها معاونون فى كل مكان؟ وقد
كشفنا واحداً.. ترى كم قط بسبس آخر وشركاه؟ يعملون فى جد ونشاط
الآن ويتستنزون دمی ودمك..

وویل لنا جميعاً من القط بسبس.

إنه هو الذى يعطى التراخيص وهو الذى يحرس أبواب الجمارك وهو الذى يسجل الشركات المشبوهة والعقارات المختلصة وهو الذى يفتح الأرصدة فى البنوك تحت ألف اسم مستعار ومكذوب. ومادمننا نائمين على آذاننا فهذه ولا شك مملكة القط بسبس وشركاه.

هذا الملعون الخبيث إنه وراء مصائبى ومصائبك وويل لى ولك. ولصر كلها من القط بسبس والدكتور بسبس والمعلم بسبس ونسوانه وأولاده وأولاد أولاده وأقاربه أجمعين.

غريب فى وطنى*

خلال السنوات الأخيرة يطاردتى فى أحيان كثيرة شعور غريب بأننى لست فى مصر. أو أننى أعيش بعيداً عن مصر التى نشأت فيها وأحببتها وتمنيت وأنا صبى ثم شاب أن أكون أحد العاملين المخلصين فى خدمتها أننى غريب فى وطنى لا أدرى لماذا أشعر أن الناس ليسوا هم الناس ولا المناظر التى ألفتها هى نفس المناظر.. حقاً إن الدنيا كان لابد أن تتغير ولكن الذى أعرفه أن كل بلد ينبغى أن تكون له خصائص أساسية لا يمكن أن تتغير فى صميمها حتى يظل البلد هو نفس البلد. وتظل له نفس الخصائص المميزة لشخصيته فقد درست وعشت طويلاً فى سويسرا وكان ذلك من نحو أربعين سنة. وسويسرا بلد يساير الزمن ولا يتوقف التطور فيه قط. ولكننى أعود بين الحين والحين إلى بازل وزيوريخ وبرن ولوتسرن فأحس أن هذه البلاد لازالت هى هى. لم تتغير شخصيتها ولم يتبدل الإطار العام للحياة فيها. وزيوريخ التى عرفتتها أكثر من غيرها لازال نفس البلد كما هو رغم التطور الشامل فى كل شىء..

الباتھوف شترایس لازال هو نفسه كما عرفتته وأحببتته. وميدان بيركلى المطل على البحيرة لازال يزدان بأزهاره المختلفة الألوان. وميدان براده - بلاتس لازال كما هو فهذا هو البنك الذى كنت أصرف منه شيك مرتب البعثة. لقد تغير نظام العمل فيه تغيراً تاماً وأصبح كله إلكترونيا ولكنه لازال كما عرفتته ومحل الشيكولاته الممتع لازال هناك، والبنات البائعات ورثن الابتسامة والظرف والرغبة فى الخدمة عن سابقاتهن. فمحطة الترام لازالت أنيقة والترام نفسه لازال كما عرفتته حتى ألوانه الزرقاء الزاهية لازالت باقية كما هى.. ولازال لى مكانى

* نشرت هذه المقالة فى ٢١ نوفمبر ١٩٨٢ م.

فيه ، وهو إذا وقف انتظر حتى نركب كلنا فى هدوء ثم يمضى وأرقام الخطوط هى نفس الأرقام: رقم ٨ يذهب إلى ميدان المحطة ثم محطة سنترال ثم شارع شتاينبوك. ورقم ٦ يذهب إلى الجامعة. ورقم ٣ يذهب إلى شمال البلد: إلى رومر - هوف حيث كنت أسكن..

هنا فى القاهرة لم أعد أدري أين أنا: الشوارع لم تعد هى الشوارع ولا الناس هم الناس. حتى الشارع: هنا كانت فيلا أنيقة هى تحفة فى الهندسة تحيط بها قطعة من الجنة هذه زالت وحلت محلها كتلة جامدة من الأسمنت والحديد والألومنيوم والزجاج. والذين يسكنون فيها خلق عجيب وجوهم عابسة كالحة، وكل منهم عنده سيارة أنيقة ولكل ابن من أبنائه سيارة وبناته القبيحات يلبس البلو - جينز وقمصانا رجالية يرخونها خارج البنطلونات ويحسبن أنفسهن أمريكيات: هالو ميمى! هالو توتو! باى باى! تقفز القردة فى الشيفروليه - كامارو وتنطلق بها كالصاروخ..

والسيد أبوها لم يتعود بعد على لبس البذلة. سمعنا أنه تاجر خردة وأنه كان إلى سنتين أو ثلاثة يرفل فى الجلباب واللاسة ثم دخل سوق الشياطين التى يسمونها الاستيراد والتصدير وانصب المال فى جيبه انصبابا وانتقل من بولاق إلى هنا وابنه محمد أصبح حمادة بيه وابنه زكى أصبح زيكو بيه وابنته سنية أصبحت سونيا والأخرى بثينة أصبحت بوسى وسعادة البيه أنفق ٣٠,٠٠٠ جنيه فى عمل الداكور.. لشقته. وقبل أن يفتح له السائق باب السيارة الأنيقة يبصق سيادته على الأرض ويلقى منديلا ورقيا قذرا وينجعص فى السيارة وتمضى به إلى جهنم..

أين مصر التى عرفتها يا ناس؟ هل أنا فى مصر أو فى بلد آخر؟ هل أنا لم أعد أنا. أم مصر هى التى لم تعد مصر؟ من منا الغريب عن الآخر؟ ولكن صديقا كويتيا ممن تعلموا فى مصر فى الخمسينات ثم

شغلوا فى بلادهم أرفع المناصب يقول لى : تصدق يا فلان : عندما أتينا فى البعثة إلى مصر أواخر الأربعينات لم نصدق أننا فى مصر. كانت الشوارع جميلة أنيقة فيها أشجار وفيلات. كان الترام جميلاً وكان الكومسارى مهذباً وكانت الجامعة حرماً للعلم فعلاً لقد درست فى قسم الجغرافيا فى جامعة القاهرة.. وكان الأساتذة علماء أجلاء تحسد نفسك لأنك تدرس عليهم: عباس عمار ومحمد عوض محمد ومصطفى عامر وعبد المنعم الشرقاوى وسليمان حزين وكان العمل فى مكتبة قسم الجغرافية متعة وكانت دار إقامتنا فى الزمالك وكنا نسير بعد الظهر فى شارع ٢٦ يوليو ونشعر أننا فعلاً فى أجمل شوارع الدنيا وكنا ندخل السينما فنستمتع بكل شىء: بالقاعة وبكراسى القטיפىة وبالفيلم الجميل وبعد السينما كنا نأكل المكرونة بالفرن ونحن وقوف كانت «المكرونة بالفرن» فى بوفيهات سليمان باشا وشارع فؤاد أجمل طعام فى الدنيا ثم نأخذ الترام عائدين إلى دارنا ونحن نشكر الله من أعماق قلوبنا. لأنه يسر لنا فرصة الدراسة فى القاهرة وفى جامعته العظيمة، أين هذا كله يا فلان؟ ماذا فعلتم بمصرنا وقاهرتنا؟ كيف ساغ لكم أن تبددوا من أذهان العرب هذا الحلم الجميل؟..

إذن فلست أنا وحدى الذى يشعر أنه غريب فى مصر. مصر نفسها لم تعد مصر، ولهذا فأنا فيها غريب.. عندما أريد أن أحس أننى فى مصر فإننى أسافر بعيداً إلى لندن مثلاً وأجلس فى حدائق الريجنت بارك ويسرح بصرى فى الخضرة، الخضرة تذكرنى بخضرة مصر التى تتلاشى يوماً بعد يوم كان أستاذى عبد الحميد العبادى يسكن حى الروضة، وشارع المنيل كان معظمه حقولاً كنت أسير بينها حتى أصل إلى بيته، وكان رحمه الله يسكن فيلا وسط الخضرة وكنا نخرج معاً نتمشى ونحن نتحدث فى التاريخ وذكريات تلك الأيام ونزهاتها وأحاديثها مع أستاذ

وسيم جليل هي التي أحلم بها عندما أغمض عيني وأنا جالس في رياض الريجنت بارك. إنها مصر التي أبحث عنها الآن فلا أجدها..

وعندما أعود إلى مصر وأنا في المطار أشعر بالغربة هذه ليست مصر، وصعاليك سائقى التاكسى على باب المطار ليسوا مصريين وعندما مضى بى السيارة نحو بيتى فى شوارع خانقة مخنوقة فإننى أتوه فى عالم غريب يذكرنى بأنقرنو دانتى فأصوات أبواق السيارات تقلق الجن والمطبات تخلع عظام الجسد، وعسكرى المرور نصف نائم والإشارة الحمراء لا تحترم وعادم السيارات يملأ الجو، وصعلوك فى سيارة إلى جانبى يبصق من النافذة وناساً أراهم من زجاج السيارة بلا وجوه وبشرًا دون بشرية ونساء بلا أنوثة رءوسهن محشورة فى شىء يشبه نصف جورب قديم وشباب متسكع يقطع الشارع عدوا بين السيارات كأنهم قروء، ورجال فى أسمال يبيعون الهواء والسيجارة لا تفارق مناخيرهم. أما كيف يعيشون ومن أين؟ فهذا سر عظيم..

وهذه القاهرة التى تختنق بألوف علب الصفيح التى يسمونها سيارات وألوف الألوف من ناس كلهم غاضبون ساخطون هذه القاهرة تغوص فى الأرض يومًا بعد يوم وستصبح فى المستقبل مثلاً بومبية مدينة تحت الآكام بعد أن طمرها البركان. إننا نبنى للناس ممرات علوية فيأبوا السير عليها ويفضلون أن يتسللوا قفزا بين السيارات كأنهم قرودة أو أغناز لأن أحداً لم يعلمهم كيف يتصرفون كمواطنين محترمين فى مدينة جليلة لها احترامها، وفى كل ناحية وزير بلا وزارة ومحافظ بلا مدينة وبلد بلا عمدة وبوابة بلا بواب ومكاتب عظيمة وسكرتاريات ولجان وسيارات للمحافظين ونواد للمحافظين والسادة المديرين للشئون العامة وكل هؤلاء موظفون كبار وكلهم يقولون إنهم يبنون القاهرة سنة ٢٠٠٠ وهم يقولونها دون خوف ففى سنة ٢٠٠٠ لن نكون نحن هناك ولا هم يكونون، إنما ستكون هناك أنفاق بلا مترو لأن المترو سيكون قد تلاشى

وتعطلت قطاراته وعرباته جميعا كما تلاشى الترام، وسيصدر المسئولون عن قاهرة سنة ٢٠٠٠ قرارا بإعدام المترو كما أصدر المسئولون اليوم قرارا بإعدام التروى باص بعد الطبل والزمر الطويل، ولكن الأنفاق ستبقى مطمورة تحت الأرض مثل الأنفاق المسيحية أو الكاتا كمومز تحت حى كوم الشقافة فى الإسكندرية ولا بأس بذلك أيضا ففى سنة ٢٠٠٠ ستكون الفيوان قد توطنت القاهرة أو ما كان بالأمس القاهرة، والأنفاق للفيوان. أما الناس فسيكونون قد انتقلوا إلى الجبانات ورقدوا هنا فى انتظارا أن يكتشف مقابرهم المستر هوارد كارتر واللورد كارنرفون..

وقد يتوهم بعض من يقرءون هذا الكلام أننى أكتب وفى ذهنى نقد لرجال الحكومة، وهذا أبعد شئ عن خاطرى لأننى أعرف أن أى حكومة فى الدنيا لا تستطيع مهما صلحت أن تفعل أكثر مما يستطيعه الشعب، بالضبط كما أن أذكى الآباء وأقدرهم لا يستطيع أن يفعل شيئاً لابنه البليد أو الغبى. وقد انتهى العصر الذى كانت الحكومة فيه تعتبر نفسها راعياً والشعب رعية وأصبحنا كلنا مواطنين متساوين، وأنت والوزير والمدير والخفير واحد، وحتى كبار المسئولين ليسوا سحرة أو صناع أعاجيب فلماذا نطالبهم بالأعاجيب؟ ومهما تبلغ قدرة المسئول الكبير على العمل فهو لا يستطيع أن يعمل أكثر مما يتحمله جسده، وقد عرفت وزيراً كان يأخذ معه كل يوم إلى البيت حقيبتين مليئتين بالأوراق ويزعم لنفسه أنه سيدرسها فى البيت. وفى البيت يتعشى ويجلس إلى المكتب ويقرأ بضع أوراق ثم يتشاءب ويغلبه النوم فينهض وينام، ونفس الحقيبتين تعودان إلى الوزارة يحملها الفراشون أنفسهم، والناس يسألون والسادة الوكلاء يقولون إن الأوراق فى مكتب السيد الوزير لم يبت فيها بعد وظل الأمر على ذلك حتى تغيرت الوزارة، والحقيبتان أصبحتا اليوم أربعاً. وأربعة فراشين يحملون كل يوم أربع حقائب ويسيروا خلف السيد الوزير ويعودون فى اليوم التالى بحقائبهم

خلف السيد الوزير. وفي الوزارة القادمة سيصبح عدد الحقائق ستا وعدد الفراشين ستا وستظل الحقائق تروح وتجيئ إلى قيام الساعة، وستقوم القيامة إن شاء الله عندما يعود وزير إلى وزارته في الصباح وقد قرأ كل الأوراق وأشار بقلمه بما يصنع في كل منها.. هنا ستكون نهاية الزمان فعلاً..

أقول ذلك لأننى أرى أننا فى مسائل الإدارة والتاريخ لازلنا أميين ونحن لم نعرف بعد أن زمن الحكومة التى تصنع كل شىء قد انتهى، ولويس الرابع عشر حكم على أسرة البوربون بالموت يوم قال: الدولة هى أنا، لأنه عندما قال ذلك حمل نفسه أوزار الدنيا والذين حكموا على حفيده لويس السادس عشر بالموت فعلوا ذلك عقاباً له على أوزار لم ترتكبها، وجده «الملك الشمس» هو الذى حكم عليه بالموت، وأى وزير يسترسل مع الكلام ويكثر من التصريحات ويقول سأفعل كذا وكذا يحكم على نفسه بالموت السياسى، لأن الوزير أى وزير - لا يستطيع أن يفعل أكثر مما يستطيعه الشعب نفسه، وهو لا يملك أن ينقذ إلا ما يعرف مساعده كيف ينقذونه، وحتى إذا افترضنا أن السيد الوزير عبقرى فنحن لا نضمن بدهة أن يكون كل مساعديه عباقرة، وإذن فستظل عبقريته جوهرة مصونة فى دماغه، وفى زماننا هذا لم يعد الوزير حاكماً وإنما هو منسق ومنظم ومفكر ومخطط، وهو قطعاً ليس راعياً ولا نحن رعية..

والذى أريد أن أقوله هو أننا لسنا على حق فى شكوانا من الدولة فنحن المسئولون من البداية إلى النهاية لأن الشعب إذا أراد استطاع أن يفعل ما يريد وما يراه من صالحه وما هو من صالح الشعب فهو - بدهة - من صالح الحاكم، والحاكم يريد أن يرى الناس يصنعون الصلح دون أن يستحثهم على ذلك أحد. هنا يستريح الحاكم وتخف مسئولياته

وهناك حكمة تقول: إن أنصف الناس استراح القاضي أو أنصف القاضي استراح الناس..



أقول ذلك لأننا - كشعب - لازلنا نتصرف على أننا رعية نحتاج إلى راع، ولا يمكن أن يهين شعب نفسه بأكثر من اعتبار نفسه رعية أى غنماً لابد أن ترعى بعصا أو تحرس بكلاب، وسلطة الحاكم يحددها الشعب نفسه..

فإذا كان الشعب نشيطاً عاملاً ذكياً واعياً أميناً مع نفسه قائماً بمسئوليته فإن الدولة لا تستطيع أن تفرض نفسها عليه أو تمارس عليه سلطة لا يريدتها، ومثل الدولة مع الشعب فى هذا مثل الرئيس مع المرءوس فإذا كان المرءوس قائماً بواجبه مؤدياً ما عليه لم يعد له فى الحقيقة رئيس، وأنا شخصياً فى كل عمل توليته كنت ألغى رئيسى بأن أقوم بواجبى على الوجه الأكمل فلا يبقى له عندى شىء وكل رئيس عمل لا يمارس سلطانه إلا على المهمل والمقصر والعاجز أما الكفاءه المواظب على العمل القائم بمسئوليته فماذا يعمل معه الرئيس؟..

فإذا كانت مصر قد تغيرت وإذا كانت الأحوال فى مرافقنا لا تسير على النحو الذى نريد فنحن المسئولون، وقبل أن نطالب الحكومة بشىء علينا أن نقوم بواجبنا ونتحمل مسئولياتنا، وكيف والله نشكو من الحكومة إذا كانت شوارعنا غير نظيفة، وهل من الممكن مثلاً أن تقيم الدولة لكل بيت عامل نظافة يرقاه؟! إن القذارة عندنا تبدأ من داخل البيوت، وماذا تفعل الحكومة لنا داخل البيوت؟ إن بعض سيداتنا يرمين زباله البيت من النافذة إلى الطريق، فقل لى والله ماذا تفعل أى حكومة فى الدنيا مع سيدة من هذا الطراز، وفى معظم بيوتنا نجد مدخل البيت لا يسر وسلالم البيت لا ينظفها أحد، وهناك قانون يقول

بأن سكان كل بيت أو ملاكه لابد أن ينشئوا لجنة سكان أو لجنة ملاك
ترعى بيتهم، فكم بيتًا أنشأ سكانه لجنة فعالة كهذه. كلنا نلقى
القاذورات على السلم ونشكو من قذارة السلم! وكلنا نصعد بسياراتنا،
على الرصيف ثم نقول أين الرصيف؟ من الذى يحطم الرصيف؟..

إن الدولة تبني المساكن الشعبية وتسلمها للناس ثم تمر بعد سنة
بالبيت فتراه يكاد يتحول إلى حطام، فكيف يكون هذا تصرفنا ثم نشكو
من الحكومة؟ إن أسوأ المساكن فى مصر هى المساكن الشعبية، والمساكن
الشعبية تتحمل الدولة الكثير فى إنشائها وتسلمها للناس ليعيشوا فيها
ويحترموها، فانظر والله ماذا يفعلون بها إن بين كل بيتين مساحة
المفروض أنها تتحول إلى حديقة، ولكن الناس يجعلونها مزبلة
ثم يشكون! يا للعجب!!..

هذه المساكن الشعبية فى أوروبا قطع من الجنة، ولقد زرت فى
مدينة تورينو فى إيطاليا المساكن التى أنشأتها شركة فيات للعمال، إنها
تسلمهم إياها بإيجار لا يكاد يذكر، وعليهم أن يقوموا برعايتها وهم
بتعاونهم فى ذلك ومجهوداتهم المشتركة يجعلونها قطعًا من الجنة،
بمجرد أن يتسلموها ينشئون لجنة لرعاية البيوت، وأهل كل بيت لهم
لجنة مسئولة عن كل شئ فى البيت إلى بابه، ثم تقوم لجنة حى
المساكن الشعبية برعاية الحى كله: ينشئون الحدائق وأماكن للعب
الأطفال، وينشئون لعبات لأطفالهن ويتناوبون على حراستها ورعايتها،
وقد رأيت مجموعة من هذه البيوت فى شكل مربع كبير فى وسطه
مساحة واسعة يعلوها حديقة ومتنزها وملعبًا للأطفال، والأطفال يلعبون
وأعين أمهاتهم عليهم، والمسنون والمتعبون يجلسون على مقاعد خشبية
يستريحون من ناحية ويراعون الأطفال من ناحية، جلست فى هذه
الحديقة أتأمل الأطفال ووجدت نفسى أشترك فى رعايتهم وقلت لنفسى

حقًا إن الناس لا يستطيعون أن يفعلوا لك أكثر مما تستطيع أنت لنفسك.

وفى مدينة العمال فى تورينو مراكز تموين يديرها السكان أنفسهم، هم الذين يعينون الموظفين ويشرفون عليهم والشركات تقدم لكل مركز حاجياته من لحم أو خضر أو سمك أو خبز، وإلى هنا تنتهى مسئولية الشركة والباقى على الناس، والناس يراقبون الجمعية وموظفيها وكل واحد منهم يأخذ نصيبه القانونى من كل شىء دون زيادة، ولا يجرؤ موظف الجمعية هناك على أن يتصرف فى رغيف خبز أو قطعة صابون إلا بحسب النظام الموضوع، ولا تجد فيها شجارًا ولا نزاعًا لأن الناس يحترمون أنفسهم ولأنهم يحترمون أنفسهم فإن الناس يحترمونهم، والعاملون والعاملات فى الجمعية يعملون بدقة وأمانة لأن أعين الناس مفتوحة، كلهم يعلمون بروح الأسرة، كلهم يحملون المسئولية.

فإذا كنت تجد فوضى فى جمعياتنا التموينية فاعلم أننا نحن المسئولون، كل منا يدخل لينهب لا ليأخذ نصيبه فحسب، وموظف الجمعية لا يلام إذا أساء معاملة الناس أو إذا تصرف فى مواد التموين على هواه، لأنه يعلم أنه يتعامل مع ناس لا يحترمون أنفسهم ولماذا يحترمهم إذا كانوا يفعلون بأنفسهم ما نعرفه جميعًا..

ولو كنا نحن نراعى الله والضمير واحترام النفس فى تعاملنا مع الجمعية لما اندست فى طوابيرها جماعات الدخلاء والوسطاء والنسوان الكالحات الوجه اللاتى يشتريان أصناف التموين لبيعنها بعد ذلك فى السوق السوداء، والسوق السوداء من أولها لآخرها من صنع الشعب لا من صنع الحكومة، نحن الذين نهرب، ونحن الذين نرتشى، ونحن الذين نغمض أعيننا على القذى ثم نشكو الرمد..

وإذا كنا نحترم أنفسنا فيها كنا نرضى أن نقف فى هذه الطوابير
الذليلة أمام البقالات فى انتظار السجائر؟ إننى واثق من أن كميات
السجائر التى تصنع فى مصر كافية لكل المدخنين ولكننا نتكاسل
ونتساهل ونشتري بعض ما نحتاجه من السوق السوداء ومادمننا نفعل
ذلك فإننا نشجع السوق السوداء بل نحن نوجد لها ومادمننا نحن
المسؤولين عنها فلماذا نشكو؟ ولماذا ندعى أننا مظلومون ونحن ظالمون؟..



وما رأيت فى حياتى موظفًا عامًّا يسيء معاملة مواطن إلا إذا أحس
أن المواطن مستعد للتهاون فى حقه وفى كرامته أيضًا. نحن ننتظر
الموظف الذى يتأخر فى الحضور إلى مكتبه فإذا حضر داعبناه وتملقناه،
وما من مرة وقفت أمام موظف متهاون وأظهرت الحزم والجدية واحترام
النفس إلا انصاع أمامى واحترم نفسه، وأمام شباك التذاكر فى محطة
سيدى جابر رأيت عامل التذاكر قدم علينا إنسانًا فى غير دوره فأنتهرته
وأنتهرت المواطن، وحاول مرة أخرى أن يعطى تذكرة لفراش دخل عليه
من باب الحجرة فعدت أحتج وهنا أيدنى الناس وانتظم العمل فى
طابورنا، ولا يمكن أن أتساهل مع موظف لى عنده مصلحة لأننى أعرف
أنه جبان لا يتحمل تبعه تصرفه الخاطئ.

فإذا كنا نسمع عن مختلسين ومهملين ومقصرين ومرتشين فنحن
المسؤولون عن أعمالهم جميعا، حقًا إن بعض الرؤساء يتراخون مع
موظفيهم ولكنهم يفعلون ذلك لأن التراخى يبدأ من عندنا نحن، وكل
الذين نتحدث عنهم ونقول إنهم جمعوا الملايين من أموال الشعب فعلوا
ذلك لأنهم يستهزئون بنا ولا يحترمونا قط، وهل كان من الممكن أن
يفعل بعض الأشخاص الذين تحقق معهم السلطات اليوم ما فعلوا
إلا ولهم معاونون منا ومشاركون لهم فى الجرائم من بيننا: مشاركون بل
شركاء يعملون فى الجمارك وإدارات التراخيص ومكاتب الرقابة،

والكثيرون منا كانوا يعلمون الكثير ويسكتون، ويكون أقصى ما يفعلونه هو الشكوى والنجوى بعضهم إلى بعض، وحالهم فى ذلك حال الرجل يعلم بخيانة زوجته فلا يكون منه إلا أن يشكو امرأته إلى الناس، ومعدرة إذا أنا لجأت إلى هذا المثل الجارح للحشمة، ولكنى لجأت إليه لأننى أعرف أن عصب النخوة للعرض عندنا حى وشديد الحساسية، ومسألة العرض أو شرف العائلة عندنا حية جداً. ولهذا فأنا أقول لأخى المواطن إن الوطن كله هو عرضنا جميعا وشرفنا كمواطنين فإن الذى ينتهك حرمة القانون تحت بصرنا ونحن سكوت هو فى الواقع يعتدى على أعراضنا جميعا، وإذا كان الواحد منا لا يحتمل كلمة فى حق امرأته أو بنته أو أخته فكيف يحتمل العدوان على عرضه الأكبر وهو الوطن وهو ساكت؟.

إننا نشكو من العدوان على أرض الدولة وأملاكها مع أنه كله يقع تحت بصرنا ولا نتحرك، وليس هناك لص واحد إلا وهناك ألف إنسان يعرفون أنه لص ويسكتون؛ وهم فى هذه الحالة لصوص مثله، وقد حدث مرة أن أطللت من نافذة المطبخ فى بيتى فى حى المنيل من نحو ثلاثين سنة فرأيت عربة تفرغ رملا وأخرى تفرغ طوباً فى أرض فراغ وراءنا، وكنت أعرف أن هذه أرض أوقاف فهى ملك المسجد المجاور لنا ومضيت بسرعة لأجد رجلاً أصلع أقرع يقف ويأمر العربات بالتفريغ فسألته عما يفعل فقال:

— هل هذه الأرض أرضك؟.

— نعم هى أرضى، إنها أرض الأوقاف وهى تبع لهذا المسجد.

— وهل أنت مندوب عن وزارة الأوقاف؟.

— لا. ولكنى مواطن أعرف أن هذه الأرض أرض الحكومة، ولا يجوز

لك البناء فيها.

وتشاددنا وتلاحينا وتشددت فى موقفى وتعالى أصواتنا وتجمع الناس فلما رأونى متعافياً قوياً انضم بعضهم إلى وأصبحنا بعد قليل جماعة، وطالبنا الرجل بإثبات ما زعم من ملكيته للأرض، وكان بعض الباعة قد استعمل أطراف الأرض المظلة على الشارع لبيعوا فيها أشياءهم فاستعديتهم عليه، وبعد قليل وجد الرجل نفسه فى موضع سيئ فانصرف وهو يتهدد ويتوعد زاعماً أنه يشكو إلى البوليس فلاحقت به والناس معى وأصررت على اقتياده إلى مركز الشرطة وتخرج مركز الرجل وأحس أنه لص وأصبحت غاية همه أن يفلت من يدنا وتركناه يمشى وطلبت إلى الناس أن يبددوا الطوب فبددوه فى لحظة، وهددنا العمال الذين أتى بهم الرجل فانصرفوا ثم أخذت بعض الناس وذهبت إلى نقطة البوليس وحررنا محضراً ضد الرجل وتردد ضابط الشرطة لأنه لم يكن يعرف ماذا سيفعل لهذا المحضر ولكنى طمأنته وبعد تحرير المحضر وتوقيعه من بعض الحاضرين ذهبت به فى اليوم التالى إلى وزارة الأوقاف وتحدثت مع مدير إدارة الأملاك ثم إلى وكيل الوزارة وكنا نعرف هذا الأصلع الأقرع وعنوانه فصدر بعد أيام تنبيه من الأوقاف إلى الداخلية ثم إلى نقطة البوليس، وأنقذنا أرض الدولة بذلك، ويلقانى الرجل بعد ذلك ويقول: لقد أضعت رزقك بنفسك كنت سأبنى بيتاً من عشرة طوابق، ولو أصغيت لى لأهديتك طابقاً كاملاً، ولكن ليس لك فى الطيب نصيب! وأقول له نصيب فى عينك! وهى فى السرقة شىء طيب يا أصلع يا أقرع يا حرامى!.

أتريدون أن نسترد معاً مصر الجميلة؟ هل تريدون أن تستعيد جمالها وبهاءها وأن يتلاشى شعورنا بالغبرة فيها؟.

إذن فاسمعوا هذا المثل من الواقع.

عندما انتهت الحرب العالمية الأولى كانت مصر حماية أى مستعمرة بريطانية، وكانت بريطانيا تنوى أن يستمر احتلالها إلى الأبد، وكان

يؤيدها فى ذلك سلطان البلاد، يؤيد الاحتلال، وحكومتها برئاسة محمد سعيد باشا كانت مستعدة للتسليم بالاحتلال، وهى والوزارات التى جاءت بعدها وقفت موقفاً معادياً لاستقلال مصر.

فنحن الذين استعدنا مصر من أيدي الاحتلال ومن تحريرها نحن أبناء مصر.

نحن أيدئنا سعداً وأصحابه ووقفنا معهم وحاربنا الإنجليز والسلطان فؤاد وحكومات الاحتلال، نحن ضحينا وحاربنا واستعدنا مصر ونحن اليوم نعانى من احتلال ربما كان أبشع من الاحتلال الإنجليزي.

نحن نعانى من احتلال بعض المصريين لبلادنا: اللصوص وتجار السوق السوداء والمهربون والمرتشون والمهملون والفوضيون والذين لا يحترمون هذا الشعب لأنهم لا يحبون مصر هؤلاء هم المستعمرون الجدد، هؤلاء هم الذين يجعلوننا نشعر أننا غرباء فى بلادنا.

ونحن بتهاوننا وسكوتنا وتراخيها وعدم مبالتنا نقوم بدور وزارات الاحتلال: نشجع كل هؤلاء على احتلال بلادنا وإفساد طبيعتها وشكلها وتشويه سمعتها وتضييع أموالها والهبوط بمكانتها.

نحن - كل منا فى موقعه - متآمرون على مصر متهاونون فى حقوقها مضيعون لمصالحها والساكت عن الحق شيطان أخرس.

نحن نحكم على أنفسنا بالغربة فى بلادنا.
تريدون أن نعود إليها؟ تريدون أن تعود مصر الجميلة جميلة؟ إذن فلنبداً كل منا فى موقعه..

ولتكن نقطة البداية عناية أهل كل بيت منا ببيتهم وأهل كل شارع بشارعهم وأهل كل حى بحيهم، إن الطريق طويل ولكن أقصر الطرق تبدو طويلة فى نظر النملة، وأطول الطرق تبدو قصيرة فى نظر الفهد النشيط القوى وحذار أن نرضى بأن نكون نملا وحشرات هنا تطؤنا الأقدام، ونكون نحن المسئولين.

لقد انتصرنا وأثبتنا أننا شعب عزيز يملئ إرادته على التاريخ أيام كنا
فى حكم الظالمين فما أجددنا اليوم بالمحافظة على بلادنا جميلة زاهرة
والدولة اليوم دولتنا ورجالها منا وبنا ولنا.

إنما نحن الذين نحكم على أنفسنا بالغربة فى بلادنا لأننا ننسى أن
مصر كلها أسرة وأهلها كلهم أبناء عم أو أبناء خال، وهل لنا جميعا أم
إلا مصر أو أب غير النيل؟.

نار اسمها الفلوس*

الفلوس حلوة بديهية لا تحتاج إلى بيان، فالناس جميعا يفهمونها ويرددونها حتى الصبيان والغلمان..

وأكثر من ثلث الأدب العربى كله نثرًا ونظمًا يدور حول الفلوس، إنه أدب تسول، ومحوره المال وفضل المال وأساليب استخراج الدنانير من جيوب الحكام والناس العظام، وأديب عربى عظيم وفيلسوف أيضًا يسمى أبا حيان التوحيدى ألف كتابًا ضخماً يعتبر من عيون الحكمة عندنا يسمى «الامتاع والمؤانسة» وهذا الكتاب كله شهادة فقر أو عرضحال تسول، وأبو الطيب المتنبى انفق نصف شعره فى التسول، ولكنه كان متسولاً منفوخاً يتحدث فى شعره عن المجد والعلا والسؤدد، ويده ممدودة تنتظر الدنانير، أما مهيار الديلمى - وهو من عبقریات الشعر العربى - فكان يكتب القصيدة العصماء يشحذ بها عشرة دراهم أو فروة خروف أو طبقاً من العاشوراء.. وعلى بن أبى طالب، قال لو كان الفقر رجلاً لقتلته، وهو لم يقتله لأنهم لم يمهلوه، والذين قتلوه هم الذين حكموا على أمة العرب بأن تكون أمة فقراء ومتسولين تأكل من يد السلطان، والسلطان كان اسمه معاوية بن أبى سفيان، وقاعدة الحكم التى وضعها معاوية ومن بعده تقول: إن الخليفة لابد أن يكون الغنى الوحيد وتكون بقية الأمة متسولين، وبناء على ذلك أصبح نهب أموال الناس حقاً من الحقوق المقررة للحكام، ثم جاء صعلوك يسمى أبا الحسن على الماوردى فجعل السرقات السلطانية حلالاً، وقال كلاماً كثيراً فى هذا المعنى فى كتاب سماه «الأحكام السلطانية»..

* نشرت هذه المقالة فى ١٦ يناير ١٩٨٣ م .

وحكامنا إلى أيام عبد الحميد والخديو إسماعيل كانوا لصوصاً، بل قطاع طرق، وأجهزة الحكم كانت تمارس سلطاتها على أساس أنها إدارات جريمة منظمة..

والمافيا لم يخترعها الصقليون، بل هي اختراع أموى عباسى، ووزراء بنى العباس هم أصحاب الفضل فى وضع قواعد ممارستها وتحويلها إلى نظم إدارية، وكتاب «الوزراء» لأبى هلال الصابى تستطيع أن تسميه دليلاً، وكتابه قواعد لممارسة المصادرات والسرقات وإهدار الأموال والكرامات بقوة السيف وسلطان الظالمين..

ومن خلال هذا الأدب الحزين كله وما نشأ عنه من ممارسات مخيفة تستطيع أن تقول إن خلاصة تاريخنا الاقتصادى كله أنه تاريخ فقر أسود. والمال الذى هو إحدى زينتى الحياة الدنيا أصبح على أيدى سفلة الحكام نقمة الحياة الدنيا، أما الزينة الأخرى وهى البنون، فإن الجاحظ يقول فى كتاب البخلاء إنهم نكبة وبلاء..

والقاعدة التى سار عليها الحكام هى أنه لا يمكن أن يكون فى البلاد إلا رجل غنى واحد، هو الحاكم، والباقى لابد أن يكونوا تعساء، ومعنى ذلك أن سعادة الحاكم شقاء للرعية، أما عصر السعادة للحاكم والرعية فقد انتهى بوفاة عمر بن الخطاب عليه ألف رحمة تنزل من الله..

وقد طبقت هذه القواعد فى مصر من أيام أحمد بن طولون الذى كان إذا سمع إن عند رجل مالا أو قصراً أو امرأة جميلة آله ذلك الما شديداً، ولم يسترح إلا إذا جرده من المال والقصر والمرأة جميعاً. والبلوى المؤرخ يقول إن أحمد بن طولون كان رجلاً رحيماً لأنه كان يكتفى بأخذ المال وإلقاء صاحبه فى السجن دون أن يقتله. فهو صاحب فضل على أى حال، وفى سجون أحمد بن طولون عاش ١٤٠٠٠ رجل فى سراديب تحت الأرض يسمونها «المطبق» وقد طبق حكام مصر هذه

القاعدة أيام الفاطميين الذين ضربوا أسوأ الأمثال فى نهب الرعية، والمعز لدين الله جمع ذهب مصر كله ووضعه فى سراديب تحت الأرض، كان لابنه العزيز وزير يهودى الأصل يسمى «ابن كلس» خلد اسمه فى التاريخ بأنه قضى وحده على صناعة النسيج فى شمال الدلتا وكانت أزهر صناعات النسيج فى العالم العربى؛ وذلك لكثرة الغرامات التى فرضها على الصناع فاقفلوا المصانع، وكان سلاطين المماليك أساتذة فى فنون السرقة والقتل والظلم، وآخرهم وهو السلطان قنصوه الغورى خرب بيوت الناس جميعا، وعندما أراد أن يبني جامعاً يتقرب به إلى الله سرق الرخام والنحاس والأخشاب من المساجد الأخرى، فسمى الناس جامع - وهو جامع السلطان الغورى الباقي إلى اليوم - بالمسجد الحرام..

والعثمانيون أسرفوا فى تطبيق هذه القاعدة حتى كان بعضهم يخطفون أولاد الناس ويبيعونهم ليحصلوا على المال. ومحمد على باشا بدأ حكمه بإصدار قرار يجعل كل أرض مصر وما عليها ملكه، والخديو إسماعيل باع للأجانب كل ما يمكن بيعه من مصادر الخير فى مصر، ووضع المال فى جيبه، وعندما نفوه من مصر خرج ومعه ٨ ملايين جنيه من الذهب، ويقول ابنه توفيق إنها كانت ١٣ مليوناً، لا ٨ ملايين، ويبدو أن المسألة أصبحت وراثية فى الحكام؛ لأن جمال عبد الناصر افتتح حكمه السعيد بمصادرة كل أموال الناس وابتكار ستار للسرقة يسمى الحراسة. وفى صباح يوم من أيام خريف ١٩٥٢م نشرت جريدة الأهرام فى صفحتها الأولى بياناً مخجلاً يتضمن أسماء كل المصريين الذين وجدوا عندهم مالاً، وصادروا ذلك كله لأنهم اعتبروا كل غنى لصاً، إذ لا يمكن أن يكون الإنسان غنياً وشريفاً فى آن واحد. وقد صفق الناس لهذه الجريمة البشعة واعتبروها بداية الإصلاح. وكانوا لسذاجتهم

يظنون أن هذه الأموال عليهم، ولكنهم لطموا الخدود بعد ذلك؛ لأنهم عرفوا أن الأموال المصادرة خرجت من جيوب ودخلت في جيوب أخرى، وشقق الحراسة وزعت بالعدل والقسطاس بين الغزاة، وأحمد عبود باشا عوقب لأنه أنشأ لمصر صناعات وشركات، فجردوه من أمواله ومات الرجل فقيراً منفياً في أوروبا، وشركاته العظيمة تولاها مديرون أكفاء جدد من أقارب الغزاة، وكان واحد منهم مدرس ألعاب رياضية فخرّبوها وجلسوا على تلها. والشركات التي أفلست وزعت أرباحاً على العمال: لأن جمال عبد الناصر أراد ذلك، وبأمر منه يزيد المطبوع من أوراق النقد ملايين، وكل ذلك إصلاح «اقتصادي» في رأى الفلاسفة، وإصلاح اجتماعي في رأى بعضهم الآخر، والمسألة هنا مسألة اجتهاد، ولكل مجتهد نصيب في أموال الحراسات وشقق الحراسات وكله في العيلة.. والسرقات تصبح حلالاً بقوانين. وكان هناك صحفى كبير وظيفته الأولى الدفاع عن ذلك كله..

وكل هذا التاريخ غير الزاهر جعل المال بالنسبة للمصرى أمراً غريباً، فهو لا يعرف كيف يؤكل أو كيف يشرب، وهو معذور، وعندما جاءت ثورة التصحيح وكانت ثورة حقاً بالنسبة لتاريخ مصر كله، ولو لم يكن لأنور السادات غير هذا الفضل لكفاه، فللمرة الأولى من مئات السنين أمن المصرى على نفسه وماله، وأصبح العدوان على مال الناس جريمة أما مال الدولة فلم توضع قوانين للتصرف فيه، لأنه ليس مالاً مصرياً، بل مال الشيطان، ولهذا فقد طردوا رئيس ديوان المحاسبة وأغلقوا الدكان وعلقوا على بابه لافتة تقول: مغلق للتحسينات.. وجاءت قوانين الانفتاح، واندفع الناس فى سعار جمع المال، وأصبحت المسألة حمى شملت الجميع، فجأة تحول الناس جميعاً إلى طلاب مال وغنى، وأصبحت المسألة سباقاً مشترك فيه كل الناس: الطيب

والمهندس والمدرس والمحامي والنجار والسباك والمبلط وبواب العمارة وبائع الفول المدمس وبائع الذرة المشوية وسائس الجراج ومنادى السيارات وكلهم أرادوا أن يكونوا أغنياء فى نفس الوقت وبأسرع ما يستطيعون..

وظهرت حكاية الاستيراد بدون تحويل عملة أجنبية، وألوف الناس تحولوا من صعاليك إلى تجار، وبائع اللب والسميط والروبابيكيا والوزير المفوض السابق افتتحوا مكاتب تصدير واستيراد. كلهم يصدرون شيئاً واحداً هو الجنيه المصرى. يجمعونه ويبادلونه بالدولار بأرخص سعر، المهم أن يحصلوا على العملة الأجنبية، وهنا يبدأ الاستيراد.. استيراد كل شىء هايف وغير مفيد وبيعه فى مصر بأعلى الأسعار لناس كانوا يحتاجون لكل شىء والقاعدة تقول: اشتر أى شىء واضرب الثمن فى عشرة وأدخل به السوق الحرة. وفى بورسعيد أتعس سوق حرة فى الدنيا، إنها حرة للبائع ولكنها سوق عبيد للمشتري، والمشتري فى الغالب من نوع البائع، وكلاهما يغش الحكومة ويغش الناس، ويسرق مال النبى، المهم أن يغتنى، وهم يشترون أسوأ أصناف البضائع من أرصفة نابولى وحوارى ميلانو، ثم يضعون عليها «اتيكيئات» من أرقى محلات لندن وباريس، وبالأمس فقط رأيت واحدا منهم يشتري أغذية مقاعد سيارات فى ميلانو، يشتريها بخمسة عشر دولارا ليبيعها فى مصر بمائة وخمسين جنيها وهو يسمى ذلك تجارة، بالضبط كما كان المعز الفاطمى ومحمد على باشا يسميان السرقة تنظيماً اقتصادياً، وعبيد الله الفاطمى أول خلفاء الفاطميين فى المغرب بلغ القمة فى التضليل، فعندما غدر بوزيره وداعيته أبى عبد الله الشيعى وقتله، قال: إنه أكرمه بذلك، فقد طهره بذلك وأعد له لدخول الجنة طاهراً من الذنوب كما ولدته أمه وليس هذا كلاماً من عندى بل هو وارد على لسان داعى دعاة الفاطميين القاضى النعمان بن محمد فى كتاب «افتتاح الدعوة»..

وحمل الفلوس التي انتابت المصريين جميعا ابتداء من سنة ١٩٦٠م أصبحت مع الزمن نارا بل حريقاً هائلاً، كل واحد منا يحرق الآخر: تاجر الجملة يحرق تاجر القطاعي وتاجر القطاعي يحرق العميل، فإذا كان العميل طبيباً فهو يحرق المريض، وإذا كان مهندساً فهو يحرق المقاول، والمقاول يحرق صاحب المبنى، وإذا كان صاحب المبنى هو الحكومة لم يكتفوا بحرقه.. بل لابد من حرقه وأكل لحمه مشوياً، وإذا كان صاحب المبنى غير الحكومة فإنه يبيع مبناه شققاً ويحرق كل من يشتري منه. وإذا كان الحصول على خلو الرجل من الناس محرماً فإن حرقهم حلال، وليس هناك قانون ينص على عقوبة لهذه الجريمة، وهناك ألف طريقة لإحراق الناس حرقاً حلالاً: تعال إلى قطعة أرض وساوم أصحابها واشتراها منهم شراء مبدئياً، وضع لافتة تقول: إنك ستبنى هنا عمارة من عشرة أدوار، والبيع على الخريطة، والخريطة غير موجودة. في الأسبوع الأول ستحصل على ثمن الأرض وتدفعه، وفي الثاني تدفع للمقاول تكاليف الدور الأول وتقبض من الناس وتبنى الثاني، وهكذا حتى تحصل على ثمن الأدوار العشرة، وتبنى أنت على مهل والناس تنتظر، ومن يرفض الانتظار فهذه نقوده، وتبنى الأدوار العشرة أى كلام، وتسلمها وتعلن عن ١٠ فوقها، وتبنى دون ترخيص ولا يهملك، فإن القانون لا يلزمك إلا بغرامة ألف جنيه عن الدور، وأنت تبيع الدور بمائتي ألف جنيه، وعمارة والثانية وتصبح مليونيراً، وتفتح مكتب مقاولات، وابنك الخيaban يصبح مهندساً استشارياً، وابنك الثاني يصبح مديراً لمكتب تصدير واستيراد، وابنتك تصبح - بالواسطة - مرشدة سياحية وتتزوج عريساً «قد الدنيا» وتصبحون جميعاً ذواتاً أبناء ذوات، الأولاد طول النهار في النادي، والبنات يجمعن كاسيت أحمد عدوية وخوليو ايجليسياس، وأنت باسم الله ما شاء الله متربع في المقعد الخلفي للمرسيدس أو الفولفو، وفيلا في المهندسين وأخرى في المعمورة

وثالثة فى العجمى والبقية تكتبها باسم الست حرمك أو الهانم بنتك أو المحروس ابنك أو زوج بنتك..

ونار الفلوس أصبح لها مقياس وهو عم سيد السباك، وعم سيد السباك أصبح المثل الذى يحتذيه الجميع فالطبيب يفرض عليك عشرين جنيهاً أجراً للكشف يحصلها منك شيخ خفر يسمى الممرض قبل الدخول، وتنتظر ساعتين أو ثلاثاً لكى يجرى دورك فى دخول الجنة، ويعطيك شيخ الخفر النور الأخضر لتدخل على الطبيب، والمسألة محسوبة: دقيقتان لك تحسب فيهما مريضك وصفاً شاملاً بينما يتكلم الطبيب فى التليفون ودقيقتان كاملتان للكشف الدقيق. وخذ نفساً وأخرج نفساً، وكمان نفس، ونقرتان على يمين ظهرك، وأخريان على يساره، والبس هدومك وها هى ذى الروشة فيها أدوية لأمرض الدنيا كلها وتأخذ هذه الأدوية أسبوعين ثم تأتينى! وغيره يا شيخ الخفر واللى بعده يا شيخ الخفر! والطبيب يعمل وكأنه محصل فى سوبر ماركت وهو يشنف أذنيه بأنغام أجراس الكاش - ريجستر، وفى منتصف الليل نقفل الدكان ونحصى مع شيخ الخفر حصيلة الماكينة، وحقيبة سومسونايث نقفلها بالقوة على ألوف الجنيهاات، والعيادة أصبحت وكأنها دار سك العملة، ورصيد البية الدكتور فى البنوك الأربعة التى يضع فيها أمواله يتعالى، والأولاد المحروسين لكل منهم سيارة، والهانم هى الأخرى لها سيارة، وعمارة فى المهندسين وأخرى فى مصر الجديدة وحريق الفلوس لا يتوقف، وتقول للطبيب:

- يعنى يا دكتور مش كتير الكشف خمس دقائق بعشرين جنيهاً..

كتير أزاى.. إذا كان المعلم سيد السباك يأخذ فى العملية الواحدة مائة ومائة وخمسين جنيهاً..

لأن منادى السيارة رفع بقشيشه من خمسة قروش إلى عشرة.. - وهكذا يصبح المعلم السباك القدوة، إنه المثل الأعلى للجميع! الطبيب

والمهندس والمحامي والمدرس، وحريق الفلوس يأتي على كل شيء، وفي أيامنا - يرحمها الله - كنا نحن القدوة، والسباك يتعلم منا، أما اليوم فإن البيه الدكتور يتعلم من السباك، بل من المبلط وسائق التاكسي، بل أعرف رجلاً رفع أجر الكشف من خمسة جنيهاً لعشرة

ومع الساعات ترتفع حمى الفلوس ويشتد السباق نحو الفلوس والمدرس الذي كان في العام الماضي يأخذ خمسة جنيهاً في الدرس الخصوصي جعلها هذا العام سبعة وأضاف تجديداً، وهو أنه ضبط ساعته كل صباح على ساعة الجامعة لكيلاً يخطئ ويعطى التلميذ دقيقة زيادة، ومدرس العربي الشيخ مفتاح أدخل تجديداً آخر: التلميذان بثمانية جنيهاً وتصحيح موضوع الإنشاء مجاني أو هدية من المحل كما يقولون: وستستمع عن قريب عن مدرس يوزع أجندات هدايا على الزبائن فيها أسعار الدروس بالجملة والتجزئة وأسعارها في الصباح وبعد الظهر والمساء إلى منتصف الليل لأنه رجل يساير الزمان وتغير الأحوال.. وتقول للأستاذ المدرس:

مش كثير ثمانية جنيهاً على ساعة تدريس يا أستاذ؟..

- كثير أزاى؟ يا مبارك؟ دى الخدمة التى تعمل عندنا من الصبح إلى الظهر رفعت أجرها من ٦٠ إلى ٨٠ جنيهاً فى الشهر..

وهكذا أصبح الأستاذ المتخرج فى الجامعة يأخذ القوة من البت سعدية المتخرجة فى كفر أبى جهل، والدنيا انقلبت والمقاييس تغيرت، ولكل زمان دولة ونسوان.

والحريق مستمر، وأسعار كل شيء ترتفع تلقائياً مع مرور الزمن، وما تدفع فيه خمسة جنيهاً اليوم ستدفع فيه ستة فى الشهر القادم وسبعة فى الذى يليه، وفى حالات كثيرة تضطرب نسبة الزيادة لأن

الفلوس فقدت قيمتها ولأن الناس أصبحوا لا يفرقون بين الجنيه والعشرين، وهناك أوسطى مبيض استقدمناه لبياض الشق، فجعل يتظاهر بأنه يقيس ويتمتم بيده كأنه يحسب ثم قال: ٦٠٠ جنيه بحساب المتر ثلاثة جنيهات:

- وكيف حسبتها يا معلم؟

- هذا شغلى وأنا أعرفه.

- طبعا البياض شغلك ولكن الحساب شغلتي.

- وشغلتي أنا أيضا.

- إذن يا معلم ٦×٧ بكام؟

هوه امتحان ولا امتحان.. شوفو لكم مبيضا غيرى.. مضى وهو يبرطم ويقول: زبائن آخر الزمن! أل يمتحنونى آل.

وهذا الحريق سيستمر حتى نصبح كلنا رمادا، لأن الحكاية تسير بلا ضابط والقدوة انتقلت من أعلا إلى أسفل والفلوس فى ذاتها أصبحت الغاية والهدف، والفلوس كالنار: خادم مفيد ولكنها سيد ضار، وإذا لم نسارع إلى إيقاف اللهب فلن يبقى منا أحد ليرى النهاية بعينيه، وأى حكومة فى الدنيا لن تستطيع ضبط الأسعار إذا استمر الأمر على هذا المنوال، لأن نار الفلوس تزداد اشتعالا بسبب ضعف الضمير والوازع، والدولة لا تستطيع السيطرة على الضمائر، فهذه مسألة خاصة بنا نحن، وأجهزة الحكومة أصبحت مثل مواسير المجارى: دايبة ومسدودة ولهذا فلا نطالب الدولة بأن توقف التيار لأنها لن تستطيع ذلك، وماذا تعمل الدولة مع طبيب يريد أن يولد خمس سيدات فى يوم واحد وليس لديه وقت للانتظار حتى تضع كل والدة طفلها وضعا طبيعيا، فإذا طالبت مدة المخاض أمسك المشروط وفتح فتحة ليسرع بخروج الطفل، وبعضهم

يأخذها من البداية فيلجأ إلى القيصرية، وهذه كلها جنائيات على الضمير وعلى ضمير المهنة ولا سلطة هنا إلا للطبيب نفسه.

لقد وصلنا إلى نقطة البداية في التحول إلى رماد، لأن قطاعات كبيرة من الشعب وصلت إلى نهاية الطريق، فمن المستحيل مثلاً على أى شاب ناشئ أن يجد سكناً مناسباً أو غير مناسب، وإذا كان خلو الرجل لأصغر شقة لا يقل عن ثلاثة آلاف جنيه فمن أين له الثلاثة الآلاف؟. ومعظم شباب الأطباء لن يحصلوا على عيادة أبداً، لأن الواحد منهم يحتاج إلى ١٠٠٠٠ جنيه قبل أن يخطو عتبة أى شقة، ولا بد له من بضعة ألوف أخرى لفرشها وأعدادها، فمن أين له هذه الألوف؟. وحتى لو هو عمل حسابه على أن يجمعها في خمس سنوات فإنها ستكون إذ ذاك خمسين ألفاً، والمسألة اليوم سباق محموم، ومهما بلغت سرعتك في الجرى فأنت لن تسبق النار، فانظر ماذا أنت فاعل والذين ينجبون أولاداً اليوم لا بد أن يعرفوا أنهم ينجبونهم للفرن، من بطن الأم إلى النار، وأحسن لهم أن يعذبوا ابناً واحداً بدلاً من عشرة أبناء.

وأصحابنا في مكاتب الحكومة يهزون أكتافهم ويقولون لك: إنها موجة عالمية فالأسعار ترتفع في كل مكان، وارتفاع الأسعار عندنا جزء من ارتفاع الأسعار العالمية.

وتقول له: إننا لن نطالبكم بأن تعالجوا موجة الغلاء لأننا نعرف أنكم لن تستطيعوا ذلك، ولكن ارتفاع الأسعار هناك مهما زاد فهو يتبع منطقاً وحساباً معروفاً. ثم إن المرتبات أيضاً تزيد لأن الأرباح تزيد. وهناك توازن اقتصادى حسابى، والعامل هناك يزيد أجره ولكن إنتاجه ونوع عمله في ارتفاع أيضاً، ومن هنا فإن هناك توازناً بين ارتفاع الأسعار وارتفاع الرواتب وزيادة الإنتاج، أما هنا فإن الاختلال عام وشامل، فإن الناس ترفع الأسعار والأتعاب والأجور اعتسافاً وحسب

المزاج والمطامع ، ثم إن ارتفاع دخول بعض الطبقات لا يصاحبه أبدًا تحسن في الإنتاج أو زيادة في الدخل العام ، لقد قضيت أسبوعًا في زيادة عمل في ميلانو في إيطاليا ولاحظت أن الأسعار ارتفعت فعلاً ، ولكن نوع العمل الذى تقدمه دار الطباعة التى أتعامل معها يتحسن ، وإنتاج الدار يزيد ، ومن هنا فإن الاختلال فى الميزان العام قليل ومحتمل ، وقد حسبت حسابى فوجدت أنه رغم ارتفاع أسعار الحياة هناك وزيادة نسبتها على ما عندنا ، فإن الحياة هناك أرحم بكثير ، والشئ الذى أدهشنى هو أنه رغم ارتفاع كل الأسعار هناك إلى ضعف ما عندنا فإن الإنتاج العام أرخص وأحسن ، وإذا كان عندك كتاب تريد أن تطبعه فإنه أرخص لك أن تطبعه فى إيطاليا أو إسبانيا مما لو طبعته فى مصر ، مع أن العامل هناك على كل مستويات العمالة يتقاضى أربع مرات أجر العامل المصرى ، فهو هناك يتقاضى أجره على أساس ساعة العمل ، ولكنه ينتج فى ساعة قدر ما ينتجه العامل المصرى فى أربع ساعات لأن هناك قوانين وتقاليد عمل وشرف مهنة يعرفها العامل وصاحب العمل ، ثم إن العامل هناك لا يتلف الآلة التى يعمل عليها ، بينما العامل المصرى يحطمها تحطيماً .. وكل عمل نعمله (نص نص) .. إلا التخريب فهذا هو اختصاصنا الذى ننفرده به بين الخلق ونحن نتقنه تماماً ، وقد كنت أعمل هناك فى الأطلس الإسلامى وسط العمال ثمانى ساعات فى اليوم ، فما سمعت مرة حديثاً طويلاً ، ولا تنادى بالأسماء ، ولا رأيت كوب شاي ، كلهم يعملون فى صمت وهدوء ، ويعالجون ما بين أيديهم بمحبة ، وكل منهم يخصص ربع الساعة الأخيرة من العمل لتنظيف الجهاز الذى يعمل عليه وتغطيته بغطائه ..

وسألت نفسى : ما الذى يحدث لنا؟ وما العيب عندنا؟ لماذا نلهث وراء المال ونظل فقراء؟ لماذا يكسب الكثيرون منا المال الكثير ويظلون متسولين؟ لماذا لا نعرف طعم الحياة السعيدة إلا فى النادر؟ والطبيب

الذى يجمع ألف جنيه فى اليوم يرتقى فى فراشه آخر اليوم منهوك القوى، وينهض فى الصباح جهم الوجه بادهى الاجتهاد، ويجلس أمام عجلة القيادة سيارته ضئيلاً صغيراً كأنه سائق سيارة لا صاحب سيارة؟.

السبب هو أن القلوب متحجرة والعواطف متجمدة، والحب، وهو قوت القلوب غير موجود.. إننا نحب المال دون أن نعرف ماذا نفعل بالمال، لأن أجمل وجوه إنفاق المال هو أن يكون سبباً فى إسعاد الآخرين، بعد أن تأكل أنت وآلك، بعد أن تنال أنت وأولادك كل ما تتوق إليه النفوس، جرب أن تخرج شيئاً من المال لإسعاد طفل مسكين أو يتيم، جرب أنت وأمثالك من القادرين على إصلاح الشارع الذى تسكنون فيه والمحافضة على قطعة الأرض التى تعيشون فيها خضراء نظيفة.. هذا هو ما أعنيه بالحب الذى لا نعرفه، لقد ذهلت مرة وأنا أعمل فى مجلة الهلال من شاب كان يعمل معنا ناداه زميل له ليراجع معه كلام الصور فأبى وقال: ينحرق الهلال وأصحابه! وحكت الكلمة أذنى وقمت مسرعاً لأعتب عليه، ونظرت فى وجهه فإذا هو جامد كالصخر وعيناه زجاج كأعين السمك وفوقهما نظارة عليها تراب، ونظرت إليه ولم أقل شيئاً، فمن مثل هذا الوجه لا تنتظر حباً ولا تأمل فى عاطفة، والخضرة لا تطلع من الصخور، والجراد لا يصنع الرخاء، والقلب الجامد كهف مظلم يعيش فيه الخفافيش مصاصة الدماء.

لهذا فنحن مسعورون على المال، إننا عاجزون عن أن نعطى، ولهذا ينصرف جهدنا كله فى أن نأخذ، والقلب الذى لا يعرف العطاء لا يعرف السعادة ولا الغنى، والغنى ليس جمع المال، إنما كفاية النفس وسلامة الضمير والإخلاص فى العمل، ولو أن الطبيب أعطى مريضه شيئاً من الحب بدلاً من رويته طولها متر لشفى المريض، إننى لا أتعجب من أن المريض المصرى لا يكتفى بطبيب واحد أبداً، إنه يحس أن الطبيب الذى يعالجه لا يشعر نحوه بأى محبة، والعلاقة

بينه وبينه علاقة مال، والمريض يعطى المال والطبيب يعطى الوصفة، فلا المال ينفع ولا الوصفة تنفع المريض.

والمدرس المصرى غير ناجح لأنه لا يحب التلميذ ولا التدريس، والمدرسة سجن مفتوح الأبواب، لأن كل الذين يعيشون فيها لا يعرفون الحب، المدرس سجان، والناظر مأمور سجن، والتلميذ سجين ولا محبة بين إنسان وإنسان.

والمصرى الذى عانى الفقر مئات السنين يظن أن سعادته فى أن يصل إلى المال الكثير بأسرع ما يستطيع.

والمصرى الذى حرموه من عزة النفس مئات السنين يظن أنه يدرك الكرامة والحرية بالتمرد على كل القوانين حتى قوانين الأدب واللياقة والنظافة واحترام حريات الآخرين، وبداية حفل الزواج عندنا إقلاق راحة الآخرين، وسعادتنا لا تتم إلا بعذاب الناس.

والمصرى الذى حرموه السعادة مئات السنين يظن أنه يدرك السعادة إذا هو سكن شقة أرضيتها مغطاة بالموكيت وفوق الموكيت أثاث غالى الثمن وتليفزيون واستريو وفيديو وثلاجة ٥٠ قدمًا وسيارة على الباب فيها تليفون.

لا أيها الأخوة والأعزاء.

إننا نشعر بالغنى الحقيقى إذا أحببنا بلدنا هذا ورعيناه.

إننا نشعر بالسعادة الحقة إذا نحن أعطينا قبل أن نأخذ، إذا نحن فكرنا فى الآخرين كما نفكر فى أنفسنا، لأن المال وحده لا يغنى الإنسان، والعلم وحده لا يصنع العالم، والمهارة وحدها لا تصنع الفنان، وقد رأى رسول الله ﷺ رجلاً يغرس نخلة، رآه يحفر لها بئر وينخل التراب قبل أن يضعه فى البئر، ويمسك بالفسيل فى محبة ويضعه فى

التراب ويرويه بماء قليل ويتحسسه بيده ليطمئن عليه ، ثم يغطيه بثوب قديم مخافة برد الليل ، فيضع الرسول الكريم يده على رأسه ويقول: هذه يد يبارك الله ما تصنع.

تحسب أيها العزيز أنك تغنى ومن حولك فقراء؟.

تحسب أنك تستطيع أن تغنى من نهب أموال الآخرين؟.

وتكذبك نفسك والله!.

فإننا لا تغنى أبداً ووطننا فقير، وأنت لن تشبع أبداً ومائدتك عليها الطعام أشكالاً وألواناً لأن وراء بابك مئات من إخوانك المصريين جوع.

إننا أيها الأخوة لن نسعد ومصر تعيسة، ولن نقوى ومصر ضعيفة، ولن نعرف الضحك ومصر باكية.

ومصر أيها الاخوة اليوم حزينة باكية لأنها أرمل تخلق عنها الجميع، لقد اشتركنا جميعاً فى نهبها، والجنية المصرى رمز مصر نجمعه وندسه فى أفواه الخنازير لنحصل على بضائع هى أسوأ من لحم الخنزير.

وهذه الالهفة على المال لن تجعلنا أغنياء لأن الغنى غنى النفس والشبع شبع الروح، لهذا فإن الذين نسميهم اليوم أغنياء هم أتعس الفقراء، وهذه الالهفة على المال حمى ستمتد وتمتد حتى نصير كلنا رمادا.

إننا قافلة ضلت الطريق.

واليوم ووسط صحراء قاحلة وتحت شمس محرقة نقف ورمال تحيطنا إلى مقطع الأفق فى كل اتجاه، وعند مقطع الأفق لن نجد إلا ثلوج الموت!.

نحن نأكل لحم أخينا ميتاً وحياً*

فى تفكيرى الدائم فى أمر شعبنا - العزيز والمحير - هذا أقول
لنفسى أحياناً: لابد أن زلزالاً عنيفاً قد مر بنا وهز كيانتنا هزاً شديداً،
فتغير طبعنا، واضطرب مزاجنا، ففقدنا الكثير من قيمنا ومقومات
شخصيتنا. ودخلنا - نتيجة لذلك - فى دور جديد من تاريخنا، لم
نعد نعرف فيه من نحن؟ أو ماذا نريد؟. واضطرب ميزان القيم والأشياء
فى أيدينا واضطراباً بالغاً، فما كنا ننكره بالأمس أصبحنا اليوم نقبله،
وما كنا نراه عيباً لم يعد عيباً، حتى أرضنا التى هى قوام حياتنا وسر
وجودنا أصبحنا اليوم نبدها فى غير مبالاة.

والفلاح المصرى الذى كان على طول التاريخ رمز الأرض الخضراء
والزراع البديع والرخاء الذى كانت تحسدنا عليه الأمم لم يعد اليوم
فلاحاً أو زارعاً، بل إن أرضه لم تعد خضراء، فقد جرفها أو تركها
بوراً لكى يحولها إلى أرض مبان يبيعها بالتر، وترك الحقول ومضى
ليأخذ مكانه فى طابور الجمعية ليحصل على طعام مستورد زرعه فلاح
آخر فى البرازيل أو أستراليا أو كندا وربما فى الأرجنتين، ومع تراجع
الخضرة وتغير لون الريف المصرى تغيرت نفس الفلاح المصرى، فلم تعد
خضراء أو مفرحة، وأخذت لوناً جديداً رمادياً كابياً هو جزء من ذلك
اللون الرمادى العام الغالب على حياتنا اليوم..

وقد يكون الذى حدث هو العكس أى أن هذا الشعب كان ينبغى أن
يعانى زلزالاً عنيفاً يخرج به من الركود الذى يعانى به منذ الأربعينات
أو الثلاثينات من هذا القرن، وأنه لمن الغريب جداً أن الحرب العالمية
الثانية، التى اجتاحت هذا الكوكب وغيرت من أحوال كل شعب فيه،
مرت بنا نحن وكأننا نعيش فى كوكب آخر. فبينما كانت أوروبا غارقة

* نشرت هذه المقالة فى أكتوبر ١٩٨٤ م.

فى الصراع والدماء والبارود والنار، والولايات المتحدة كلها مشغولة بالحرب تعمل جاهدة للقضاء على النازيين والفاشييين، وبينما كانت الصين تدافع عن كيانها أمام غزو يابانى شامل اكتسح معه نحو عشرين مليون صينى، واحتترقت فيه الصين القديمة لتولد صين جديدة، وبينما كانت روسيا تتحول فى نيران الحرب إلى هذا المارد العسكرى العلمى الذى يخيف الدنيا كلها اليوم، كنا نحن نمرح ونلعب، فالملك والإنجليز والباشوات فى لعبة الوزارات المملة، والأموال تنصب فى جيوب الألوف دون تعب أو حساب، وفى بارات عماد الدين وما حوله. وفى كباريهات داعرة كان يجلس باشوات وأنصاف باشوات وخواجات ويهود، ومن هنا يحركون بورصة الأوراق المالية فى القاهرة أو الإسكندرية، ويربحون مئات الألوف، حتى العيال من أولادهم تعلموا اللعبة، وتحولوا إلى «كروبيه» يمدون العصا الطويلة ذات الجاروف ليحوزوا ما ألقته إليهم به كرة الروليت، وفى أوكار أخرى جلس المعلمون سادة تجارة المسروقات من «الأورنص» (الأوروينانس أى مخازن التموين والبضائع الخاصة بالجيش الإنجليزى، وما زالت فى أذهاننا إلى اليوم صورة «غنى الحرب» ذلك الرجل الجلف الذى يكسف الألوف وينفق فى غير حساب. وكل حياته حرام فى حرام ولا وجود عنده لوطن أو ضمير.

وعندما أشرفت الحرب على نهايتها أعلننا الحرب على ألمانيا وإيطاليا ١. وألمانيا التى أعلننا عليها الحرب لم تحس، لأنها كانت فى سياق الموت، ونحن لم نعلنها عندما كانت الحرب دائرة فى صحرائنا الغربية وجيوش المتحاربين تكرر وتفر على أرض بلدنا وفى موضع غير بعيد من مرسى مطروح دارت رحى معركة حاسمة يملأ صيتها الدنيا هى العلمين. وكنا نقرأ أخبار ما يجرى فى العلمين، وكأنها ليست جزءاً من أرض مصر بل منا من كان يتندر بتلك الحرب ولا يفكر فى أمرها لحظة، وانتظرنا نحن حتى مرت معارك سيدى برانى-وسيدى جوانى وطبرق والعلمين، حتى إذا انتهت الحرب من الشمال الأفريقى كله ومن إيطاليا كلها وأصبحت هناك داخل ألمانيا، أعلننا الحرب على ألمانيا.

كل هذه الأحداث الهائلة مرت بنا وكأننا نيام، وانتهت الحرب وانتهى معها العالم ما قبل الحرب، ودخلت الدنيا كلها عالم ما بعد الحرب، ونحن مازلنا نتلكأ في المؤخرة وكأننا لسنا في هذه الدنيا، وعندما رأينا قافلة الإنسانية تبتعد عنا وتكاد مؤخرتها تختفى عن الأنظار مضينا نهروا على أمل اللحاق بها، وهيهات! أليس هذا هو حالنا اليوم؟ ألسنا نهروا ونلهث وراء القطار الذى فاتنا ولا نكاد ندركه؟

إننا ندخل اليوم عصر الكمبيوتر، ونحاول أن نعيش فيه، ولكننا نحس فى كل لحظة إحساس الريفى الساذج الذى دخل المعرض الكبير وتجول فيه وخرج من الباب الآخر يحمل فى يده نشرات وإعلانات وكراسات دعاية ملونة، أخذ يتأملها فلم يفهم مما فيها شيئاً، فألقى بها فى الطريق، وهذه هى حالة تسعين فى المائة من الأجهزة الإلكترونية فى بلادنا، نشترىها اليوم لتتحول إلى خردة غدا، فنحن نشترىها ولا نعرف كيف نستخدمها أو كيف نصونها، والجهاز الذى يتعطل لا يصلح أبداً، لأن العلة ليست فيه بل فينا. ونحن نعيش وراء عصر الكمبيوتر بقرون.

وفى حيرتنا البالغة - بسبب الزلزال الذى أصابنا أو الزلزال الذى كان ينبغى أن يصيبنا ولم يصبنا نقف اليوم فى وسط سوق الدنيا وكأننا الأصم فى الزفة، والحل الوحيد الذى خطر ببال معظمنا أن المال ربما كان طوق النجاة الذى نحتاج إليه، واجتاحتنا كلنا حمى المال، وميزان الأسعار والأجور والإيجارات اضطرب اضطراباً شديداً، والشئ الذى يساوى جنيهاً أصبح يباع أحياناً بعشرة أو عشرين، والعامل الذى يدق لك مسماراً يطالبك بعشرة جنيهاً لا لأن العمل الذى عمله يساوى هذا المبلغ، بل لأنه هو نفسه لا يعرف الفرق بين العشرة الجنيهاً والعشرين، والطبيب الذى ينظر فى عيادته فيراها مكتظة بمعلمين فى

جيب كل منهم محفظة كأنها وسادة يجد أنه من حقه أن يرفع أجره من خمسة جنيهاً إلى عشرة إلى عشرين وربما ثلاثين، لأن كل واحد من أولئك المعلمين لن يرحمه إذا هو ذهب يشتري منه شيئاً. ومن أيام وجدت أن سعر كيلو اللحم بلغ سبعة جنيهاً ونصف. ونحن أصحاب القلم مساكين جداً في هذا السباق القاسي نحو المال، فإن أتعابنا لا تزيد إلا بالقطارة، وليس أمامي في هذه الحالة إلا أن أخفض استهلاكى من اللحم، وبدلاً من ستة كيلوجرامات فى الشهر أكتفى بثلاثة، لكى أستطيع تحقيق شيء من التوازن بين الوارد والمنصرف، بينما جارى الذى يسكن الدور فوقى يرتبط على بابهِ ثلاث سيارات غالية الثمن وواحدة منها بالتليفون، ويغير عفش بيته مرة كل عامين على الأكثر، أما الحمامات فهو يبدلها كما نبدل نحن الجوارب أو المناديل، والحصول على المال لا يكلف هؤلاء الناس إلا توسيع الذمة بعض الشيء حسب الحاجة، والأزمة عندهم ذات قلاووظ: هكذا تتسع وهكذا تضيق!

ومهما اختلفنا حول الأسباب والعوامل، فإن المؤكد هو أن ميزان القيم يضطرب فى أيدينا الآن اضطراباً شديداً، ولا يقتصر الأمر على الأشياء المادية، بل هو يشمل - وبصورة أفدح - القيم المعنوية ومفهوماتها مثل الحق والواجب والقانون والضمير والذمة وما يصح، كل هذه قد اختلت موازينها اختلالاً مخيفاً، وتبعاً لذلك تغيرت طبائع الناس وسلوكياتهم تغيراً بالغاً، وأصبحنا نشهد من الناس حولنا تصرفات لا تصدق، وأنا أتعزى فأزعم لنفسى أن ذلك كله طارئ مؤقت لأنه يخالف طبائعنا وخصائصنا، وإن لسان الميزان لن يلبث أن يعتدل من جديد، فيعود كل مصرى إلى طبعه الأصيل الكريم الذى نعرفه فيه ويشفى شعبنا من سعار المال الذى استولى عليه، فيعود الفلاح المصرى فلاحاً طيباً يرعى أرضه وأرضنا، كما فعل من آلاف السنين، والصانع المصرى يعود إلى قناعته ودمته وضميره وإتقانه لعمله، كما عرفناه من أيام أجدادنا القدماء الذين

اخترعوا الحرف والصنائع والإتقان، ويعود المهندس المصرى مهندساً رصيناً معافى من حمى المال التى جعلته يرتكب تلك الكوارث المهنية التى يرتكبها اليوم عن نقص العلم أحياناً، ونقص الضمير أحياناً أكثر، والمهندس المصرى القديم لا يزال يبهر الدنيا بمنشآته دون أسمنت مسلح، فى حين أن حفيده يذهب الدنيا بتفاهات ما يبنى رغم الحديد والأسمنت المسلح..

والطبيب المصرى ينظر أولاً إلى علاج مريضه دون لهفة على المال أو سباق نحوه، ويعود كل شىء إلى نصابه، لأن الحقيقة أن كل ما نحن فيه وما يحيط بنا غير طبيعى، فنحن قطعاً نستطيع أن نطعم أنفسنا بنفسنا ومن أرضنا دون حاجة إلى تسول القمح والدقيق واللحم بتلك الطريقة غير الكريمة التى نفرق فيها اليوم، ويومها سنرى الأشياء على حقيقتها، ونستطيع علاجها بعقل وحكمة وروية، ولو أنك اقترحت اليوم على مجلس الشعب إلغاء دعم السكر مثلاً لقامت القيامة مع أن إلغاء دعم السكر مثلاً لقامت القيامة مع أن إلغاء دعم السكر نعمة على الفقير والغنى جميعاً، فليس هناك شىء أضر بالصحة من السكر الأبيض الذى تنفق الملايين فى شرائه من أسواق العالم لنبيعه بالثمن الرخيص لجمهورنا، ونحن نعلم أننا نبيع لهم السم، ويومها أيضاً سنرى أن دعم السيجارة جريمة، وأن بيع لتر البنزين بخمسة عشر قرشاً جريمة أكبر لأننا ينبغي أن نبيعه لمن يريد أن يقتنى سيارة بسعر قريب من السعر العالمى، وقد كنت فى إسبانيا من أسبوعين فوجدتهم يبيعون لتر البنزين بستة وتسعين بيزيتا أى بنحو سبعين قرشاً، ومن يريد أن يركب سيارة فليتحمل تكاليفها ومن لديه سيارة فليقتصد فى استعمالها..



أقول هذا لأن حمى المال التى تستولى علينا لا تحرق أموالنا فحسب، بل أخلاقنا كذلك، وفى الصيف الماضى دعانا صديق إلى مأدبة سمك فى

أبى قير، وفى أثناء الحديث وقبل الذهاب عرفت أن الوجبة الواحدة تتكلف حوالى عشرين جنيها، فرفضت أن أذهب لأننى إذا قبلت أن أدفع هذا المبلغ أو يدفعه صديق عنى، فإن ذلك سيكون له أثر سيئ جداً فى نفسى، وهل العشرون جنيها قليلة حتى أنفقتها فى أكلة سمك؟. وإذا هانت على العشرون جنيها، فلا بد أن تهون على نفسى أشياء أخرى كثيرة جداً، وأهم من السمك بكثير، وسأصبح مثل ذلك الرجل البلدى أقبل مع أسرته ذات يوم ونحن جلوس فى حديقة المنتزه فى الإسكندرية، وجلسوا على الخضرة إلى جوارى وبسطوا ملاءة وأخرجوا طعاماً كثيراً كله سمك وأقبلوا يلتهمونه، الرجل يقول إنه أنفق فى هذا السمك أربعين جنيها! وأكلوا ما أكلوا ثم نفضوا الملاءة وتركوا المكان مزبلة وقالت لى زوجتى:

— أليست هذه جريمة؟

قلت: بلى إن ترك هذه المخلفات على هذه الصورة جريمة، ولكن الجريمة الأكبر هى أن ينفق هذا الرجل أربعين جنيها فى أكلة واحدة، لأن المال لا بد قد وصل إلى يده بمثل السهولة التى أنفقه بها.. وهذا هو اختلال الموازين بعينه، وأنا لا أستغرب أن يطلق هذا الرجل امرأته ويتزوج أخرى مساء اليوم، ويلقى بها وبعيالها فى الطريق لأن ميزانه الأخلاقى لا بد أن يكون مضطرباً مثل ميزان الأسعار فى يده..

ونهدت أبحث عن أحد البستانيين وأعطيته جنيهاً لكى يرفع هذه البقايا، وسألته إن كان يستطيع أن يأتى بشيء من المبيدات ويرشها فى هذا الموضع، فاستجاب وتقاضى جنيهاً آخر وشكرته وقلت:

— بدون هذا لن تكون لدينا من الغد حديقة نجلس فيها..



لكى أعطيك مثلاً عن مدى اضطراب ميزان القيم عندنا اليوم أحكى لك الحكايتين التاليتين..

من نحو ثلاثين سنة كنا نقطن فى شقة فى شارع جنينة ناميش فى السيدة زينب، وكان يسكن أمامنا رجل وامرأته، وكان الرجل مريضاً منقطعاً عن العمل، وكانت امرأته تقوم على تريضه، ولم يكن لديهم أولاد، ولا أذكر أن أسبوعاً مضى دون أن يزور ذلك المريض أحد أخوته أو إحدى أخواته.. كلهم يحملون المال أو الطعام، وتوفى الرجل، فأقبل بعد أيام أخوان للمتوفى، وقالوا للسيدة: أنت تظلين فى بيتك على حالك، ولن ينقصك شيء، ونحن أشقاؤه، ورعايتك تلزمنا، لأنك كنت له خير زوجة فى الصحة والمرض، وقد اجتمعنا نحن الأخوة واتفقنا على أن نقدم لك كل شهر خمسة عشرة جنيهاً، فيظل بيتك مفتوحاً، ولا يتغير فى بيت أختنا شيء، مادمنا على قيد الحياة!

وأذكر أن شيئاً ما لم يتغير على هذه الأرملة ظل بيتها مفتوحاً، وظل إخوة زوجها ونساؤهم يترددون عليها، كما كان الحال فى الماضى، وهذا بلا شك هو الخلق المصرى، كما أعرفه وكما ينبغى أن يكون عندما يكون ميزان القيم معتدلاً فى أيدينا.

فاسمع إذن يا سيدى ماذا حدث من قرابة الشهرين..

توفى رجل طبيب نعرفه بعد مرض طاوله ثمانى سنوات أجرى خلالها عمليتين جراحيتين فى مصر وثالثة فى إنجلترا، فقد كان الرجل ميسور الحال وكان حاله كحال الآخر الذى حكيت لك حكايته أى أنه لم ينجب..

ويقص على ما حدث بعد موته أخو زوجته الحاج سيد ويقول: خلال سنوات المرض والعمليات لم يزرننا واحد من إخوته أو أولاد أخوته حتى نسينا أن له أخوة أو أقارب. والرجل كان يقيم فى شقة جميلة حسنة التأثيث فى بيت من أربعة طوابق فى العباسية..

وتوفى نسيبى وواريناه التراب..

وبعد ظهر اليوم التالى وأختى تعانى أوصاب الحزن، فقد كانت تحب زوجها حبا وكان الرجل جديرا بذلك الحب وتبكيه ملء عينيها، فقد كان الرجل بالفعل أهلا لكل حب، بينما أختى فى هذه الحال وحدها فى بيتها، طرق الباب وقامت تفتح فإذا إخوته الثلاثة وأختان له ومعهم أربعة من أولادهم يقتحمون الباب، ويدخلون متظاهرين بالحزن ويجلسون، وبعد عبارات التعازى يقول كبيرهم.



— والله يا أنصاف هانم أنت لا تتصورين حزننا على أخينا، فقد كان المرحوم كبيرنا وعميد أسرتنا، ولم نكن نكف عن التفكير فيه والأسى لحاله لحظة.

فيكم الخير..

وبعد لحظة صمت عاد يقول.. ولكنك تعرفين الأحوال يا أنصاف وأخونا رحمة الله عليه مضى إلى حاله غير مخلف ولداً وبنثاً، ونحن نعرف أن هذه الشقة ملكه، ونحن لن نطالبك بإخلائها — وهذا من حقنا — ولكننا مراعاة لحرمة أخينا مستعدون لأن نسمح لك بالإقامة فى غرفة من غرفها تختارينها كما تشائين، وسنتنازل لك من المال الذى ترك نصيباً يغطى حاجاتك شهرين ثلاثة حتى تدبرى أمرك، ونحن ناس معقولون ولا نريد الدخول فى مشاكل أو محاكم، ونحن نعرف أنك سيدة مفردة، ولن تستطيعى شيئاً حبالنا، ولكننا كما قلت لك نراعى حرمة أخينا وما كان بيننا وبينك من صهر.

والسيدة — بعد صبر ثمانى سنوات مع رجل مريض — كان قد صلب عودها واكتسبت رجاحة عقل تدعو إلى الإعجاب، ولا شك فى أنها كانت تنتظر زيارة أولئك الأقارب، ولكن ليست بهذه السرعة، ولا بتلك

الصورة البالغة الجفاء التي تشبه الغزو، فظلت صامتة تنظر فى وجه محدثها فاستمر يقول:

- ونحن لا نعرف طبعًا كم عند أخينا - عليه رحمة الله - من المال ولا مقدار ما عندك من المصاغ، ولكننا نرجو أن تطلعينا على ذلك كله بالأمانة حتى يأخذ كل منا نصيبه بما يرضى الله:

وسواء صارحتنا أم لم تصارحيننا فإننا سنعرف كل شىء وسنأخذ حقوقنا على دائر المليم، ومن باب الاحتياط أرسلت ابنى إسماعيل لينبه على الجراج بضرورة التحفظ على سيارة أخينا حتى يتم الاتفاق بيننا وبينك بشأنها، وسنكلف محامينا بمعرفة ما خلفه المرحوم من أموال فى البنوك، ونحن نعرف أنه كثير جدًا، واستمرت السيدة فى صمتها، ويقول الرجل:

- ماذا قلت يا ست إنصاف؟ هذه مسائل لا تحتل التأخير، ونحن كما قلت لك ناس مسالمون لا نريد متاعب أو قضايا ومحاكم وابنى عبد الرحمن. خاطب من سنة قد جاءه الفرج ليدخل على عروسه فى شقة عمه!

قالت السيدة: فى أى لحظة سيأتى أخى الحاج سيد، ويكون كلامنا بحضرته.

ويقول أخ آخر: سيد كيلانى.

وتقول السيدة: سيد كيلانى المهندس المقاول.

- وما دخله؟ وهل تظنين أن كونه مهندسًا مقاولاً سيخيفنا؟

صبركم بالله! أما قلتم إنكم تريدون أن نصفى كل شىء فى هدوء وسلام؟

- بلى.. ولكن لنفترض أن السيد الحاج سيد كيلانى - ولا مؤاخذه - لم يأت فماذا نصنع؟

على الأقل اختارى من الآن حجرتك لكى نتصرف فى الباقي.

واندفع كل من الأخوة والأخوات يقول ما تيسر وهما صتا الدنيا، وأخيرا وصل الحاج سيد وكان قد استأجر الدور الأرضى فى البيت وأسكن فيه ابنين له يدرسان فى جامعة عين شمس دخل وحيا الجيش الفاتح الجالس على المقاعد، ثم قال:

- خيرا إن شاء الله.

وأعادوا عليه الكلام فى أسلوب أكثر تأدبا لأن الحاج سيد رجل موسر صاحب مكتب هندسة ومصانع بلاط وأدوات صحية. فاستمع إليهم ثم قال بكل هدوء:

- الآن فقط ذكرتم أن لكم أخا

- يا سيد بك ندخل فى الموضوع، ولا حاجة بنا إلى هذا التقطيم.

- ولم لا أيها السادة، إننا هنا فى بيتنا نتكلم فى هدوء وسنتفق إن شاء الله على كل شىء، ولكن أحب أن أذكركم بأن الله سبحانه وتعالى قال: إن المؤمن يكره أن يأكل لحم أخيه ميتا وأراكم تريدون أكله ميتا وحيا!

- يا حاج سيد لا داعى لهذا الكلام لندخل فى الموضوع.

- نحن فى صميم الموضوع فليس هناك أيها السادة ما يقسم. فإن المرحوم كان يتوقع أن يحدث هذا بعد وفاته وكان قد باع لأختى أنصاف كل ما عنده من خمس سنوات. باعه لينفق على علاج نفسه وأختى كان عندها مال كما تعلمون فاشتريت كل مال زوجها وأعنتها أنا على ذلك بما تيسر لى، والمرحوم كان يملك هذه الشقة فحسب، فاشتريت أختى البيت كله، الأدوار الأربعة وهى التى اشتريت سيارة المرحوم الباقية إلى اليوم، والتى تريدون الحجز عليها كل ذلك ملك أنصاف من

سنة ١٩٧٦م وصدقوا أيها السادة أولاً تصدقوا: لقد أنفقت كل مليم كان عندها أو عند زوجها على علاج زوجها - أخيكم رحمة الله عليه - كان رجلاً يوزن بالذهب، بل هي تعلمت التمريض لكي توفر أجر الممرض والحقن، والمرحوم كان مريضاً بالسكر، بل هي باعت أربعة فدادين من أرضها لإجراء العملية الأخيرة في لندن.. كل ذلك وأنتم لا تسألون عن أخيكم..

- لا نصدق حرفاً من هذا الكلام.

- كنت أتوقع ذلك!

ثم نظر إلى ابنه عزت وهو طالب في طب عين شمس، وقال له: هات يا عزت نسختين مصورتين من الملف وأتى عزت بملفين مصورين كل واحد منها يقع في نحو مائة ورقة مصورة فيها صور عقد البيع والشراء المسجلة كلها في الشهر العقاري مع طائفة من كشوف حسابات العمليات الكبرى وقال:

- هذه الصور أعدناها بأمر المرحوم لأنه كان يتوقع منكم.. هاتان نسختان تستطيعان دراستهما مع محاميكم إن كان لكم محام.. وسترون في النهاية أنه ليس لكم معنا كلام.. حذار أن تتصرفوا أبسط تصرف إلا بعد أن تقرأوا هذه الأوراق كلها، لتروا ماذا فعلنا لأخيكم الذي تأتون الآن لتتقاسموا ميراثه، وتطردوا أرملته من بيتها، وتتحفظوا على سيارته، والآن أظن أن من حق أختي أن ترجوكم أن تتفضلوا غير مطرودين، لأننا محزونون على الفقيد لقد حفظنا لحمه حياً وميتاً عليه ألف رحمة من الله، فقد كان زينة الرجال.

وقاموا دون أن ينبسوا وعندما كانوا بالبواب وكبيرهم يحمل الملفين تحت إبطه كأنهما خفاً حنين، قال: هذه الأوراق ستقرأها مع المحامي ورقة ورقة، ولن تتنازل عن مليم لنا فيه حق، وهذا ليس آخر لقاء

بيننا.. وأظن يا حاج سيد أنك لا تكره الحق.. ونحن لنا أولاد والحي
أبقى من الميت!

وتقول أنصاف هانم:

– غلط يا توفيق بك، الآن فقط أرى أن ميتًا واحدًا أبقى من ألف
حي! من قال إن الحي أبقى من الميت؟ مع السلامة.

أنت وأبو فصادة وفلسفة الحياة*

أبو فصادة عصفور مصرى دقيق الجرم أنيق الهيئة خفيف الظل لا تراه إلا فى الحقول والحدائق وهو إذا طار ارتفع وأعلى فى الجو حتى لا تراه للطافة حجمه، وله فى طيرانه خصلة فريدة هى أنه يتموج فى طيرانه، فيعلو ثم يهبط ثم يعلو كأنه بهذه الطريقة يخادع كبار الطيور ممن يحلو لهم العدوان على صغار الطير، ولكن أظهر خصائصه التى يمتاز بها على الطير كله هى أنك لا تراه إلا رافع الرأس والذيل أبداً، وذيله على الخصوص يقوم مستقيماً شاخساً إلى السماء كالعمود، وهو إذا طار نشره كأنه مظلة تحفظ توازنه فى الجو، فإذا حط على الغصن أو الفنن رفعه إلى السماء قائماً، فقليل له مرة: أرفق بنفسك يا أبا فصادة، ولا تحملها عناء رفع الذيل هكذا دائماً أبداً! . فقال أبو فصادة: أخفض ذيلي؟ إذن تقع السماء على الأرض!

فهذا الطائر اللطيف يتصور أن ذيله المرفوع هو الذى يمسك السماء أن تقع على الأرض، فهو إذن ليس مجرد طائر لطيف إنه مخلوق صاحب رسالة، وعصفور له مهمة كبرى فى الخلق، إنه يحمل السماء ولولا ذيله المرفوع لوقعت السماء على الأرض وكانت كارثة، ولهذا فأنت لا تراه يمشى على الأرض إلا نادراً، إنه دائماً فوق فنن رفيع، وذيله مرفوع خطأ مستقيماً ورأسه، لا ينخفض إلا ريثما يلتقط الحبة فينقض عليها ويحملها فى منقاره ويسبح فى ملكوت الله وهو فى طيرانه يتأمل الخلق من تحته، لأنه ليس مجرد عصفور من العصافير يسعى لرزقه ويمشى على الأرض وينبش القمامة سعياً وراء رزقه كما تفعل القبرة بضم القاف وفتح الباء مع تشديد هاء وهى العصفور الرمادى الصغير الذى يملأ الجو فى كل بلاد الدنيا فلا تتلفت إلا رأيته.

* نشرت هذه المقالة فى ٢ يونيو ١٩٨٥ م .

وهذا هو الذى يعجبني فى أبى فصادة، وفى كل مرة أجد نفسى فى حقل أوروبس دارت عينى تبحث عنه، وأنا دائماً أبحث عنه فى ذرا الأشجار لأنه عصفور له كبرياء وعزة نفس، فإن له رسالة كبرى لا يتخلى عنها أبداً، وأذكر أننى قرأت ذات مرة كتاباً من نواذر ما ألف فى مصر بالإنجليزية يسمى «الطيور المصرية» ألفه فيما أذكر واحد من الإنجليز القلائل الذين أحبوا هذا البلد وخدموه اسمه تشارلس جارفيس، كان فى يوم من الأيام حاكم سيناء، وله كتاب مشهور عن سيناء، وأظن أنه تحدث فيه عن طابا وقرر دخولها فى الوطن المصرى من قديم الزمان وبرأيه أخذ اللورد كرومر عندما تصدى لوالى الدولة العثمانية على بلاد الشام وأراد العدوان على أرض مصر زاعماً أنها كلها أرض عثمانية فرفض تشارلس جارفيس هذا الرأى وقال: إن أملاك الدولة العثمانية تنتهى شرقى سيناء، وأن خط الحدود يمتد من رفح إلى رأس النقب شرقى طابا، وجدير بالذكر أن الأطلس المصرى العام الوحيد الذى خصص خريطة قائمة بذاتها لسيناء، وعين فيها موقع طابا داخل حدود مصر بوضوح، هو الأطلس الذى عمله الدكتور صبحى عبد الحكيم وحرمه السيدة الأستاذة إجلال السباعى، وفى الصفحة الحادية والعشرين منه ترى خريطة سيناء وفيها بير طابا داخل حدود مصر، ولا غرابة فى ذلك فصبحى عبد الحكيم هو منشئ مدرسة الخرائط فى قسم الجغرافية بجامعة القاهرة.

وأعود إلى صاحبى أبى فصادة فأقول إن اعتزازه بنفسه يجعله يتخير لعشه أعلى ذروة من ذرا الشجر وقد صوروه فى عشه مع أليفته وقالوا إنه من أحرص الطير على عشه وبيضه وأولاده وإن أليفته إذا رقدت على البيض، اتخذ هو مكانه على غصن فوق العش ليحمى أسرته فإذا أحببت أليفته أن تطير لتأكل شيئاً، حط هو واتخذ مكانه على البيض ريثما تعود امرأته، وهو إذا حط فوق البيض ولم ينم قط وإنما هو يقظ أبداً يتلفت فى كل اتجاه لأنه مخلوق يقظ القلب، فهو صاحب رسالة

وذيله الشاخص إلى السماء يؤكد لك يقظته وعزة نفسه وشعوره بدوره فى الوجود.

وأبو فصادة سعيد لأنه مخلوق له رسالة رفيعة يشعر بها، وعندما أتأمل الناس من حولى أجد فيهم الكثيرين جداً ممن يجمعون المال الوفير، ولكنهم مع هذا غير سعداء لأنهم طلاب مال يكسدونه لا أصحاب رسالة فى الحياة يقومون بها، ولو كانت لهم رسالات لأحسوا بطعم السعادة ومن بين من عرفت من الأطباء طبيب رمى مصرى لا تنظر فى عينيه إلا قرأت السعادة، وسر سعادته أنه طبيب له رسالة، ورسالته هى المحافظة للناس على نور العيون، وهو لا يسمع عن جهاز رمدى جديد إلا سافر إليه ودرسه واشتراه لينفع به مرضاه إذا رأى أن فيه خيراً، وإلى جانبه أذكر طبيبة مصرية تعمل فى العلاج الطبيعى، وقد ملأت عيادتها بأجهزة زخرفية لا غرض لها إلا جمع المال، وعيادتها سبع غرف كل منها تؤتيها فى اليوم بمائة جنيه على الأقل، فهذه سبعمائة جنيه فى اليوم، ومع ذلك فهذه الدكتورة أبعد ما تكون عن السعادة فقلبها مثقل بالهموم وبيتها طافح بالخصام، وزوجها مبغض لها لا يراها إلا انقبض قلبه، ووجهها ملون منقوش، ورأسها مصبوغ بلون الذهب، ولكنها غير جميلة، ووجهها يحدثك بهم ثقيل، لأن المال لا يصنع السعادة، والصباغ لا يصنع الجمال، وكلما زاد صباغ وجه المرأة كان هذا أدل على خواء قلبها من الحب، وفراغ حياتها من السعادة والأمان والرخاء.

ومن بين الحيوان البرى دب صغير طريف الهيئة يسمى الباندا ملون (أبيض أسود) أو (بنى أسود) ومن طرائف خلقتة أن أذنيه سوداوان ووجهه أبيض فيما عدا ما حول عينيه، فهناك دائرتان سوداوان أو بنيتان حول العينين تجعلان لهذا الدب الصغير شكل اللعبة، وهو بالفعل لعبة.. لعبة صينية إذ أنه لا يوجد برياً إلا فى بعض جبال

الصين ومن مزايا الباندا أنه مترفع عن الخلق لا يكاد يحفل لمخلوق، وهو يعيش في عالمه الموحش زاهدًا في كل شيء بما في ذلك الطعام والجنس، ويزعم الناس أنه أكسل مخلوقات الله، وأنه لكسله سينقرض لزهده في الجنس، وأنت إذا رأيت في حديقة الحيوان تعجبت من أمره فبينما تجد غيره من الحيوان يقبل على الناس ويتسول منهم الطعام كما نجد في حالة قرود البابون وهي متسولة فعلاً، ولهذا فقد هان أمرها على أنفسها وعلى الناس والمخلوقات، أما الباندا فلا يفعل هذا قط بل يستلقى على ظهره ويجعل قدميه في وجوه الناس زهدًا فيهم وترفعًا عليهم، وبسبب هذا الترفع عن الخلق تجد الناس أشد إقبالاً عليه منهم على غيره من الحيوان، وفي حديقة حيوانات لندن يعتبرون الباندا نجم الحديقة، والناس متزاحمون حوله أبدًا، والأطفال خاصة يفتنون به وحكومة الصين إذا أرادت أن تعبر عن مودتها لأمة من الأمم أهدتها زوجًا من الباندا، ونظرًا لزهد الباندا في الجنس فهو يكاد ينقرض، وحكومة الصين قررت التوقف في إهدائه حتى يتكاثر في جباله، فقد عرف الناس أن زهد الباندا في الحياة والبقاء ناتج عن نفوره من الجنس في الأقفاص، فهو في جباله بخير من مئات الألوف من السنين، إنه يعيش مع الحرية ويموت مع فقدانها ولو أطعموه أحب الطعام إليه، إنه مخلوق يتمسك بحقه في الحرية، إنه لا يقبل على الحياة إلا إذا كان حرًا، وزهده في الحياة مع الأسر تعبير عن تمسكه بحقه في حريته ورفضه أن يكون لعبة أو فرجة، وهو من هنا يشبه أبا فصادة وكلاهما يذكرني برجل من الخوارج اشتهر بالبسالة وقول الشعر الحماسي الجميل، وكان يستبسل في حرب جيوش الحجاج بن يوسف الثقفي دفاعًا عما يؤمن به فوق ذات مرة في أسر الحجاج، وكان الحجاج معجبًا به، لأن الحجاج على عكس ما يظن الناس كان رجلًا يشعر أن له رسالة في الحياة، ورسالته هي الدفاع عن الدول والنظام، وهو يدخل

فى زمرة طراز من أهل السياسة يفرحون بالمخلصين للعرش أو اللوباليستس The Loyal ists وكان يخدم خليفة ممتازاً هو الوليد بن عبد الملك ، وكان الحجاج بن يوسف يرى أن طاعة الوليد واجبة لأن الوليد فى طاعة الله وخدمة الإسلام ، وليس من حق أى مواطن فى هذه الحالة أن يخرج عليه أو يمنع عنه مال الجباية ، ومن فعل ذلك فلا بد من عقابه ، وكان بنو أمية فى أيامه قد فقدوا ولاء عامة المسلمين بإقدامه على مقتل الحسين رضى الله عنه لأن آل البيت جميعاً بيت كل مسلم ، والعدوان على أمنهم عدوان على كل مسلم ، فما بالك بالحسين رضى الله عنه سبط الرسول الأكرم ﷺ ، ولكن الحجاج كان رجل الدولة والنظام ولا شأن له بما سوى ذلك ، وهو من هذه الناحية رجل له رسالة ومعظم المسلمين لا يقرون الحجاج على هذه الرسالة ويرونه جباراً عنيداً بل كافراً ، ورأى الناس لم يكن يعنى الحجاج فى شىء مادام هو مؤمناً بها وفى حدود رسالته هذه يقوم الحجاج بواجب الحماية لكل مسلم يقف مع النظام ومن دلائل اهتمام الحجاج بخدمة الأمة أنه كان من أكثر الناس اهتماماً بضبط المصحف وله فى ذلك يد بيضاء ، وكان يرمى المساجد ، ويصل القراء فيها ، وهو الذى أنشأ مدينة واسط وصحح عيار العملة . وكل ذلك داخل فى الخط الذى رسمه لنفسه فى الحياة .

ونعود إلى الخارجى فنقول إن الحجاج كان معجباً به فأدخله على نفسه بعد أن فك قيوده تكريماً له وقال :

— أما آن لك أن ترعوى عن غيك وتعود إلى طاعة الله؟

— إنما أنا فى طاعة الله منذ عقلت

— أردنا بك الخير ودعوناك إلى الدخول فى طاعة أمير المؤمنين وترك ما أنت فيه من المعصية.

— وكيف أطيع الله بطاعة الوليد وهو عاص الله ورسوله؟

– ويحك أيها الرجل هذا كلام يحل لي دمك.

– خير لي أن أموت بسيفك وأنا في طاعة الله من أن أقتل نفسي وأموت كافرًا في طاعة الآبق الموليد.

– لا خير فيك يابى الله إلا أن أوردك مورد التلف.

– ليس شيء أحب إلى من أن ألقى الشهادة على يد عدو الله.

وقتله الحجاج، ومثل هذا الرجل يستحق منا الإعجاب حتى لو لم نكن نرى رأيه، فإنه رجل له مبدأ وإيمان، وهو مستعد للموت في سبيل مبدئه، وهنا ونحن نقرأ أخبار أولئك الناس نشعر أن الحياة تسيرها فئة قليلة جدًا من الرجال ذوى المبادئ والإرادات والعزمات وأنه لا معنى للحياة إذا كان الواحد منا يستعمل ما أعطاه الله من سنوات العمر في ابتزاز أموال الناس أو سرقتهم أو التسول وتضييع الكرامة، ومرحبا بالحياة إذا كان الإنسان سيعيشها على مبدأ أبى فساد ولا كانت الحياة إذا كنت ستعيشها على مذهب القبرة.

وإذا نحن تأملنا التاريخ وجدنا أن الذين صنعوه حفنة قليلة جدًا من الناس ذوى الفكر والإرادة والجلد والطموح، وحتى بلد مثل بريطانيا قال المؤرخ ماكوني: إن الذين وضعوا أساس قوتها عشرة من الرجال من طراز أوليفر كروموويل، والمؤرخ الكبير بنديتو كروتشى قال: إن تاريخ أوروبا لا يمكن تصويره بدون ليونارد دافيتشى، فقد عرف الناس على يديه قيمة العلم والفن والطموح إلى تحسين صورة الحياة على الأرض، والعلم والعمل الجاد والفن الطموح هي في رأيه أسباب امتياز الرجل الأوروبي على غيره، ولولا طموح كريستوفر كولومبوس لما كشف الأوروبيون العالم الجديد بمجرد نهضتهم في إغماء العصور الوسطى، وكروتشى على حق فهنا نحن أولاء اليوم في الدنيا نحو مائة وثمانين دولة، ولكن الدول التي يحسب لها حساب لا تزيد على عشر هي التي تملك العلم والمال والقوة

والفن وإرادة الحياة والقدرة على توجيه التاريخ، والباقي أتباع وحواش
مهما كان رأيهم فى أنفسهم، ورجال مثل نابليون بونابرت يستحق
المكانة التى يحتلها فى التاريخ مهما كان نقد الناس له فإن حروبه
أحدثت زلزالاً فى أوروبا فأفاق كل أهلها وتحركوا إلى القوة المسيرة
للتاريخ، وإذا كان قد أيقظ الأوربيين باستبداده وسيطرته وحروبه فقد
تعلموا عندما قاموا فى وجهه كيف يرفضون الظلم ويقضون على
الطغيان ! .

وعندما نعيد النظر فى حياة نابليون نرى بوضوح أن أهم عنصر من
عناصر الحياة الناجحة هى أن تكون عندك إرادة النجاح والعزيمة على
أن تقود أنت الحياة لا أن تقودك الحياة.

فعندما اختارته الإدارة (الديركتوار) لى يقود الحملة الإيطالية فى
سنة ١٧٩٥م كان ضابطاً صغيراً مشاعباً لا يرجى له مستقبل كبير كان
فى السابعة والعشرين من عمره، وكان سجل خدمته حافلاً بالعقوبات،
ولكنه كان قارئاً عظيماً لكتب الحرب والاستراتيجية وخصاً كتاب جان
انطوان هنرى دى جيسبرت وهو كتاب ينبه إلى أهمية المدفعية وكان
نابليون ضابطاً فى المدفعية، وقد أحسن استخدامها فى المهام الأولى التى
وكلت إليه وعندما رماه أوجوستان روجسير قائداً للمدفعية فى جيش
إيطاليا أحس أن فرصته تدنو، وعكف على قراءة الكتب المطولة عن
إيطاليا وجغرافيتها وانعقد عزمه على أن يصل إلى القيادة العليا وعندما
اختاروه قائداً لجيش الداخل أدرك أنه يستطيع من مركزه هذا أن
يسيطر على فرنسا فسعى حتى كسب ثقة باراس أحد كبار رجال
حكومة الإدارة، وسارع بالانتفاع بهذه الفرصة فقام بانقلاب فندمير فى
أكتوبر ١٧٩٥م ووصل إلى درجة جنرال.

وكان فى جيوش فرنسا إذا ذاك أكثر من أربعة آلاف ضابط ولكن
نابليون فرض نفسه على الحكومة من دونهم ووصل إلى قيادة جيش

إيطاليا وهو لم يعتبر هذا التعيين فضلاً من الحكومة عليه بل اعتبر قبوله لهذه الوظيفة فضلاً منه على فرنسا وثورتها، وهو لم يقبل هذا التعيين ويركن إلى السكون وغشيان المجالس والحفلات في باريس كما كان غيره من كبار الضباط يفعلون، بل أسرع إلى مركز قيادته في سافونا، وكانوا قد قالوا له إن جيشه خمسة وأربعون ألف رجل فوجدهم ثلاثين ألفاً ثيابهم مهلهلة وطعامهم سيء وخزانة الجيش خاوية..

وغالبية الجنود والضباط متمردون يتغيبون عن المعسكر معظم أيام الأسبوع، وبدلاً من أن يجلس إلى مكتبه يكتب الشكاوى إلى الحكومة المركزية أو يذهب إلى باريس ليتعجل المدد من الحكومة نراه يقبل على عمله بحماسة ويخطب جنوده قائلاً: أيها الجنود أنتم عراة جائعون ورواتبكم متأخرة إذا صدق عزمكم معي فستقع في أيديكم ولايات غنية ومدن عظيمة وفيها ستجدون المجد والشرف والمال يا جنود إيطاليا هل تعوزكم الشجاعة أو صدق العزيمة؟ كلا.. إنكم أبطال شجعان سيروا معي وسترون أين تصلون!.

ثم أقبل على جيشه يدربه وينظمه ويعيده إلى النظام وأنفق نصف ما أعطوه من أموال في صناعة مدافع جديدة وضع مواصفاتها بنفسه وصنعها على عينه وبعد أربعة أشهر كان جيشه أكثر جيوش فرنسا نظاماً وفي ١٢ أبريل ١٧٩٦م سار بجيوشه في أراضي إيطاليا وقد وضع بنفسه القواعد الأساسية للنصر وهي مباغتة العدو في كل حين والاعتماد الأساسي على المدفعية ثم إطلاق أيدي الجنود والضباط في كل مدينة أو قرية يمرون بها وبهذه القواعد استمات جنوده في القتال تحت رايته وتوالت انتصاراته وبعد أن اكتسح قوات الأعداء وكسب انتصارات مدوية دخل مدينة نيس دخول الظافرين وكانت أيدي جنوده، قد امتلأت بالأموال لأنه لم يحاسبهم على ما يغنمون وإنما كان يكتفى بمطالبتهم بأن يشتروا من مالهم ملابس أنيقة، ودخل جنوده نيس في أبهى زى

عسكري وأعظم نظام عرفته أوروبا وصار صيته في العسكرية الفرنسية فتدافع الضباط والجنود راغبين في العمل مع نابليون فوضع قواعد غاية في الصرامة لجيشه، وأطاعها الضباط والجنود لأن هذا الرجل يقودهم فعلا إلى الغنى والمجد والجاه، وكان إلى جانب ذلك من أكرم القادة بالترقيات على العاملين معه من شجعان الضباط والجنود، وخلال هذه الحملة كون نابليون حفنة الضباط الأبطال الذين كسب بهم انتصاراته العظيمة فيما بعد، وعندما عاد من إيطاليا كان بالفعل بفضل إرادته ومهارته وانتصاراته نجم العسكرية الفرنسية الأول وعندما اقترح على حكومة الدير كتوار حرب إنجلترا بقطع طريق تجارتها في مصر رحبوا بالموافقة ظنا منهم أن هذه فرصة يتخلصون بها من ذلك القائد المحبوب من ضباطه، الخطر على الحكومة وقبل أن يغادر باريس إلى طولون. على رأس جيش مصر في يونيو ١٧٨٩م كان قد وضع كبار ضباطه في مراكز القوة والإدارة في باريس، وهؤلاء كانوا يكتبون له تقارير يومية عما يجري في باريس لكي يعرف متى يعود، وتنظيمه للحملة الفرنسية على النحو الذي نعرفه يدل حقا على أن نابليون لم يكن مجرد ضابط ممتاز بل أمامنا هنا مفكر واسع الذهن بعيد النظر يعرف أن العلم أساس كل نجاح في الحياة، هنا نفهم كيف فرض نابليون نفسه على التاريخ ووصل إلى ما وصل إليه. إنه لا ينتمي إلى جنس القبريات بل إلى جنس أبي فصادة.

وبعد هذا المثال الواضح التفاصيل من التاريخ الحديث التفت إلى مثال من تاريخنا من أمثلة الرجال الذين يصنعون التاريخ لأن لديهم عزيمة النجاح والقدرة على فرض أنفسهم على الحوادث. هذا المثال هو خالد بن الوليد بن المغيرة بطل الإسلام المشهور، ولقد قرأنا عشرات الكتب عن خالد دون أن نفهم من أحد منها سر امتيازته، وكيف وصل إلى المركز الذي جعله أعظم قائد عسكري عرفناه في تاريخنا، لقد قرأت

من شهور كتاباً ضخماً عن خالد والمؤلف لا يذكر اسمه إلا أشفعه بلقب سيف الله وسيف رسوله ، كأن خالداً أصبح بطل الإسلام لأن الرسول صلوات الله عليه أعطاه هذا اللقب ، ولم يسأل العلامة الجهمي نفسه : كيف استحق خالد من رسول الله هذا التشريف الكبير؟

كان خالد بطبعه رجل إرادة وعزم لا بد من ذلك وإلا ما وصل خالد إلى شيء ، فإن الحوادث تصنع الرجال العاديين ولكن الأفذاذ يصنعون الحوادث ويقودون التاريخ. فإن خالداً عندما استقر رأيه على دخول الإسلام كان قد آمن إيماناً صادقاً برسوله ، لأنه نظر إليه بعين القائد فرأى من آلاء صدق الرسول وحسن قيادته لرجاله ما زاده إيماناً بالإسلام فدخله على عزيمة صادقة وإحساس بأن الإسلام هو المال الحقيقي الذي تتجلى فيه ملكاته ، وكان رسول الله ﷺ فيصلاً في معرفة أقدار الرجال ، يرى الرجل أول ما يراه ويسمعه يتحدث فيعرف قدره ، وقد سر بإسلام خالد ورحب به وعندما ندبه للاشتراك في سرية مؤتة كان يشعر أن هذا الجيش الذاهب لقتال الروم لا بد سيحتاج إلى موهبة عسكرية من طراز خالد ، وصدقت فطانة الرسول ، واستطاع خالد بعد مقتل الأمراء الثلاثة : زيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة وجعفر بن أبي طالب أن يحول بين جيشه والتفرق ، فضمهم إلى نفسه وخادع الروم ، وتمكن من العودة بالجيش سالمًا لم ينقص إلا اليسير.

وعندما تولى خالد مهمته الأولى في حروب الردة نجد أنفسنا أمام رجل ذي عزيمة وحزم وفلسفة خاصة في قيادة الجيش ، فهو فارس له قلب أسد ، وقد قامت فلسفة خالد العسكرية على إيمانه الإسلامي العميق وتأثره العميق بشخصية الرسول ﷺ ، وكانت القاعدة العسكرية الأولى التي سار عليها هي حسن ترتيب الجيش ثم الإسراع بمباغتة العدو بكل ما لديه من قوة ، فلا يترك له فرصة للتفكير ، فلا يترأى الجيشان إلا دفع خالد كالسيل فزلزل العدو ، والقاعدة الثانية هي إكرام

جنده وإعطاؤهم كل ما يعطيهم إياه الإسلام، وهو كثير فكان جنده يسرون معه وهم واثقون من شيئين: من النصر فإن خالداً رجل النصر ثم من الجزاء الأوفى فلا شيء يعجب الجندي أكثر من يقينه بأن قائده سخي اليد لا يؤثر نفسه بشيء وإنما يعرف حقوق المقاتلين.

والمثال الأكبر لذلك كله هو أن أبا بكر عندما استقر رأيه على أن يعهد لخالد في قيادة جيوش المسلمين في حرب فارس، مشتركاً في ذلك مع عياض بن غنم كانت تعليمات أبي بكر تقتضي بأن يتجه خالد إلى العراق عن طريق الحيرة ويسير عياض عن طريق دومة الجندل، فأما خالد فقد مضى بمن معه كالسهم المارق لا يواجه العدو في موقف إلا باغته ومزق جيشه قبل أن يفيق من ذهوله، وكان القادة في ذاك العصر يتمهلون في المسير والهجوم فما راع قادة الفرس إلا فارس على رأس فرسان الأسود لا يرون العدو حتى ينقضوا عليه على تعبئة تامة وخطة محكمة فلم ينقض لخالد عام في الحرب إلا وقد دخل الحيرة واستقر الرعب في قلب أعدائه، ومع خالد جنوده مستعدون لخوض النار معه مؤمنين بالنصر واثقين من حسن الجزاء، وبعد أن فتح خالد الحيرة وبدد قوات الأعداء يصله أمر من أبي بكر يطلب إليه أن يخفف لعون عياض بن غنم الذي عجز عن فتح دومة الجندل فأرسل خالد لعياض رسالة هي برقية ودليل عبقرية من خالد بن الوليد إلى عياض بن غنم بلغني أمرك وأنا سائر إليك والسلام وما وصل خالد حتى بدد الأعداء وأطلق جيش عياض بن غنم وضمه إلى جيشه وقد تعلم عياض من خالد من دروس العسكرية ما جعله فيما بعد من أعظم قواد الإسلام.



لتكن فلسفتك في الحياة فلسفة خالد ونابليون.. فلسفة رجل ذي إيمان وعلم وعزيمة على صنع نفسه أولاً.. ثم صنع التاريخ بعد ذلك، فلسفة رجل لا يدع غيره يصنع له حياته بل هو الذي يصنع حيوات

الناس ، وأن أكبر سبب فى هبوط مستوى الشباب عندنا أننا نقضى على شخصياتهم ونتدخل فى حياتهم بنظام تعليمى أشبه بقواعد تربية الكتاكيت فى مزارع الدجاج ، ففي مزارع الكتاكيت يتصرف فى مستقبلها عامل يقتل بإهماله وجهله سبعين فى المائة منها ولا ينجو منها إلا ثلاثون ، وفى نظامنا التعليمى هناك التدريس السقيم وسوء إدارة المدارس والكتب التافهة والمدرسون المرهقون والأسئلة الواهية والتصحيح البالغ الرأفة ، ثم مكتب التنسيق . والشباب لا يصنع نفسه بل يصنعه نظام هذا المكتب والطالب يمضى سنوات الدراسة وكأنه رقيق على خط الإنتاج فى مخبز آلى : ونادرا ما يخرج رقيق على هيئة رقيق يفتح النفس .

أريد منك أن تتمسك بأن تكون حياتك من صنع نفسك لا من صنع من حولك لأن الله خلقك ووهبك العزيمة وأهلك لأن تكون ممن يصلحون الأرض والناس ، أريد منك أن تكون على الأقل أبا فصادة ، ومهما يبلغ الأمر فلا تكن قط قبرة لا تزال طول عمرها القصير تنبش التراب باحثة عن رزق ضئيل لأن الذى يجرى وراء الملايم لا يصل أبداً إلى الملايين .

حسابات التكية*

كان لنا فيما مضى صديق كريم من أهل الأدب هو الدكتور محمد عبده عزام ، ندبوه بعد تخرجه موظفًا في التكية المصرية في جدة ، فكتب عن تجربته في عالم النوم والأكل والكسل كتابًا طريفًا حافلًا بالفكاهة يسمى «شيخ التكية». وقد أمتعني كتابه هذا ، وشوقني إلى زيارة تلك التكية ، فلما حججت أول مرة سنة ١٩٣٨م لبثت بعد الحج أسابيع أزور معالم مكة وجدة وأتطلب أخبار هذه التكية ، وزرت آخر شيوخها في بيته ، وكان زكينة أو شوالاً شركسيًا ذا جثة هائلة وشوارب عظيمة ، ولكنه كان أنيسًا لطيفًا صاحب دعابة ، وقد أطرفني الرجل بأحاديث ممتعة عن تاريخ هذه التكية وأسلوب الحياة فيها..

وقد حكى لي أنه أتاه ذات مرة من مصر مفتش مالى أرسلته وزارة الأوقاف المصرية ليراجع حسابات التكية ، وكان هذا شيئًا جديدًا فلم يسبق أن أرسلت الحكومة المصرية مفتشًا من هذا النوع ، فلما دخل المفتش وجد هذا الشيخ مسترخيًا على أريكته في الحديقة متكئًا على الوسائد وكان عمله ينحصر في تناول الوجبات الفخمة الرسمية والالتكاء على الأرائك طول النهار..

ولم يسمع الشيخ تحية المفتش عندما دخل لأن رأسه الضخم وعمامته الفخمة كانا مائلين على صدره ، وقد استقرت العمامة الفخيمة على كرشه في نعاس لطيف ، وقد استاء المفتش لقلة الاحتفال به فجلس على كرسي قريبًا من الأريكة وطلب إلى خادم أن يوقظ الشيخ فقال الخادم :

* نشرت هذه المقالة في ٩ يونيو ١٩٨٥م .

– لا يجرؤ أحد على إقلاق راحة الشيخ أثناء تأدية عمله.

– يا أخى إنه لا يعمل شيئاً إنه نعلان.

قال الخادم: هذا يا سيدى هو جانب من عمله الرسمى لا تنسى
يا سيدى أننا فى تكية.

– وما بقية عمله ؟

– تناول الوجبات فى أوقاتها وأداء الصلوات عند دخولها..

وعلى هذا الحديث أفاق الشيخ ، فرفع عمامته الهائلة ومعها رأسه ،
وطلب من الخادم ماء ، فناوله قلة ، صب فى حلقه نصفها ثم تلمظ
وتمزمز ومسح شاربه ولحيته ، ونظر إلى المفتش نصف نائم وقال :

– من هذا يا ولد يا فراش جلبى ازميرلى ؟

فقال له الخادم: هذا مفتش حسابات وفد ليلة أمس قادمًا من القاهرة
فأطال الشيخ النظر إلى المفتش ، ثم أشار إلى الفراش فأقبل ورفع عمامة
الشيخ ليهتوى رأسه وليهرشه بعض الشيء ، ثم وضع الفراش العمامة
مقلوبة على الأريكة إلى جوار الشيخ. وقال الشيخ..

– مفتش حسابات ؟ وماذا يريد منا ؟

– فقال المفتش : معذرة يا شيخ مصطفى زاده مغلطاي أفندى : أنا
واحد من وزارة الأوقاف فى القاهرة لكى أراجع حسابات التكية..

– وما لوزارة الأوقاف وما لنا ؟ وهل لنا نحن حسابات تراجع ؟

– يا شيخ مصطفى زاده مغلطاي أفندى إنكم تتسلمون اعتمادات
مالية كل عام.. وهذه الأموال لابد أن لها حسابات ، وأريد إذا سمحت
أن آخذ فكرة عما تعملون هنا إلى جانب الانجعاص على الآرائك..

فطلب الشيخ القلة وأفرغ في جوفه نصفها الباقي ، وناولها للفراش
والفراش أخذها وأخرج منديلاً محلاًوياً مسح به شارب الشيخ ولحيته
وقال الشيخ :

- يا حضرة مندوب وزارة الأوقاف أفندى هذه تكية والتكية هي
المكان الذى يجلس الناس فيه مكتئبين على الآرائك ، ومن هنا جاء
اسمها ، وأنا عندما أجلس على أريكتى على الوسائد إنما أقوم بمهام
وظيفتى بالتمام والكمال ، ففي المصنع أنت تصنع ، وفي المزرعة أنت
تزرع ، وفي التكية أنت تتكى..

- مفهوم يا أخى الشيخ مصطفى زاده مغلطاي أفندى ، ولكنى أحب
أن تكلف خاطرك وتحرك جثتك الشريفة وتأتى معى إلى مكتبك لكى
تراجع الحسابات..

- مكتب وحسابات يا سيدى ما اسم حضرتك ؟.

- محسوبك عبد المعبود عبد الدايم الديروطى وكيل حسابات بوزارة
الأوقاف..

- اسمع يا حضرة عبد المعبود عبد الدايم الدشطوطى أفندى.

- الديروطى يا شيخ مصطفى زاده مغلطاي أفندى.

- يا أخى اسمك معقد.. سأسميك على أفندى ، فهذا اسم خفيف
لطيف ومبارك أيضاً فهو اسم مولانا الإمام الأكبر كرم الله وجهه. يا على
أفندى لا يمكن أن تكون للتكية حسابات أو دفاتر ، فنحن هنا نعيش
بالبركة ، نتسلم الاعتمادات ونضعها فى الخزانة وننفق منها شيئاً
فشيئاً بلا دفاتر أو أوراق..

- هذه التكية تابعة لوزارة أوقافنا ، وهى التى تقدم لها الأموال ،
فكيف لا يقدم لها حساب مضبوط عن كل مليم يصرف منها ، نحن

يا سيد شيخ مصطفى زاده مغلطاي أفندى حكومة ، حكومة ذات إدارة وحسابات وضبط وربط..

فحك الشيخ مصطفى مغلطاي زاده أفندى رأسه الأصبع صلعا تاما وقال :

- يا جناب على أفندى مفتش حسابات : أنتم حكومة ونحن تكية ، وعندى هنا ستون تنبلاً مستوفون لكل شروط التنبلة ، وكل منهم دخل التكية بتوصية خاقانية من استانبول أو ملوكية من مصر ، والعمل المطلوب منهم هو القيام بالعبادات بكل قواعدها وشروطها والنوم متى شاءوا والأكل حتى يشبعوا ثلاث مرات فى اليوم ولهم بحكم قانون التكية أن يأكلوا عثمانلى أو مصرلى..

- ربما ، ولكن هذا أيضاً يمكن أن يعمل له حساب.

- يا مفتش أفندى كيف تطالبنى بأن أعمل للتنبلة حسابات ؟

- أنا أفهم أنك لا تستطيع عمل حساب التنبلة فأنتم لا تشترونها بل تصنعونها محلياً ، ولكنك تستطيع أن تعمل حسابات الأكل..

- هذا غير ممكن يا مفتش أفندى لأن قانون التكية يقول إن من حق كل تنبل أن يأكل ما يشاء عثمانلى أو مصرلى بلا حساب ، خذ عندك تنبل مراد سنجق أغا باشا النائب على الأريكة أمامك تحت الشجرة هذا أصله من وراء مولانا حارس الحرميين وخاقان البرين وسلطان البرين مولانا غازى أمير المؤمنين عبد المجيد خان ، وغضب عليه مولانا وحكم عليه بالموت بالخازوق ، ثم تشفعت فيه والدة باشا ، وأرسلته إلى هذه التكية الشريفة ليقضى بقية عمره فيها ، وقالت إنه لا يجوز قتله بعد أن خدم الدولة وأنجب لها عشرين ولداً ، عشرة منهم رجال وعشر نساء ، وتسليته الوحيدة هنا هى الطعام ، لقد تغدى اليوم بنصف قوزى مشوى ومحشو باللوز والزبيب والأرز ، ولو أراد أن يأكل

القوزى كله لتركناه له احتراماً لتنبلته ، أولاً ، ثم لأنه تنبل وزير سابق
سلطاني ثانياً ، ووظيفته الأساسية بعد الصلاة هي الأكل ، وهو يقوم
بهذه الوظيفة على خير ما يرام ، والدليل على ذلك أنه بعد أن أكل
نصف القوزى بكل جد واجتهاد ختم غداءه بأربعة طواجن أرز باللبن
في الفرن ، ولو طلب خمسة أو عشرة فلا بد أن نقدمها له وإلا اتهمونا
بأننا نحول بين موظف مجتهد وآداء مهام وظيفته ، فكيف أعمل
حساباً لطعام ستين تنبلاً مثل مراد أغا سنجق باشا؟..

- إذن فلا سبيل إلى عمل حسابات لتكيّتكم هذه ؟

- وبعدين معك يا مفتش أفندي ؟ أقول لك هذا ثور ، فتقول لي
أحلبه . نحن هنا تكية والتكية تأخذ بغير حساب وتعطى بغير
حساب ، والتنايلة يأخذون ولا يعطون ، وأنا يا سيدي لا أستطيع
تغيير هذا النظام ، وإلا قام على التنايلة واتهموني بالتآمر على النظام
القائم..

- ليس أمامي إلا أن أرفع فيك تقريراً إلى الوزارة وأطلب إحالتك إلى
التحقيق

- لا تستطيع يا مفتش أفندي.

- ولماذا لا أستطيع ؟ ألسنت موظفاً في الحكومة ؟

- بلى أنا موظف ، ولكني غير قابل للعزل.

- سبحان الله ! وهل على رأسك ريشة.

- تحشم يا ولد مفتش أنا رأسي ليس عليها ريشة ولا شيشة ،
ولا حتى شعره ، إنني أتولى وظيفتي هذه تنفيذاً لوصية مؤسس التكية
مولانا خادم الحرمين وسلطان البحرين وحمى البرين غازى خاقان أمير
المؤمنين سليم أول يا ووظ فاتح مصر والشام ومنشئ هذه التكية وواقف
أوقافها..

– تريد أن تقول إنك معين من قبل السلطان سليم.

– تحشم يا ولد مفتش غبى وأذكر السلطان بكل ألقابه. يا حمار مفتش أنا حفيد حفيد حفيد صدر أعظم كوكبرى مغلطاي خدام مولانا الخاقان أمير المؤمنين غازى سليم أول ياوروظ ، وابنه سلطان خاقان سليمان قانونى. أعطى جدى لقب سنجق تكية جده وأوقف هذه الوظيفة على جدى وأولاده وأحفاده ، فأوقف هذه التكية ملكى بفرمان خاقانى..

– يا شيخ زاده مغلطاي لقد مضت أيام مولاك خاقان غازى سليم ياوروظ وابنه سليمان قانونى..

– غلطان يا ولد مفتش لأن سلطان وخليفة عثمانلى تنازل عن التكية لجلالة مولانا ملك مصر فؤاد أول حفظه الله ، ولكى تعزلنى فلا بد أن تعزل جلالته أولاً.. وإذا أردت عزل جلالته طار رأسك ، هذا نظام وقانون يا ولد مفتش حمار ، ونحن سنتركك تنام ، وتأكل فى التكية احتراماً لمولانا جلالة الملك الآن امش من أمامى ، فقد حان موعد صلاة العصر ولا بد أن أتوضأ.. يا ولد فراش هات الطشت والصناوور..

وحمد المفتش الله على أنهم لم يطرده من التكية ، وقال فى نفسه : ملعون أبو الحسابات والميزانية سأظل فى هذه التكية وأتمتع بالقوازى والدواجن والطواجن والمهلبيات والحلويات حتى يجىء موسم الحج فأقوم بالفريضة ثم أعود إلى مصر..

ودخل غرفته وصلى العصر ثم جلس ينظر فى أوراق وجددها على ترابيزة، ومن بينها وجد شهادة وفاة تنبل يسمى بايزيد أفندى أرندلى أغا توفى من شهرين فأسرع بها إلى شيخ التكية فأيقظه فى رفق وقال..

– يا شيخ شيوخ التكايا وصاحب الكرم والعطايا مولاي مصطفى زاده مغلطاي باشا هل عينتم تنبلاً مكان المرحوم بايزيد أفندى أرندلى أغا ألف رحمة من الله..

- ليس بعد ولكن إذا أردت نظرت في تعيينك تنبلاً تحت التمرين
لأنك يا مفتش عبد المعبود البطوطى..

- الديروطى يا أفندم.

- ديروطى بطوطى دشطوطى ، كله زفت ، وأنت تنفع كاتب
خصوصى لجنايبنا لتعمل حسابات أملاكنا الخاصة ، فالمصريون
مشهورون بأنهم كتبة شطار ، وتحول المفتش إلى خادم تنبل ، ودل
بذلك على أنه رجل ذكى ، والتكية المصرية فى جدة أنشئت سنة ٩٢٤
هجرى ، أما التكية المصرية فى مصر فقد أنشئت فى ذى القعدة ١٣٧٢
هجرى ، وذو القعدة ١٣٧٢ هجرى يقابل يوليو ١٩٥٢م ميلادى
المبارك..

وثورة ذى القعدة ١٣٧٢ هجرى وضعت القوانين الإصلاحية الأساسية
للتكية المصرية ، وأزالت بالشرعية الثورية كل علاقة بين العمل
والأجر ، والحق والواجب ، وكانت هى الخطوة الأولى لتحويل مصر إلى
تكية دولية. وثورة ذى القعدة صاحبة الفضل فى قانون الإصلاح الزراعى
الذى ليس بقانون ولا إصلاح زراعى ، لأن الذين صاغوا هذا القانون
كانوا على شىء من العلم ، وفى المذكرات التى كتبوها والدراسات التى
خلفوها لنا تحس أنهم كانوا على فهم لا بأس به بمعنى الإصلاح
الزراعى ، ولكن المصيبة جاءت من الذين طبقوه ، وكانوا جميعاً أبعد ما
يكونون عن العلم بالزراعة أو الصناعة أو أى شأن من شئون الإدارة
السليمة ، وكانت تسيرهم خصائص كثيرة ، الأولى هى الغرور ، وإدعاء
أنهم يعرفون كل شىء وأنهم هم وحدهم الوطنيون المخلصون الواعون
والباقي غنم. والنزعة أو الخاصية الثانية جهل شامل عميق ، وإذا أنت
درست أحوال مؤسسى التكية لتبينت أن اثنين منهم فقط قرأ كتاباً
وعرفا لغات. أما البقية فمستوى نجاحهم فى الثانوية العامة لا يتعدى
درجة جيد ، أما الدراسة العليا فلم تزد بالنسبة لغالبيتهم على سنتين ،

وبعضهم تخرج بعد أقل من سنة، وبهذه الحصيلة من العلم فرضوا أنفسهم على البلد، وزعموا لأنفسهم أنهم قادرون على حل مشاكلها جميعا. والنهوض بها، وألغوا وجود أهل العلم والفهم والتخصص واحتقروهم، ومن هنا فقد زادوا الأحوال سوءا، وأضافوا إلى أدوائنا القديمة أدواء جديدة. والخاصية الثالثة حقد شديد على كل متعلم أو صاحب مال، بل على البيوت الطيبة الكريمة وأبنائها، وأذكر أننا كنا ذات يوم في الأردن في زيارة ودية، ودعونا إلى وليمة عربية أردنية تسمى المنسف يضعون فيها الطعام - وهو ثريد بأرز كثير ولحم كثير في آنية كبيرة كالطشوت على الأرض ويقعدون على الأرض ويأكلون بالأيدى وأصحابنا في الأردن مهرة في الأكل بهذه الطريقة. وجلسنا ودار الأكل، وتحيرت في أمرى كيف آخذ الثريد بيدي وأرفعه إلى فمى دون أن «أزروط» ثيابى، فقررت أن أظاهر بالأكل ولا آكل حفاظاً على ثيابى، ومن بعيد أسمع السيد كمال الدين حسين يقول: مش عاوز شغل أولاد الذوات، ده يا سى حسين! وبعد الطعام قلت له: أى ذوات تعنيهم يا سيدى الوزير؟ إن والدى خرج على المعاش بثلاثة وعشرين جنيها بعد خدمة خمس وثلاثين سنة صيدليا فى الحكومة، وعندما فرغت من الدراسة الثانوية وأردت دخول الجامعة قلت لأبى: لا عليك من نفقة تعليمى فسأقوم أنا بها، وكفاك ما فعلت من أجلى. وعملت ودرست وأتممت تعليمى فأين أنا يا سيدى من الذوات؟ والخاصية الرابعة هى النهم إلى السلطان والاستبداد بالأمر كله، وإلغاء وجود الشعب مع النفاق الأسود والتمدح بالشعب والديموقراطية فى الخطب من على المنابر.

ومن هنا فسد كل شىء فى أيديهم، حتى السد العالى، وهو مفخرتهم الكبرى - ضيعوا جانباً كبيراً من الفائدة منه باضطهادهم لكل مواطن ذى علم جرؤ على أن يدلى برأى أو يوجه انتقاداً للمشروع

الروسي ، ولا غرابة إذن في أن الروس قالوا لنا إن السد سيعطينا قدرًا هائلًا من الكهرباء يغطي كل احتياجات مصر ووجدنا في النهاية أن الذي طلّعنا به منه لا يزيد على خمس ما قالوا ، ونحن من عشرين سنة نحاول إصلاح عيوب السد.

والإصلاح الزراعي معناه إصلاح الريف كله أي الارتفاع بالمستوى الاجتماعي والثقافي والعلمي للفلاحين ، والقضاء على القرية الفقيرة الكابية ، وإنشاء قرى جميلة حديثة مكانها ، وإصلاح نظام الري وأساليب علاج الأرض علاجًا علميًا واقتصاديًا ، وإدخال الزراعة العلمية الاقتصادية ، وإصلاح الطرق والمواصلات في الريف بعبارة واحدة. تحويل الريف إلى مجتمع تقدمي منتج اقتصاديًا ، فما الذي فهمه أصحابنا من الإصلاح الزراعي؟ فهموه على أنه انتزاع الأراضي من أصحابها القدامى على اعتبار أنهم كلهم لصوص ، ولم يخطر ببالهم أنه من الممكن أن يوجد مالك أرض أمين شريف. فكل الأغنياء والمياسير في نظرهم لصوص. أخذوا الأرض من أصحابها واتهموهم جميعًا بأنهم إقطاعيون ظالمون ولصوص غاشمون يضربون الفلاحين بالكرباج وينهبون أموالهم ويرغمونهم على بيع مواشيهم لسداد الإيجارات الباهظة ، وهذا كله غير صحيح ، ثم فقتوا الأرض قطعًا صغيرة ووزعوها على الفلاحين ، فتلاشت إلى يومنا هذا الزراعة الاقتصادية من مصر ، لأن المكسب من الزراعة لا يأتي إلا من المزارع الكبيرة التي يستطيع أصحابها تولى القطن والكتان والبصل والفاكهة والخضر والإنفاق عليها ، والفلاح الصغير لا يستطيع تربية الماشية التي تدر اللبن الوفير الذي تقوم عليه صناعات الزبد والجبن والألبان التي يمكن أن تكون مصدر ثروة للبلد.

وأحسن البلاد تطبيقًا للإصلاح الزراعي هي البلاد الرأسمالية ، وروسيا نفسها التي وقعت في مصيبة مصادرة الأراضي تحولت من بلد غني زراعيًا ومصدر للطعام في عصر القيصرية تحولت بعد الثورة

الشيوعية إلى بلد يستورد الطعام ، ولا زالت الزراعة وإنتاج الطعام نقطة الضعف الكبرى فى النظام الروسى. أما الولايات المتحدة وفرنسا وألمانيا وهولندا وبلجيكا والدانمرك وإيطاليا - وكلها بلاد رأسمالية - فهى بلاد الإنتاج الغذائى الوفير الاقتصادى. إنها بلاد الإصلاح الزراعى على أصوله.

وعندما انتقلت الحكومة فى أسبانيا من الرأسمالية المطلقة التى كانت سائدة أيام الخنراليسيمو فرانكو إلى الاشتراكية فى أيام فيليبى جونتالت ماركس «رئيس وزراء أسبانيا اليوم» نادى النواب الاشتراكيون بمصادرة أراضى كبار الملاك الزراعيين ، وتوزيعها على صغار الفلاحين فتافيت ، ولكن فيليبى جونتالت - بعد التفاهم مع الاشتراكية الدولية ، وخاصة رئيسها فيلى برانت - رفض ذلك وقال: ندع الأراضى فى أيدى أصحابها، ونكلفهم بتنفيذ الإصلاح الزراعى والنهوض بالقرى والفلاحين لأن المالك الغنى هو القادر على القيام بمطالب الزراعة الاقتصادية ومحاصيل الاستهلاك والتصدير.

واذهب الآن إلى الريف الأسباني وتأمل ازدهار القرى ورضاءها وتحولها إلى مدن صغيرة ، بل منتجعات سياحية: تبهر العين بحسن روائها ، وأسبانيا اليوم ثانية البلاد الأوروبية فى الإنتاج الزراعى بعد فرنسا ، وخاصة الموالح والزيتون وزيت الزيتون والخضر والفواكه ، وأسبانيا ثانية بلاد أوروبا إنتاجاً للقمح بعد الأوكرانيين فى روسيا. وأمريكا تطعم نصف الدنيا ، وسويسرا وبلاد الشمال الأوروبى وفرنسا تنتج من صناعات الألبان ما يزيد على حاجة الدنيا ، وفى السوق الأوروبية يتحدثون عن مشكلة جيل الزبد الذى لا يدرون كيف يتصرفون فيه.

أما عندنا فقد أخذ الفلاح الصغير الفدادين الخمسة التى أعطوه إياها وزرعها وأكل كل محصولها وتزوج امرأة أخرى وضاعف إنتاجه من

الأولاد وعندما مات توزعت الأرض إلى فتافيت فى أيدي أولاده ، ولم يعد واحد منهم بقادر على إطعام نفسه من أرضه ، واشتكى الفقر والحاجة وتحسر على أيام الإقطاع وتقدمت الحكومة لتعينه فاتكل على الطعام المدعوم وأهمل الزراعة ، بل تاجر فى الأرض وتحول إلى سمسار عقارات ، وجلس فى المقهى يشرب الشيشة ويتفرج على الماتش ، وأدخل التليفزيون بل الفيديو فى بيته بكلمة واحدة تحول إلى تنبل. والتكية المصرية اتسعت حتى شملت مصر كلها ومن مآسى حياتنا اليوم أننا نستورد طعاماً بألفى مليون دولاراً ، ونستورد سبعين فى المائة من طعامنا ولا ننتج إلا ثلاثين فى المائة. كلنا أصبحنا نتكلم لغة تنبل باشا مصطفى زاده مغلطاي.

وفى ذات مرة ركبت قطاراً من فرانكفورت فى ألمانيا إلى أمستردام فى هولندا. وفى عربة القطار أجد وفداً مصرياً فخمًا من تسعة من كباتن التموين والتخطيط والزراعة والتجارة أتوا من مصر وفداً للتفاوض على قروض ومنح طعام من أوروبا ، وأجدهم يا مولاي متأنقين متصيفين: فى أيديهم ساعات الذهب وأقلام حبر الذهب فى صدورهم ، وفهمت بداهة أن حقائبهم حافلة بالهدايا والمصاغ لمقاصيف الرقبة أولادهم ونسوانهم. ولم أسأل نفسى من أين أتى وفد التسول هذا بكل هذا المصاغ والهدايا ، فإن القانون المالى يقول إن الموظف المسافر فى مهمة إذا نزل ضيفا على البلد الذهاب إليه فليس له إلا نصف بدل السفر ، ولكن أصحابنا كذبوا على الدول وأخذوا بدل السفر كله ، واختلسوا إلى جانب ذلك كم ألفا من الدولارات ، زعموا أنها بدل تمثيل للوفد لعله يقيم حفلات أو استقبالات، وضربوا الفلوس فى جيوبهم ، ولم يقيموا حفلة أو وليمة ، وهذا طبيعى ، لأنهم بطبيعة مهمتهم متسولون ، تنابلة متسولون ، وهل رأيت فى حياتك متسولاً يقيم وليمة ؟

واسمع الألمانى دليل الوفد يسأل رئيسه الدكتور تنبل أغا طامرطاش:

- ولكن يا سيدى كلنا عرف أن مصر بلد زراعى ، فلماذا لا يوجد عندكم زبد؟ أليس عندكم بقر؟

ويقول السيد الدكتور تنبل أغا فرطاش: طبعاً ما سيدى عندنا بقر. ولكنه لا يكفى.. والجواب الصحيح.

- طبعاً يا سيدى عندنا بقر كثير ، ولكنه يقر ذكر لا ينتج اللبن. إنه بقر يحمل الدكتوراه ويجلس على المكاتب ويكتب التقارير ، وكل تقرير منها يخرب بلدًا.

إنه بقر تربية إصلاحنا الزراعى المبارك.



ومن أعجب القواعد التى تقوم عليها التكية المصرية هى إلغاء العلاقة بين العمل والأجر . ونحن فيما أحسب البلد الوحيد فى الدنيا الذى وضع لنفسه قواعد شاذة غير منطقية فى الحياة والعمل. فالمصرى هو المواطن الوحيد فى الدنيا الذى له حقوق وليس عليه واجبات. وكليات القانون فى جامعاتنا تسمى كليات الحقوق لأن المفروض أن المصرى له حقوق وليس عليه واجبات. والذين أنشئوا التكية المصرية أفهموا الناس أن إدارة التكية ستعطىهم وتكسوهم وتلبسهم وتعلمهم وتزوجهم كمان. وأن واجبهم الوحيد هو النوم ، وعدم التفكير فى شئون بلادهم وإلا كانوا متأخرين على النظام وأعداء الثورة.

الأرياف - كما قلنا أخذوا الأرض من أصحابها ووزعوها على الفلاحين، ولم يطالبوهم بإنتاج ، فكان الخراب الزراعى. وفى المدن أنزلوا إيجارات المساكن العقار مرة بعد أخرى ووضعوا قوانين تجعل المؤجر هو صاحب العقار ، أما صاحب العقار فالمفروض - دون بحث أو مناقشة - أنه لص ابن كلب. فالمؤجر يورث العقار لأفراد أسرته إلى

الدرجة الرابعة ، وورثته يورثونها لأفراد أسرهم إلى الدرجة الرابعة ، وهكذا حتى يتحول العقار إلى تراب أو خرابة ، ومع ذلك فإن القانون يلزم صاحب البيت بصيانتة ، والعناية به ، بل على المالك أن يصون المصعد ، والساكن يدفع ملايم وأفراد أسرته عشرة منهم خمسة أولاد على الأقل كالعفاريت ، وهم طول النهار طالعون بالمصعد ونازلون بالمصعد ، وست هائم وزنها طن ، وهى ترسل الشغالة إلى السوق لشراء ليمونة أو ورقة ملح والشغالة تنزل بالمصعد وتطلع بالمصعد ، وإذا تعطل المصعد فإصلاحه على المالك الذى يمنعه بعض السكان من الصعود على رجلية ، ومن هنا فإن العامل الذى أصبح يكسب ثلاثين جنيها فصاعداً فى اليوم يسكن شقة إيجارها ثلاثة جنيهاً ، ويشترى البطيخة بخمسة جنيهاً ، ويعمر مزاجه بعشرين جنيهاً فى اليوم وإذا اتفقت معه على عمل يحتاج إلى يومين ويكلف جنيهاً أخذ منك مائتين ، ولم ينجز العمل بعد شهرين ، إنه ليس تنبل باشا فقط بل هو السلطان تنبل ، ثم يشكون من أزمة المساكن ويحتجون على أصحاب الأملاك الذين يطالبون بثلاثة أرباع تكاليف البناء خلو رجل ، وأين والله المجنون الذى يبنى بيتاً تتكلف الشقة فيه ثلاثين ألف جنيه ثم يؤجرها دون خلو رجل لساكن يدفع خمسة وعشرين جنيهاً فى الشهر ولا يكاد يستقر فيها حتى يرفع قضية على المالك ويطالب بتخفيض الإيجار إلى النصف أو الثلث والمحكمة تعطيه الحق ، وهو إذا دخل الشقة فلن يخرج منها هو وأولاده وأحفاده من بعده إلى أن يتحول البيت إلى تراب أو تقوم الساعة أيهما أسبق !!

لا علاقة بين الحق والواجب أو العمل والأجر فالمصنع يخسر ، ولكن العامل يتقاضى الأجر والحوافز والمنح والزيادات وصاحب العقار يبنى ويكلف ويسلم المبنى لمؤجر يصبح من لحظة دخوله المسكن صاحب ملك ، والفلاح لا يزرع ولا ينتج حتى طعامه ، والحكومة ترسل له

الخبز والبيض واللحم والدواجن لكى تتأكد من أنه تحول إلى تنبل أصيل.

تلك يا سيدى هى قواعد التكية المصرية ، وهى كما ترى أعجب من منطق صاحبنا تنبل باشا مصطفى زاده مغلطاي ، وصاحبه سنجق أغا طامر طاش ، وصاحبنا عبد المعبود عبد الدايم الديروطى المفتش المالى الذى تحول إلى تنبل مساعد أغا ديروطلى أفندى.

الفهرس

الموضوع	صفحة
التقديم	٣
١ - تعالوا نجدد فيما بيننا حلف الفضول	٧
٢ - الأوسطى شأى وفن النكد	١٨
٣ - كله تمام يا أفندم	٢٩
٤ - مجاهدون قضيتهم الفلوس	٤٢
٥ - طفل (عليل) على ذراع متسولة !	٥٤
٦ - فيران وناس	٧٣
٧ - لست وحدك فيها أيها العصفور	٨٨
٨ - أنفقت مالى وحج الجمل	١٠٢
٩ - إذن فهو القط بسبسب	١١٤
١٠ - غريب فى وطنى	١٢٨
١١ - نار اسمها الفلوس	١٤٢
١٢ - نحن نأكل لحم أخينا ميتًا وحيًا	١٥٦
١٣ - أنت وأبو فصادة وفلسفة الحياة	١٦٨
١٤ - حسابات التكية	١٨٠

١٩٩٩/٤٧٨٣	رقم الإيداع
ISBN 977-02-5787-7	الترقيم الدولي

١/٩٨/٣٣

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)

صور من الحياة المصرية

إن شخصية الدكتور حسين مؤنس كباحث وأستاذ.. تختلف عن شخصيته ككاتب مقال سياسى أو اجتماعى. فهو بالشخصية الأولى عالم مدقق منقطع الصلة بالحاضر تقريباً.. وهو بالشخصية الثانية مفكر وناقد وأديب غارق فى هموم المجتمع ومعايش للناس العاديين فى الحارة والقرية والديانة. ويجعل قلمه صوتاً للحق. لا يحيد ولا يجمال ولا ينافق.

وفى مناخ الحرية الذى تحقق للصحافة المصرية أطلق الدكتور حسين مؤنس قلمه العنان وأصبح بذلك نموذجاً للكاتب الذى لا يخشى شيئاً ولا يتردد فى قول الكلمة والتعبير عن رأيه.



دار المعارف

٠٣٥٠٠٨/٠١

